أَحْمَدْ آلْأَكْوَش

دَام ظِلُّهُ

سِيرة رِوائِيَّة

الانتشار العربي

أَحْمَدْ آلْأَكْوَشْ

دَامَ ظِلُّهُ

سِيرة رِوائِيَّة



دَام ظِلُّهُ

سِيرة رِوائِيَّة

أَحْمَدْ آلْأَكْوَشْ



مؤسسة الانتشار العربي م م ح

الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com  Alintishar Alarabi

 @Alintishar Alarabi  @Alintishar Alarabi

ISBN 978-9953-93-795-3

الطبعة الأولى 2025

المحتويات

اَلْمَفَاصِل اَلرَّئِيسَة فِي هَذِهِ اَلسِّيرَةِ اَلرِّوَائِيَّةِ، حَقِيقِيَّة، وَمَا رَافَقَهَا مِن تَصَوُّرَات، هو لِتَرْمِيمِ أَرْكَانِهَا.

تريزياس: الحقائق سوف تظهر من تلقاء نفسها رغم أني لم أقل شيئًا.

أوديب: لهذا السبب يجب أن تتكلم.

تريزياس: لقد قلت الكثير.. أكثر مما ينبغي. فليخنقك الغضب.. لا شأن لي بك.

(أوديب ملكًا، سوفوكليس)

مقدمة

في لحظة، لم يكن أحد يعلم أن الزمن سيُطوى على مأساة، وأن البيوت التي عاشت فيها الحكايات ستتحول إلى رماد. لم نكن نعلم أن الليل لن ينتهي كعادته، بل سيمتد طويلًا في أرواحنا، يُطفئ الشمس حتى وهي في كبد السماء. فحين دوّى الصراخ الأول، أدركنا أن الفجر الذي سيأتي بعد هذه الليلة، لن يكون كما كان أبدًا.

بعد أن قُتل السيد الميرزا، وهدأت الحادثة، كما يهدأ البحر بعد جنون العاصفة، وانسحبت الفوضى تاركة وراءها بقايا صمت مشحون برائحة الخوف والتعب. لم يبق سوى صدى أنفاسنا المتشحطة من دخان النيران المشتعلة في المنزل.

خرجنا من بين الركام ببطء، نتلمس الطريق بأقدام مرتجفة، كأننا نولد من جديد، عيوننا مثقلة بدهشة ما حدث. الدخان لايزال معلقًا في الهواء، وأضواء المساء الباهتة تنعكس على المنازل كأنها تحاول رسم ملامح لما كان قبل الحادثة.

تبادلنا نظرات صامتة، تحمل بين طياتها ألف سؤال بلا إجابة. لم يكن الرحيل سهلًا، لكنه كان ضروريًا.

خرجنا من سرداب المنزل ببغداد بحذر شديد، وقد أسدل الليل أثوابه، ولبس جلبابًا من القار، وقيد الظلام أحداق العيون، مستترين بستاره الدامس. لم يكن للقمر في هذه الليلة

مكان، ولم يكن للنجوم فيها ذكر، وكأن الفجر يهابها، وطلقت نجم سعدها، وعقدت مع الشؤم عقدها.

سرتُ بالعائلة عبر الأزقة الضيقة، نمشي بخطى مترددة، وأعين تائهة، تقدمت النساء والأطفال، العلوية أم أحمد، في عقدها السادس، كانت تسير متثاقلة، تتوكأ على ذراع ابنتها زينب، الشابة ذات الاثنين والعشرين عامًا، التي حاولت أن تبدو قوية، رغم أن عينيها كانتا مرآة للقلق والإنهاك. وعلى مقربة منهما سار الميرزا علي، في الثالثة والعشرين من عمره، يخطو أمامهما بثبات، يراقب الطريق بعين يقظة، كمن يحمل على كتفيه عبء الحماية والمسؤولية، حتى وإن كان داخله يعج بالأسئلة والمخاوف. عيناه تحملان بقايا أحلام لم تجد وقتًا لتنمو، وقلب يضج بالمسؤولية قبل أوانها.

تسير إلى جانبهما، زوجة السيد أحمد، وهو الابن الأكبر للسيد الميرزا، تمسك بيدي صغيريها، عبد النبي ذي السبعة أعوام، وعبد الصانع ذي الخمسة أعوام، اللذين لا يزالان يجهلان تمامًا معنى كل هذا التيه.

فيما الخادمة التي ترافقنا تمضي خلفنا، تجرّ معها بقايا بيت كنا نحسبه ملاذًا، حتى ابتلعته العاصفة.

أسدلت النساء خمورهن على وجوههن وجيوبهن، محاطة كل واحدة منهن بحجاب لا يصف ولا يشف ولا يكشف.

سرنا وكأننا قافلة من الأشباح الهائمة، وأصداء الخوف تصدح في الهواء وتطل على قلوبنا. فيما تلتقط الأنفاس الحزينة زفرات الهواء الباردة.

كل شيء كان يبدو متجهمًا بوجوهنا. الخوف يُرسَم على

محيّانا بوضوح، وكأنه يلتصق بأنوفنا كسحابة سوداء تتلون بألوان القلق والحيرة. صوت البكاء يتسارع كأمواج متلاطمة، ويندلع في الهواء كأنه ترنيمة حزينة لحالة الهلع والضياع.

النساء يتمايلن في صمت، أبصارهن تعبر عن حيرة ورعب عميق ورهبة، يراقبن حولهن بانتباه شديد، يسرن بخطوات حذرة، كأنهن يختبرن سطح الأرض بكل خطوة يخطينها.

الأبناء يتمتمون بصوت هامس، يعكس صوت الاضطراب الذي يخيم على قلوبهم. ترتسم عبارات الذعر على وجوههم البريئة، وهم يعانقون بعضهم بعضًا بقوة. يتأرجحون بين البكاء والصمت، محاولين إخفاء دموعهم بين أناملهم، ولكنها كانت تتسرب بين أصابعهم بشكل لا يمكن إخفاؤه.

العلوية أم عبد النبي تحتضن أبناءها بقوة، تحاول تهدئتهم ورسم الطمأنينة على وجوههم، ولكن حتى هذا لم يكن كافيًا لتخفيف الروع الذي يجتاح قلوبهم ويسيطر على عقولهم.

تمزقت أوتار الحياة وتلاشت ألوان الأمل، فباتت الأرواح تسير بخطوات ثقيلة وأفئدة مجروحة، ترتعش من شر الأعداء الذين قد يتربصون بنا في زوايا الظلام. انسكبت أحزان العائلة، والدموع تحتل مساحة العيون، اختنقنا بإغماض الظلمة التي تلفنا، لم يتبق معنا سوى صدى أصوات مكبوتة في أرجاء الليل الذي لا يشفق على من يختبئ في ظلامه.

دارت الأفكار في أذهاننا، إلى أين نذهب، وما هي وجهتنا، كيف نتجاوز الأخطار المحدقة بحياتنا؟ الأرض تحت أقدامنا تبدو كامتداد موحش للمجهول، والسماء فوقنا صامتة كأنها تراقبنا دون أن تمنحنا إجابة. كنا نعلم أن كل خطوة قد تحمل معها خطرًا لا يُرى، وأن كل لحظة تأخير قد تضعنا في مواجهة

ما لا طاقة لنا به. لكن التوقف لم يكن خيارًا، والخوف لم يكن رفاهية نستطيع الاستسلام لها.

صار القرار بيننا أن نتجه إلى بلاد فارس عبر طريق البصرة، فرب أمل يختبئ خلف ستار مجهول. لم يكن أمامنا سوى مياه النهر لنشق طريقنا بعيدًا عن الخطر، فكان لابد من سلوك طريق السفن، تلك التي تهدهدها الأمواج وتحمل معها قصص الهاربين والحالمين.

وصلنا إلى ضفاف نهر دجلة، والظلام قد بدأ يزحف، يُسدل ستاره على الماء كأنما يحجب أسرار العابرين. إلا أن السفن والقوارب لا تبحر في الليل، وكأنها تهاب المجهول كما نهاب نحن، فوجدنا أنفسنا مضطرين للانتظار، نجلس على أطراف الرجاء، نراقب المياه الساكنة، ونمضي ساعات من القلق والمراوحة في مكاننا، ونتساءل إن كانت ستقودنا إلى النجاة أم إلى مصير آخر لم نحتسبه. وفي تلك اللحظات العابرة، لم نكن نعرف إن كنا نبحر نحو الأمل أم نحو ظلام جديد.

بقينا مختبئين في الظلام كظلال متحركة، أصواتنا خافتة، وأنفاسنا متسارعة، خطانا خفيفة وحذرة، مثقلة بأعباء الفقد والفراق، مستندين بعضنا إلى بعض للتحقق أن لا شيء يلمح إلى وجودنا.

تلبدت السماء بالغيوم، هبت نسمات الشتاء الباردة وغمرت أرجاء المكان، انسابت السماء بالمطر على وجنات الأرض لتختلط مع دموعنا، امتزج البرد بألوان الوحدة والألم، ازداد المطر هطولًا، وكأن الطبيعة تستعرض قوتها في هذه اللحظات. ابتلّت أجسادنا، وتسللت البرودة إلى أجساد الأطفال الضئيلة، وارتسمت على شفاههم المرتجفة.

بحثت عن مكان يؤوينا، الطرقات الخالية، حيث لا بشر ولا ضوء، الصمت وحده يلف المكان كعباءة من الغموض. بدت أغصان الأشجار عارية، تمتد نحو السماء كأيدٍ تستجدي شيئًا ضائعًا في هذا البرد القاسي. كان كل شيء يوحي بالوحشة، وكأن المدينة بأكملها قد هجرت نفسها، وتركت خلفها الفراغ.

تقدمت نحو النهر، لمحت على ضفته مأوى صغيرًا، غرفة من الطين، سقفها من جذوع النخل المتشابكة، تبدو كأنها استراحة للعاملين في النهر. ترددت لحظة، أتفحص جدرانها المتشققة وسقفها الذي يبدو بالكاد صامدًا، لكنها كانت الملاذ الوحيد.

عدت مسرعًا إلى العائلة، قلوبهم القلقة تتعلق بأي خبر عن مأوى، وحين أخبرتهم، تبعوني بخطوات متعبة، أعينهم تفتش عن الأمان وسط المجهول. دخلنا الغرفة، متكدسين في زواياها الضيقة، نحتمي بجدرانها الهشة من ليل قد يحمل معه كل شيء، أو لا شيء سوى الانتظار.

كان البرد قارسًا، الأطفال متكورون على أنفسهم، والنساء يلففن عباءاتهن بإحكام، لكن الرياح ظلت تتسلل كضيف ثقيل لا يعرف الخروج. بحثت، بأيادٍ متجمدة وروح منهكة، عن شيء يخفف عنا البرد، وبعد محاولات يائسة، وجدت بعض الحطب المبعثر، جمعت القطع بعجلة، وبأصابع مرتجفة أشعلت نارًا صغيرة، واهنة في بدايتها، ثم راحت تتراقص أمام أعيننا كشعلة أمل وحيدة وسط العتمة.

جلسنا حولها، نراقب ألسنتها المتمايلة، كأنها تحاول أن تحكي لنا قصة دفء مفقود. بقينا على هذه الحالة، ننتظر انبلاج الفجر، الذي يختبر صبرنا على الليل الطويل. توسدنا ذراع

الهم، نقلب نفوسنا ذات اليمين وذات الشمال، كمن يبحث عن مخرج داخل سجن من الأفكار الثقيلة.

هجرنا النوم، غضب على آماقنا، وفرق بيننا وبين مهادنا، حتى أصبحنا غرباء عن أجسادنا، نرتجف بين صحو مرهق ونوم يأبى أن يقترب.

مع بزوغ أول خيط من الفجر، حين بدأت العتمة تتراجع خجولة أمام زحف النور، استأجرنا قاربًا صغيرًا، كأننا نعقد صفقة مع القدر ليمضي بنا بعيدًا عن الخوف الذي عشنا بين ضلوعه. تحرك القارب فوق المياه الهادئة، وصوت التجديف يتردد كنبض ثابت، يعلن أننا ما زلنا نواصل الطريق، رغم كل ما أثقل أرواحنا. كان النهر يبدو بلا نهاية، كأنه شريان ممتد نحو مصير مجهول، لكننا تمسكنا به كآخر حبل نجاة.

وصلنا مع غروب الشمس إلى مدينة (العمارة)، دخلنا في قرية تقطنها عشيرة (آل أزيرج)، أهل هذه القرية يرون رأي (الفقهاء المحدثين). أرواحهم تحمل نقاء الماء الجاري، صفاءً لا يشوبه زيف المدن، وكرمًا يمتد كامتداد أرضهم الرحبة. وجدنا بينهم ملجأً موقتًا، سقفًا نحتمي تحته، وأرضًا تمنح أقدامنا المرهقة بعض الراحة، لكن قلوبنا لم تعرف الاستقرار.

أخذنا ننتقل من قرية إلى أخرى، كأن الطرقات تمتد إلى أبعد الأفق، وكل خطوة نخطوها كانت تجعل الطرقات تبدو أطول، والمسافات تتسع.. لم يكن لنا وطن سوى الطريق، ولم تكن لنا محطة أخيرة، كأن الأقدار كتبت علينا أن نكون عابري سبيل، غير مستقرين. لم نعد نعرف إن كنا نهرب من الماضي أم نبحث عن مستقبل لم تتضح ملامحه بعد، لكننا سرنا، بلا تردد، نلاحق بصيص الأمل في آخر الأفق.

وصلنا إلى قرية (الجزائر) في لواء المنتفك، كانت القرية هادئة، لا يكسر سكونها سوى أصوات بعيدة، بين الباعة والمتجولين. . زالت الشمس، فوجب علينا التوقف للصلاة، فالقلوب المثقلة بالأعباء لا تجد السكينة إلا بين يدي الله. دخلنا مسجدًا بسيطًا، سقفه من سعف النخل، تفوح منه رائحة الطين المبتل، لكنِ فيه رهبة تتجاوز زخارف القصور. توضأنا بماء بارد أيقظ حواسنا المنهكة، وسجدنا على أرضه، كأننا نغرس في السجود تعب الرحلة، ونرفع في الدعاء رجاءً ببلوغ ملاذٍ لا يخذلنا. لكن الرحلة لم تنتهِ، والمسير لا يزال قدرنا. شددنا الرحال مجددًا، نلملم بقايا قوتنا، وانطلقنا في الأزقة المتعرجة، أقدامنا المتعبة تتلمس الطريق فوق الحصى والرمل، تتعثر تارة، وتكمل تارة أخرى. كأن الشوارع الضيقة تتمدد أمامنا، تطيل المسافة، وتجعل كل خطوة اختبارًا جديدًا لعزيمتنا. كان التعب قد بلغ منا مبلغًا، لكننا مضينا، نعلم أن الأمان لا يزال بعيدًا، لكنه ليس مستحيلًا.

أثناء الطريق، تراءى لي رجل من بعيد، معتم بعمامة بيضاء، مرتدٍ زي أهل العلم، يمشي بخطى واثقة كأن الأرض تعرف أثره. كَان حضوره مهيبًا، يبعث في القلب سكينة وسط صخب القلق الذي يسكننا. توقفت أرقبه بدهشة، كأنني أعرفه، حين اقترب منا، تبين لي أنه الشيخ باقر الخزاعي(1)، كان هذا الرجل من طلاب السيد الميرزا رحمه الله ومحبيه، وجهه الوضاء يشع بالوقار، وعيناه تتلألآن ببريق الأمل والرحمة،

---

(1) ورد في بعض المصادر (الشيخ باقر المسلماوي) من قبيلة بني مسلم، وهو غير صحيح كما أخبرنا به أحد أحفَاد السيد الميرزا.

ملامح وجهه تعكس الطيبة والحنان، كأنها مرآة تعكس قلوب الأخيار بكل صدق ونقاء. برؤيته شعرت بشيء من الطمأنينة، وكأن لقاءه لم يكن محض صدفة، بل لقاء كتبه القدر في طريقنا الطويل.

وفي هذه اللحظة شعرت بأن شمس الرحمة لمعت في سماء الظلمة، في زمن الشدة والجفاء، زمن قل فيه الناصر والمعين، وقف الشيخ أمام العائلة، وبابتسامته المستغربة، التي لامست القلوب، ألقى علينا السلام والتحية. استغرب الشيخ وجود العائلة في هذا المكان، راح يجول بعينيه في أرجاء المكان، وكأنه يبحث عن شيء، كما يجول المسافر الضائع في الصحارى الجرداء، يبحث عن بصيص من الأمل في بحثه اليائس.

فجأة اصفر لونه، وتلعثم بكلمات أرادت أن تخرج من فمه، ولأنه كان يعرف أحوال السيد الميرْزَا ومعاناته، نطق بغصة:

- ولكن أين سيدنا الميرزا ؟.

اتجهت نحوه، عانقته بشدة، انهمرت العيون بالبكاء والنحيب، اندمجت الأرواح وتلاقت الأحزان، وغرقنا في بحر من الألم، فلم تعد الكلمات تعبر عما في دواخلنا، بل كانت الدموع تروي قصة الفراق الذي نحمله في داخلنا. قلت له:

- لقد قتل السيد الميرزا مع ولده الكبير.

صار الشيخ يلطم رأسه، وهو يقول: (إن زوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق). ثم قال وهو يكفكف دموعه:

- لا يمكنكم البقاء هنا، هيا معي إلى الدار.

بعد أن أصرَّ الشيخ باقر الخزاعي بإلحاح يملؤه الكرم

والاهتمام، أقنعت العائلة بالبقاء في داره، لننفض عن أجسادنا غبار الطريق ووعثاء السفر التي أنهكتنا. كانت الرحلة قد سلبتنا قوتنا، وتركناها خلفنا كما يترك العابر ظله على درب طويل.

في دار الشيخ، كان الدفء مختلفًا، ليس دفء الجدران والسقف، بل دفء القلوب التي فتحت لنا أبوابها دون تردد. جلسنا في رحاب بيته، نشعر لأول مرة منذ زمن بأن لنا مأوى، ولو كان موقتًا.

بصوته الهادئ المليء بالحكمة، طلب منا أن نتريث، فليس الطريق آمنًا، وليس المسير مجرد خطوات فوق الأرض، بل هو مجازفة بين مخالب الخطر. كانت الطرقات محفوفة بالسلب والنهب، أرواح العابرين فيها لا تملك من الأمان إلا ما يمنحه الحظ. وعدنا الشيخ بأن يؤمّن لنا طريقًا آمنًا، وأن يجعل رحلتنا القادمة أقل وحشة، فكان علينا أن ننتظر، أن نرتاح قليلًا، ولو كان الانتظار يحمل في طياته قلقًا جديدًا.

بعد أن استقر بنا المقام في بيت الشيخ، جلس معنا كالأب بين أبنائه، ينظر إلينا بعينين تحملان الحنو والحكمة. كأنما أراد أن ينتشلنا من بحر التعب الذي أغرقنا، فصار يواسينا بكلماته، يسكب في قلوبنا الطمأنينة، ويضمد جراح الأيام بكلامه العذب.

قال بصوته الهادئ: لا تيأسوا، فالمحن مهما اشتدت، لا تدوم، والليل مهما طال، يعقبه فجر جديد. ما أنتم فيه الآن، هو طريق للنجاة، وليس نهاية الرحلة. كم من أناس مروا بمثل ما تمرون به، فصبروا حتى أبدلهم الله خيرًا مما فقدوا. وكل درب وعرة نهايتها أرض مستقرة، فتمسكوا بالأمل، فهو زاد المسافر في دروب الحياة.

كانت كلماته كالبلسم، تخفف من ثقل الأيام على صدورنا. شعرنا للحظة أن هناك ضوءًا، ولو كان خافتًا، ينتظرنا في نهاية الطريق، وأننا لم نعد وحدنا في هذا التيه، فثمة يد تمتد بالعون، وقلب يشاركنا في حمل الهم، حتى حين يكون الزمن قاسيًا.

ثم ذكر قولًا لأمير المؤمنين عليه السلام، بمعناه: ما عليكم الآن إلا الصبر، فالصبر على قدر المصيبة، فإن صبرتم جرى عليكم القدر وأنتم مأجورون، وإن جزعتم جرى عليكم القدر أيضًا لكن وأنتم مأزورون فلا محالة من الصبر.

وبصوت مخنوق العبرة، قال: نعم، هذا هو الموت الذي لا بد منه، هادم اللذات، منغص الشهوات، مفرق الجماعات.

كفكف دموعه، ثم قال لي:

- أود منك أن تحدثني بكل ما تعرف عن السيد الميرزا (دام ظله)، فقد فارقته منذ زمن.

- سأسترجع معك ذكرياتي عن السيد الميرزا محمد بن عبد النبي النيسابوري، بحلوها ومرها، وكأنها مشاهد لم تبهت رغم مرور الأيام، كأنني أراه الآن، حاضرًا في مخيلتي بهيئته المعهودة، بردائه البسيط، وعمامته التي زادتها الأيام وقارًا. وجهه المضيء، عيناه الحكيمتان، وابتسامته الدافئة التي كانت تبعث الطمأنينة في النفس، كل ذلك لا يزال محفورًا في ذاكرتي كأن الزمن لم يمسّه.

أتذكره بكل تفاصيله الواضحة، كأنني لم أفارقه قط، كيف كان يمشي بخطى ثابتة، صوته الهادئ الذي يحمل بين نبراته علمًا وتجربة، وكيف كان يصغي لمن حوله بصبر نادر، حتى لكأن حديث الناس عنده أمانة لا يقاطعها ولا يستخف بها.

أنا أطول الناس معه صحبة، وأقدمهم عشرة، فقد رافقته سنوات طوالًا، ليست مجرد أرقام تُعد، بل أيامٌ وأحداثٌ شكلتني كما شكلته. ثلاث وخمسون سنة وأربعة أشهر وستة أيام أمضيتها إلى جانبه، شاهدًا على علمه، متأثرًا بأخلاقه، مستظلًا بظلال حكمته.

لقد كان أكثر من صديق ومعلم، كان أخًا في درب الحياة، وكان وداعه ثقيلًا كأنني فقدت قطعة من روحي، لكن ذكراه ستظل حيّة، نابضة في كل لحظة مرّت بيننا.

المحطة الأولى

الهند - فرخ آباد (1178هـ/1764م)

في يوم الاثنين، الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة سنة (1178هـ)، الحادي عشر من أيار (1764م)، في مدينة (فرخ آباد)[1] قبيل الظهر، اخترق أذني صدى عربة قريبة تسير بحذر فوق الطريق الحجري، وكأنها تتحاشى إيقاع الزمن الثقيل. كنت جالسًا، في هدوء اللحظة، حين قطع الصوت السكون. خرجت أستطلع من القادم، وقلبي ينبض ببعض الفضول. ومع اقتراب العربة، تزايدت ملامح الشخص القادم حتى ظهرت واضحة في الأفق.

كان الميرزا عبد النبي، قد عاد من إحدى رحلاته وأسفاره التجارية داخل الهند، وجهه الذي أرهقه السفر طويلًا يحمل ملامح التعب، لكن عينيه لا تزالان متقدتين بحكمة وتجربة جلبتها معه الأيام. بدا عليه أنه قد قطع مسافة طويلة، ويظهر من ملامحه أنه قد مر بتجارب كثيرة، لكن هيئته التي اعتدناها، الهادئة والمتواضعة، لم تتغير.

عندما اقترب، ترجل من العربة وألقى عليَّ السلام، ابتسامته التي لطالما ألهمتني المزيد من الصبر، كانت تحمل معها كل

(1) تقع في ولاية (أتر برديش) الهندية التي تضم مدينة (أكبر آباد).

ذكرياته عن الرحلة الطويلة التي قطعها، والأماكن التي زارها. لم يكن مجرد عائد من سفر، بل كان عائدًا بحكايات جديدة، ودروس متجددة، وكأن الأرض قد قدمت له مزيدًا من الحكمة.

دلف الميرزا عبد النبي إلى داره، وأغلق خلفه الباب بحذر، كأنما يحاول أن يترك وراءه تعب الرحلة وضغط الزمن. ما إن دخل حتى استقبلته زوجته بحفاوة، ردت عليه السلام ورحبت به، جلبت له كأسًا من الماء، كانت في نهاية الشهر التاسع من الحمل، آثار المخاض بادية عليها بوضوح. ووجهها شاحب قليلًا، وعيناها تحملان قلقًا من اقتراب اللحظة التي كانت تعيشها في صمت، منتظرة أن يمنحها الزمن فرصة للراحة بعد معاناة طويلة. رغم التعب الذي بدا على وجهها، كانت ابتسامتها تتناغم مع إشراقة عودته، لحظة اللقاء مع زوجها كانت تبعث في قلبها القوة التي تحتاجها لتخطي لحظات الألم التي كانت تسبق وصول مولودها..

بعد أن سألها عن حالها، شكت له وجود آلام في الظهر وفي محيط البطن. لم يستطع الميرزا إخفاء خوفه وقلقه حيال صحة زوجته، فقد كانت نسبة الوفيات خلال الولادة أو النفاس عالية بسبب نقص المعرفة والموارد الطبية.

بعد سويعات، بدأ الألم يتزايد تدريجيًا، وكان واضحًا على وجهها الإرهاق والضعف. كانت تتلوى على الفراش، يخرج من بين أضلاعها أنين متقطع، كانت تتنفس بصعوبة، وكأنها تتصارع مع لحظات الألم والقلق، وكأن شعور اليأس يتسلل إليها شيئًا فشيئًا، وفي الوقت نفسه كان هناك بصيص من الأمل، أمل في رؤية طفلها الجديد، الذي كان بمثابة النور الذي قد يضيء عتمة المعاناة التي تعيشها.

النساء في تلك الأيام عادة ما كنّ يلجأن إلى ولادة الأطفال في المنزل، تحت ظروف صعبة، وفي أغلب الأحيان دون وجود قابلة محترفة، وإن وجدت، كانت خبرتها محدودة، فكل شيء كان يعتمد على يد القدر.

في هذه اللحظات، كان الميرزا عبد النبي يقف عاجزًا، يعجز عن تقديم أي شيء سوى الكلمات التي لم تكن تقوى على تخفيف الألم، بينما كانت أفكار القلق تتداخل في ذهنه: كيف سيكون الوضع؟ هل ستنجو زوجته؟ هل سيكون هذا الطفل هو نقطة الضوء في هذا الظلام؟

كان ذلك الهدوء المقلق يطغى على كل شيء، بينما كان الأمل والوهن يتنازعان قلب الميرزا وزوجته، وكأن الزمن توقف بين لحظة ولادة جديدة والقلق الذي يرافقها.

مع اقتراب غروب الشمس ازدادت الآلام، جثت على ركبتيها، وأمسكت بعضادة الباب، وأسندت رأسها إلى رتاجه، مرسلة زفراتها، ثم أخلت سبيل صرخات كانت تحبسها، وترقرقت من بين أهدابها الوطفاء عبرات لؤلئية، وبدا أن الولادة قد أصبحت معقدة، لا يمكن للزوجة الولادة بشكل آمن، لذا؛ طلب السيد عبد النبي الخادمة بالذهاب لاستدعاء القابلة، وقد كان صوته يحمل توترًا واضحًا، لكنه كان يحاول أن يكون هادئًا أمام زوجته التي كانت تعاني الألم. كانت اللحظات تمر ثقيلة، وكل دقيقة كانت تحمل معها المزيد من القلق. الخادمة أسرعت لتنفيذ الطلب، وكان قلب الميرزا يدق بسرعة أكبر مع كل ثانية تمر.

في تلك اللحظة، كان الميرزا عبد النبي يتنقل في الغرفة من مكان إلى آخر، يتأمل حالة زوجته، وعيناه تتجهان بين آلامها

ونظراته التي تحمل أسئلة بلا إجابات. كان يعرف أن حضور أم سعيد، القابلة الخبيرة، هو الأمل الوحيد في هذا الموقف.

بعد لحظات من التوتر والقلق، حضرت القابلة أم سعيد، مشيتها متمايلة متثاقلة، تميل بشكل طفيف من جانب إلى جانب آخر، بمسافات قصيرة، لإفراطها في السمنة، وقصر قامتها. هي واحدة من القابلات اللواتي يتمتعن بالمهارة والخبرة الكافية لتحديد أي مشكلات قد تظهر خلال الولادة والتعامل معها بفاعلية. كانت أم سعيد تعرف كل ما يتعلق بمراحل الولادة، وقد اكتسبت سمعة جيدة بفضل براعتها وحكمتها في هذه الأمور. بمجرد دخولها، شعرت العائلة بنوع من الطمأنينة، كأن الخبرة التي تحملها هذه المرأة ستحمل معها الأمل والنجاة.

- لا تخف سيدي، كل شيء سوف يكون على ما يرام. قالت وهي تدلف إلى الدار.

توجهت مباشرة إلى السرير حيث كانت الزوجة تتلوى من الألم، وبدأت تفحص حالتها بهدوء، تصرفاتها تدل على دراية عميقة بما تفعل. كانت عيون أم سعيد تتنقل بين وجه المرأة وأوضاع جسدها، ثم بدأت الحديث بصوت منخفض ومطمئن، تسرد لها ما يحدث في جسدها بشكل واضح، كأنها تحاول أن تطمئنها بأن كل شيء تحت السيطرة.

أم سعيد مرَّت بتجارب متعددة، وهي قادرة على تحديد أي مشكلة قد تظهر لتقديم الحلول المناسبة لها، لذا فقد منحها حضورها شعورًا بأن هناك يدًا قادرة على اتخاذ القرار الصائب في اللحظات الحرجة. أما الميرزا عبد النبي، فقد كان يتنفس الصعداء قليلًا، رغم استمرار قلقه، لكنه شعر أن الأمور ستكون على ما يرام بوجود من يمكنها التعامل مع هذه اللحظات الحاسمة.

هوى الميرزا للجلوس، كمن يترجل من دابة عجفاء اعتلاها بلا وطاء، بعد سفر شاق مضن.

قامت القابلة بالكشف على المرأة، فعلمت أن الولادة قد حانت، أمرت القابلة الخادمة أن تحضر لها بعض الأعشاب والزيوت لتحفيز الولادة وتخفيف الألم، وأمرتها بتحضير الماء الدافئ وبعض المناشف.

الزوجة مستلقية، ويداها تعتصرن طرفي الفراش، وهي تبتهل إلى الله أن يسهل ولادتها.

ما زال الميرزا يسند ظهره إلى الجدار، مستقبلًا باب الغرفة، سدلًا جفنيه، وقد تطول الإغماضة حتى يخال أنها غفوة، لا يُعلم أمن قلق هي أم إرهاق، أم تأمل وفكر مستغرق.

يرتفع صوت زوجته عاليًا، بين آونة وأخرى حينما يشتد بها الطلق. يظنها الميرزا أنها الأخيرة، فينادي القابلة من وراء الباب، فترد عليه:

- ليس بعد يا سيدي.. ليس بعد.

وهم على هذه الحال، الميرزا ينتظر بلهفة، أعصابه كانت مشدودة كأوتار العود، ينتظر دقات الساعة التي ستعلن ولادة حياة جديدة، وقبل أن تغرب الشمس بساعة ونصف الساعة، تناهى إلى سمعه صراخ الوليد، الصوت الذي خرق السكون كأغنية جديدة تُعزف على أوتار الأمل. تبع ذلك هتاف النساء، فرحة عارمة تملأ الأجواء، تهلل وتبتهج كما لو أن السماء نفسها قد ابتسمت. كان الصراخ والأصوات تتداخل بعضها مع بعض، تعبير عن فرحة عميقة لا يمكن للكلمات أن تصفها..
بعد برهة من الزمن جاءت القابلة وبين يديها الولِيد الجديد وهي تقول بفرح شديد:

- ولد يا سيدي. . ولد.

نظر الميرزا إلى عينيه المغمضتين وشعره المبتل، فحمد الله وشكره. ندّت من الوليد صيحة، فضمه الميرزا إلى صدره، وقرب شفتيه من أذني الوليد، وراح يقرأ الأذان في أذنه اليمنى بصوت خافت، ثم قرأ الإقامة في أذنه اليسرى، ليكون أول ما يسمعه الطفل كلمات التوحيد والإيمان.

سألته القابلة إن كان هو من يريد أن يحنكه أم هي من تقوم بالتحنيك؟ فرغب هو بذلك، وأمر الخادمة أن تأتيه بشيء من التمر. مضغ الميرزا قليلًا من التمر بفمه حتى صار مائعًا، ثم فتح فم المولود بلطف، وهو يهمس دعاءً بصوت منخفض، فوضع التمر داخل أعلى فم الطفل بحذر، ليتمكن أن يبتلعه بسهولة.

دخل الميرزا عبد النبي على زوجته، وعيناه مغمورتان بالفرح والامتنان. الزوجة مستلقية على الفراش، ملامحها متعبة لكنها مطمئنة، وعيناها تلمعان بوهج الأمومة الأول. اقترب منها بلطف، ثم قبّل ما بين عينيها بحنان صادق، كأنما يشكرها على صبرها وقوتها في هذه الرحلة العصيبة. لم تكن الكلمات وحدها قادرة على التعبير عن مشاعره في تلك اللحظة، لكن نظرته كانت تحكي ذلك.

حمد الله على سلامتها، وأخذ يدها بين يديه، يبارك لها مولودها، ويشاركها في هذه الفرحة. كانت لحظة خالصة من السكينة، حيث امتزجت مشاعر الراحة بالفرح. .

- ماذا تسميه؟ قالت له الزوجة بصوت واهن.

- إن أفضل الأسماء ما سُمّي بالعبودية، وخيرها أسماء الأنبياء، ولا أجد أفضل من اسم محمد ﷺ، فهو اسم حبيب الله.

خرج الميرزا عبد النبي من عند زوجته، توضأ وأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين شكرًا لله على سلامة زوجته ومولده الجديد. ثم رفع يديه بالدعاء وهو يقول: اللهم أنبته نباتًا حسنًا، واجعله قرة عين لوالديه، واحفظه وبارك لنا فيه واجعله من أهل الصلاح والتقوى. اللهم اجعله من أوليائك وخاصتك الذين يسعى نورهم بين أيديهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. اللهم اجعله من الذاكرين والمذكورين، والطف به يا كريم. اللهم ارزقه جمال الخلق والخُلق، وقوة الدين والبدن، وسعادة الدنيا والآخرة، واجعله من الهداة المهتدين غير الضالين ولا المضلّين، اللهم حبب إليه الإيمان وزيّنه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، واجعله من الراشدين، ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا.



في صباح اليوم السابع من الولادة، ومع أول خيوط الفجر، استيقظ الميرزا عبد النبي باكرًا، وقد بدا على وجهه عزمٌ واضحٌ على إتمام سُنة العقيقة لمولوده الجديد. كان يؤمن بأن هذه السنة النبوية ليست مجرد عادة، بل بركة وحفظ للطفل، وشكر لله على نعمة الولادة.

ألقى نظرة سريعة على زوجته وعلى المولود النائم بهدوء، وبعدها ناداني برفق:

- تعال معي إلى سوق المواشي، علينا شراء عقيقة للصغير.

خرجنا معًا إلى السوق، الشوارع ما زالت تنفض عن نفسها بقايا الليل، الأزقة المتعرجة كانت شبه خالية إلا من بعض العابرين الذين يحملون فوق أكتافهم أعباء يوم جديد. الهواء

كان باردًا لكنه لم يكن قاسيًا، بل يحمل في طياته شيئًا من الانتعاش الغامض، كأن الصباح يهمس للمدينة بوعد خفي.

عند وصولنا إلى سوق المواشي، استقبلتنا رائحة الأرض الرطبة، وأصوات الحيوانات المختلطة بأحاديث الرجال الذين يتجادلون حول الأسعار بجلبة توحي بأن هذه الزاوية من العالم لم تعرف السكون يومًا. كان المكان يعج بالحركة، الأبقار ترفس الأرض بحوافرها، الأغنام متجمعة في زواياها، والباعة يرفعون أصواتهم بعروضهم التي تبدو وكأنها جزء من سيمفونية فوضوية لا تنتهي.

وقف الميرزا هناك، وسط الحشود، عيناه تتفحصان القطيع أمامه، وكأنه يبحث عن شيء يتجاوز مجرد خروف، عن رمز، عن ذبيحة تحمل في لحمها معنىً أعمق من مجرد وليمة. كان يريدها سمينة، صحيحة، لا يشوبها عيب..

كان الميرزا عبد النبي يسير بين حظائر المواشي بعينين نافذتين، تتفحصان كل حركة، كل نفس يصدر من هذه المخلوقات التي اختلطت أصواتها بضجيج السوق. لم يكن قد استقر رأيه بعد، ولم يكن من الرجال الذين يندفعون في اتخاذ القرار، بل كان يرى في كل اختيار مسؤولية، حتى لو كان الأمر مجرد عقيقة لمولوده الجديد.

وقفنا عند أحد التجار، رجل ذي لحية بيضاء، وجهه متغضن كالأرض التي عرفت مواسم الجفاف والمطر. ألقى الميرزا عليه السلام، ثم بدأ يسأله عن المواشي المعروضة، متحريًا كل التفاصيل التي قد تغيب عن عين المشتري العادي. كنت أراقب حيرته بصمت، حتى أفضى لي فيما بعد عن السبب:

- العقيقة ليست مجرد ذبيحة، بل قربان يحمل معاني البركة والحفظ، فلا بد أن تتوافر فيها شروطها.

ثم بدأ يعددها بصوت هادئ لكنه حازم، كأنما يلقّن نفسه درسًا قديمًا:

- «إن كانت من الإبل، فلا ينبغي أن يكون سنّها أقل من خمس سنين كاملة. وإن كانت من البقر، فلا تقل عن سنتين. أما الماعز، فيشترط أن تكون أقل من سنة كاملة، أما الضأن، فسبعة شهور تكفي».

كنت أصغي إليه، ورأيت في ملامحه تلك الدقة التي اعتادها في كل أمور حياته، لم يكن يقبل النقصان، ولا يرضى إلا بالكمال الممكن. وقف هناك طويلًا، ينظر إلى القطيع أمامه، وكأن في هذه اللحظة اختبارًا آخر من اختبارات الحياة التي اعتاد أن يخوضها، لا بعجلة، بل بحسابات صامتة لا يفهمها إلا من عرف معنى المسؤولية.

استقر رأيه على شراء ضأنين، وطلب من الجزار أن يقوم بذبحهما وتقطيعهما، ويترك من أحدهما الرجل مع الورك.

بدء الجزار بعملية الذبح، فوضع الميرزا يده على يد الجزار التي تقبض السكين، وكأنه هو من يريد أن يذبح الضأن قائلًا: (بسم الله، وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، اللهم منك ولك، اللهم هذه عقيقة عن محمد بن عبد النبي، لحمها بلحمه ودمها بدمه وعظمها بعظمه، اللهم اجعلها وقاءً لآل محمد صلى الله عليه وعليهم). ثم رفع يده وأكمل الجزار عملية الذبح.

ـ ما هو سبب شراء ضأنين، ألا يكفي ضأن واحد للعقيقة، كما يفعل عامة الناس؟. سألته باستفهام.

نظر إليّ الميرزا عبد النبي بطرف عينه، وقد لمحت في بريقها مزيجًا من الحكمة والتسلية الخفية، قبل أن يقول بصوت رصين، يكاد يخفي نبرة اختبار مبطن:

ـ إحداهما طعام الخُرس، والأخرى طعام الغديرة.

كنت أعلم أنه يترقب ردة فعلي، وكأنه تعمد أن يلقي بهذه الكلمات أمامي ليرى إن كنت أدرك معناها أم أنني كعادة الكثيرين، سأكتفي بهز رأسي موافقًا دون فهم. لكن الحقيقة أنني لم أسمع بهما من قبل، ولم أجد في ذاكرتي أي خيط يدلني على معناهما.

كان الميرزا، بطبيعته، لا يُظهر كل شيء دفعة واحدة. تركني لحظة أبحث في ذهني، أفتش بين أوراق المعرفة المتفرقة في رأسي، وعندما رآني صامتًا، وكأنني أقلب الكلمات بين يديّ وأفحصها، ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، تحمل شيئًا من الرضا وشيئًا من الترقب.

ـ ألا تعلم معناهما؟ سألني، وهو يتظاهر بعدم الاهتمام، لكن نبرة صوته كانت توحي بالعكس.

اعترفت له بصراحة: لا، لم أسمع بهما من قبل.

هزّ رأسه وكأن هذا الجواب راقه، ثم قال ببطء، وهو يحرص على أن تصل إليّ كل كلمة كأنها درسٌ لا يُنسى:

ـ يا بني (الخُرس)، هو طعام الولادة. و(الغديرة) هي طعام الختان. كانت العرب تطلق هذه الأسماء على الأطعمة، كما تطلق على غيرها من الأطعمة مثل: (الوضيمة): على

طعام المأتم، و(الوكيرة): على طعام الفراغ من البناء، و(الوليمة): على طعام العرس، و(النقيعة): على طعام القادم من سفر.. وغيرها من أسماء الأطعمة.

أومأت برأسي وأنا أستوعب كلماته، وأدركت أن الميرزا لم يكن يعلمني مجرد مفردات، بل كان ينقل لي إرثًا وطقسًا متجذرًا في الذاكرة، يربط الولادة بالحياة، والماضي بالحاضر.

عدنا إلى الدار، وأنا أجرّ العربة ببطء، حيث كان اللحم يتأرجح مع كل خطوة، وكأن ثقل العقيقة لا يكمن في وزنها فحسب، بل في المعاني التي تحملها. كانت الشمس قد تسللت خلف الغيوم، تبسط نورها الباهت على الطرقات، فيما كان الصمت يُخيّم على الأزقة، لا يقطعه إلا صوت العجلات الخشنة التي تلامس الأرض الصلبة.

عند وصولنا، وقف الميرزا عبد النبي عند العتبة، أزاح عباءته عن كتفيه، ثم التفت إلى الخادمة، وأمرها بنبرة هادئة:

- أعدّي الطعام من هذا اللحم، واتركي (الرجل مع الورك، من إحدى الذبيحتين)، لأبعث بها إلى القابلة أم سعيد.

لم يكن هذا الطلب مجرد عرف اجتماعي أو امتنان، بل هو سنة نبوية، وامتدادًا لعادة راسخة، عرفانًا لمن كانت يدها الأولى في استقبال هذا المولود، وكأن نصيبها من الذبيحة ليس مجرد طعام، بل رمز لشكر غير منطوق، تقديرٌ يُقدَّم بالصمت بدلًا من الكلمات. ثم أردف الميرزا قائلًا:

- ولا تطعميني وزوجتي من هذا اللحم.

رفعت رأسها إليه، بعينين لم تستوعبا بعد السبب، لكنه أكمل بصوت ثابت:

- لأنه مكروه في الشريعة الإسلامية.

إن هذه القواعد ليست من صنعه، بل هي امتداد لنصوص إسلامية، التي تُحدد تفاصيل الحياة بدقة، حتى في اللحظات التي يبدو فيها الطعام مجرد طعام.

وفي ذلك المساء، حين انتشرت رائحة اللحم المطهو في الدار، جلسنا جميعًا، نحن الذين لم تشملنا تلك القاعدة، نأكل بصمت، كأن في كل لقمة امتدادًا لذكرى لم تكتمل بعد، وكأن هذا الطفل، الذي لم ينطق بعد، قد بدأ منذ الآن بتغيير تفاصيل حياتنا الصغيرة، دون أن يدري.

وفي اليوم نفسه، بعد الزوال، تم ختان المولود الجديد. جيء بالصغير، ملفوفًا بقطعة قماش بيضاء، وجهه يشي بالبراءة والضعف، عيناه مغمضتان كأنهما لا تريدان مواجهة العالم بعد. جلس الميرزا عبد النبي متجهمًا، كأنما يخفي قلقًا دفينًا خلف وقاره المعتاد، فهو يعلم أن هذا الأمر، رغم بساطته الظاهرة، يحمل في طياته رهبة الأقدار الأولى.

حضر الخاتن، رجل عجوز اعتاد هذه الطقوس منذ عقود، يحمل أدواته بحركات دقيقة لا يشوبها تردد. اقترب من الرضيع، وأخذ يتمتم بكلمات هادئة، ربما كانت تعاويذ أو آيات خبرها مع الزمن، ربما كانت مجرد همسات اعتادها كلما أوشك على أداء هذا الطقس القديم.

المولود لم يكن يدرك ما يحدث، لكن اللحظة التي لمس فيها الألم جسده الصغير، انطلقت منه صرخة حادة، قصيرة، مزّقت سكون الدار. كانت تلك صرخته الأولى أمام الألم، إعلانه الأول أن للحياة وجهًا آخر غير الدفء الذي عرفه في أحضان أمه.

الميرزا أغمض عينيه لحظة، ثم تنفس بعمق، كأنه يُطمئن قلبه بأن هذه الصرخة ليست إلا العتبة الأولى، وأن الآلام التي ستأتي بعد اليوم ستكون أعمق، وأشد وقعًا.

ثم سمعت الميرزا يقول أثناء اختتان ولده: (اللهم هذه سنتك وسنة نبيك ﷺ واتبّاعٌ منا لك ولدينك وبمشيئتك وبإرادتك، لأمر أردته وقضاء حتمته وأمر أنفذته، فأذقته حر الحديد في ختانه وحجامته، لأمر أنت أعرف به مني، اللهم فطهره من الذنوب وزد في عمره وارفع الآفات عن بدنه والأوجاع عن جسمه وزده من الغنى وادفع عنه الفقر فإنك تعلم ولا نعلم).

رفعت الأم المولود بين يديها، هدأت صرخاته شيئًا فشيئًا، حتى عاد إلى سكونه الأول، كأن الأمر كله لم يكن إلا عابرًا في نظره، لكن في عيون الحاضرين، كان أكثر من مجرد طقس، كان إعلانًا بأن هذا الطفل قد خطا خطوته الأولى في مسيرة طويلة، لا يعرف أحد ما تخبئه له الأيام.

المحطة الثانية

الهند ـ اللّٰه آباد (1187هـ/1773م)

في مساءٍ هادئ، حيث تلاشت ضوضاء النهار في سكون الليل، كانت غرفة الجلوس مضاءة بضوء المصابيح، ووهجها الأصفر يرقص على الجدران كظلالٍ واهية.

الزوجة جالسة بانحناءة خفيفة، تمسك بالإبرة والخيط، تخيط على ضوء المصباح، وعيناها تتابعان خيوط القماش، وبجانبها يجلس الميرزا عبد النبي، وهو يحمل في عينيه بريق قرار يريد إخبارها به.

بصوتٍ هادئ، جذب انتباه زوجته التي كانت تخيط على ضوء المصباح.

- اتخذت قرارًا وأريد أن أخبرك به.

توقفت يدها عن الحركة، خيط الإبرة لا يزال معلقًا بين أصابعها، رفعت رأسها إليه، وعيناها تلمعان بتساؤل صامت. لم يكن من عادته أن يختار المساء لمثل هذه الأحاديث، لكنه اليوم بدا مختلفًا. تنحنح قليلًا، ثم مضى يقول:

- لقد فكرتُ كثيرًا في مستقبل ولدنا، وأريد أن أتخذ قرارًا بشأنه منذ الآن. أريد أن أرسله إلى مدينة (الله آباد) ليبدأ تعلّمه، وليكون من أهل العلم، وليحمل مشعل هذه العائلة كما حمله آباؤنا من قبل.

توقفت الأم عن عملها ونظرت إلى زوجها بدهشة، ثم قالت بصوتٍ ممزوج بالفرح والقلق:

- لكنه لا يزال صغيرًا، فهو في التاسعة من عمره، ومدينة الله آباد بعيدة!

- سأحرص على سلامته، كما أنه سوف يكون تحت رعاية خاله الميرزا أبي المعالي، و(بالان) سوف يرافقه أيضًا، فهو فتى ناضج، يكبره بخمس سنوات، ويمكننا الاعتماد عليه. لقد تكلمت مع أبيه ورحب بذلك. فهو يريد لابنه أن يتعلم أيضًا.

ظلت صامتة لحظات، وكأنها تقلب كلماته بين عقلها وقلبها.. تنهدت، ثم قالت بصوت خافت، لكنه لم يخلُ من قلق الأمهات:

- لكنك تعلم أن فراقه سيكون صعبًا...

ابتسم الميرزا، مد يده وربت يدها برفق، ثم قال:

- نعم، لكنه فراقٌ قصير لأجل مستقبل طويل. العلم يا أم محمد هو النور الذي سيضيء طريقه، وأنا أريد أن يكون لهذا الولد شأنٌ بين الرجال.

ساد الصمت لحظات، ثم عادت إلى خياطتها، لكن حركة يديها كانت أبطأ، كأنها تستوعب القرار الذي أصبح الآن أقرب إلى الحقيقة.

- الرأي رأيك، افعل ما تراه مناسبًا. قالت الزوجة.

لقد فرحتُ أنا بما قرره الميرزا عبد النبي من ذهابي مع الميرزا محمد، وفرح الميرزا محمد أيضًا بما قرره والداه. وبالخصوص أنه سوف يكون تحت رعاية خاله أبي المعالي، فهو من العلماء الأعلام في المنقول والمعقول في تلك المدينة،

وكان الميرزا محمد يحبه حبًا شديدًا. لهذا لم يبد أي امتعاض من هذا القرار لأنه يريد أن يكون كخاله عالمًا.



في أحد الأيام القريبة، قرر الميرزا عبد النبي أن نشد الرحال إلى مدينة (الله آباد) فجر اليوم التالي، وطلب من زوجته تحضير الأمتعة ومستلزمات السفر.

شددنا رحالنا مع بزوغ الفجر، حين كان الضباب ما زال معلّقًا فوق سطح الأرض كحجابٍ رقيق يفصل بين الليل والنهار. كان صوت النوارس يتردد على صفحة الماء، كأنها تودّعنا أو تحثّنا على الإسراع. وجهتنا: مدينة (الله آباد)، والسفر إليها يكون عبر نهر (يامونا) الذي يمر بمدينة (أغرا) على بعد (مائة فرسخ) عنها، عند ملتقى نهري الگنج ويامونا.

وصلنا إلى الميناء، الأمواج تتراقص ببهجة وترسم لوحة فريدة من الجمال. مصحوبة بأنغام اصطفاق البحر. في ذلك الجمال الساحر تجلى لنا مشهد القوارب والسفن الشراعية الراسية في الميناء المتمايلة مع أنغام الموج وحركات النهر الهادئ.

يجتمع المسافرون في مكان محدد قبل صعودهم السفينة، لتسجيل أسمائهم. ومن ثم يصعدون على متن السفينة، واحدًا تلو الآخر، تناغمت خطوات بعضهم مع خفقات قلوبهم. أفئدة مليئة بالشوق والترقب. تكشف عنها تلك الابتسامات المشرقة والعيون المليئة بالحماسة. رتبوا أمتعتهم وممتلكاتهم بشكل مناسب في حجرات خاصة لتخزين الأمتعة والحقائب داخل السفينة.

بينما كنا ننتظر إقلاع السفينة، أخذت عيني تجوب المرسى، تراقب السفن الراسية كما لو كانت مملكة قائمة بذاتها، لكل منها قصة، ولكل قصة غاية. السفن التجارية كانت الأضخم،

عريضة الهيكل، منخفضة عن سطح الماء، وكأنها وُجدت لتحمل أثقال المدن على متنها. أما سفن الصيد، فكانت أصغر حجمًا، أكثر خفة ورشاقة، تبدو كأنها كائنات ولدت من رحم البحر نفسه، تعرف أسراره وتتحين لحظات كرمه. الأشرعة، تلك الأجنحة البيضاء التي تأخذ السفن بعيدًا، كانت تملأ الأفق، بعضها مرفوع كأنه راية تحدٍّ في وجه الرياح، وبعضها مطويٌّ في انتظار أن تمنحه السماء إذن الرحيل. كانت مصنوعة من الكتان أو القطن، تختلف في العدد والشكل والحجم، بناءً على سرعة الرياح والظروف الجوية الأخرى، فهي العنصر الأساسي الذي يستخدمه البحارة لتحريك السفن الشراعية، تروي لنا أن حكمة البحار ليست في مجابهة الريح، بل في فهمها، في معرفة متى تُرفع الأشرعة ومتى تُطوى.

- كل سفينة تحمل وجهتها بين طيات شراعها.

قال الميرزا وهو يراقب أحد البحارة يشد الحبال على متراس ضخم، وكأنه يُحكم قبضته على القدر نفسه.

أدركت حينذاك أن البحر، رغم مساحته التي تبدو بلا نهاية، لا يترك للمسافرين حرية مطلقة، بل يجعلهم رهن الرياح، ورهن الأشرعة، ورهن القرارات التي تُتخذ عند كل مهبٍ جديد.

قبطان السفينة، ذو وجه أسمر، محاط بلحية كثيفة منسابة بقدر كف ذراع، وبعينين ساجيتين، مطمئنتين، تراخي عليهما جفناه، وأنف ضخم، شاربه الكثيف يغطي شفتيه اللتين بالكاد يمكن رؤيتهما، يميزه بروز خفيف في أسنانه. جسده مال ـ بتقدم السن ـ إلى الامتلاء والترهل، وحركته إلى البطء، يظهر من طبعه أنه هادئ، وإذا تكلم يتكلم بكلمات مقتضبة. من على منصة القيادة، أمر القبطان طاقمه بالإبحار.

ارتفع صوت البوق، فاهتز المرسى بحركةٍ مفاجئة، كأن الحياة دبت فيه دفعةً واحدة. على سطح السفينة، تحول البحارة، بقمصانهم وسراويلهم الفضفاضة، إلى خلية نحلٍ تضج بالحركة، مشهد من الفوضى المنظمة، يندفعون هنا وهناك، وكأنهم يستعرضون مهاراتهم. تتقاطع أصواتهم بين الأوامر والتحيات، تتخللها ضحكاتٌ عابرة، تحمل رهبة البحر وروعة المغامرة.

القبعات العريضة والعمائم التي يعتمون بها تتلاعب مع هبوب الريح، بينما راحت أيديهم القوية تشدّ الحبال، ترفع الأشرعة، تروض الريح الجامحة لتصبح خادمًا مخلصًا لهذه الرحلة.

اندفع الهواء بين الحبال، كأنّه يُغني أغنيته الخاصة، صفيرٌ خافت يزداد حدة كلما اشتدّت قبضته على القماش. أدركتُ أن الرحلات لا تبدأ حين نقررها نحن، بل حين تمنحنا الريح إذن العبور. تحركت السفينة بهدوءٍ، كأنها تدرك ثقل المسافرين وحكاياتهم المحملة فوق ظهرها.

مع وتيرة الموج وتردد نغمات النهر. أنعش هذا الشعور المسافرين بالحرية والتحرر من قيود اليابسة، وانتابهم شعورٌ بالتواصل العميق مع البحر، ومع بعضهم بعضًا، حيث يصبحون جزءًا من هذا العالم الواسع الذي يلفه الماء والسماء.

هذه السفينة، رغم كونها مجرد وسيلة للعبور، أصبح حاضنة للأحلام، كأنها كائن حيٌّ يلتهم المسافات ويبعث الروح في الأمنيات النائمة. فعلى سطحها، كانت الأمنيات تتراقص كما تتراقص الأشرعة مع الريح، كل راكب يحمل في قلبه قصة، وكل قصة تبحث عن مصيرها بين الأمواج. منهم من ينظر إلى البحر بعين المغامر، كأنه يرى خلف الأفق عالمًا جديدًا لم يُكتشف بعد. وآخر كان يحمل في عينيه نظرة الحالم، يطارد

فكرة غامضة عن الجمال الروحي، وكأن البحر وحده قادر على كشف أسراره. بعضهم كان يهرب من رتابة الأيام، يبحث عن فرار موقت، عن لحظة لا يشبه فيها اليوم ما قبله، ولا الغد ما بعده. وبعضهم كان مستكشفًا، يسجل في ذاكرته خريطة لا ترسمها الجغرافيا، بل ترسمها التجربة، والأماكن التي لا تجدها إلا في الحكايات.

امتزجت الأصوات بالضحكات، والقصص بالحكايات، والمجهول بالمعلوم. راكبٌ يروي مغامراته في مدن بعيدة، وآخر يخطط لحياته الجديدة حين يصل، وثالث يجلس صامتًا، كأنه يصغي لصوت البحر أكثر مما يصغي للناس، يبحث عن إجابة لم يسأله أحد عنها. في وسط كل ذلك، كانت الأمواج تتكسر تحت السفينة، كأنها تصفق لكل حلمٍ يبحر على متنها.

أما أنا، فوقفت في الخلف، أنظر إلى الضفاف التي كنا نغادرها، وأتساءل في صمت: هل يكون في كل وداعٍ ميلادٌ جديد؟

أراد الميرزا محمد أن يستكشف السفينة، فوجد أنها تحتوي على ما يسمى بالأدوار، وهي مساحات داخل السفينة تستخدم لتخزين البضائع أو لإقامة الطاقم. وتحتوي على أجزاء مختلفة أخرى تشمل الأدوات الملاحية، مثل البوصلة، التي تستخدم لتحديد الاتجاهات، والساعة الرملية التي تستخدم لقياس الوقت، وبرج الشراع، وفي الأعلى منصة مراقبة الأشرعة والرياح.

نظر إلى أمواج النهر، وطيور النورس المحيطة بنا. وإلى الأفق البعيد الذي يعبق بوعد المغامرة الأولى التي سوف يخوضها.

- كم هو بديع هذا النهر، بأمواجه وانسيابه. قال الميرزا محمد لأبيه.
- يا بني، البحر يمثل قوة الطبيعة وعبقرية الخالق. إنه يجذب الإنسان بسحره ويأسره بأغنيته الخالدة. لهذا أردتك أن تتذوق الحرية التي توفرها الرحلة عبر هذه المياه المتلاطمة.
- وماذا عن خطورة البحر يا أبي؟ لا يمكن أن ننكر أنه قد يكون غاضبًا وخطيرًا. فماذا لو اجتاحت العاصفة البحرية سفينتنا؟.
- نظر الميرزا إلى البحر الممتد أمامه، ثم وضع الميرزا يده على كتف ولده، وعيناه تراقبان الأفق حيث يلتقي البحر بالسماء، ثم قال بصوت هادئ يحمل ثقل التجربة:
- بالطبع يا بني، يجب أن نحترس ونكون حذرين. البحر يملك طبيعة متقلبة، ولكنه أيضًا معلمٌ صارم، لا يمنح دروسه إلا لمن يجرؤ على مواجهته.

توقفت الريح لحظة، كأنها تصغي إلى كلماته، ثم عاد صوت الأمواج ينساب برفق على جانبي السفينة.

- نحن بحاجة إلى استكشاف وجهات جديدة، إلى اختبار أنفسنا أمام المجهول. البحر، كما الحياة، ليس طريقًا ممهدًا، بل مزيجٌ من الهدوء والعواصف، من الأمل والمخاطر. لكنه، في النهاية، لا يمنحنا سوى ما نستحق.

نظر إليّ نظرة العارف، وأضاف:

- إنه يعلّمنا الصبر حين نبحر بلا ريح، ويعلّمنا القوة حين تعصف بنا العواصف. في كل موجة تهدر، درسٌ جديد، وفي كل رحلة، ولادة أخرى لشجاعتنا. والحياة نفسها

ليست سوى بحر آخر، مليء بالعواصف والتقلبات، والنجاة فيه لا تكون بالخوف، بل بمعرفة كيف تواجهه.

أحسستُ حينذاك أن البحر ليس مجرد امتدادٍ مائي، بل مرآةٌ تعكس ما في داخلنا. وأن السفينة التي تمضي بنا وسط أمواجه، ليست سوى صورةٍ مكثفةٍ لحياتنا، حيث لا مفرّ من الإبحار، ولا خيار سوى مواجهة القدر بشجاعة.

ساد الصمت بيننا لحظةً، ليس صمت ارتباك، بل صمت تأمل. ثم، بابتسامة خفيفة:

- سترى يا بُني، البحر لا يخذل من يثق بصلابته.

أدركت، عندئذ، كما أدرك الميرزا محمد أن هذه الرحلة ليست مجرد عبور بين مدينتين، بل عبور بين فهم قديم للحياة، ونظرة جديدة ستولد مع كل موجة تعصف بنا..

- استذكر هنا رواية، قال الميرزا لابنه، يروى أن رجلًا سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: يا بن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئًا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق: فذلك الشيء هو الله، القادر على الإنجاء حيث لا منجٍ، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث. قال الله في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

كان قبطان السفينة قريبًا منّا بحيث يسمع ما دار من حديث، فقال:

- البحر الهادئ، ذاك الذي يهمس بموجه للمراكب العابرة، ويبتسم في خجلٍ كطفلٍ لا يزال يكتشف الحياة، ليس كما يبدو دائمًا، لا يبقى على حاله أبدًا. قد يخدعك بلونه الهادئ، بانسيابه الرقيق، لكنه ليس سوى صمتٍ يسبق العاصفة، هدوءٌ يشبه عين الإعصار.

فكما أن للإنسان حدًّا في صبره، للبحر أيضًا لحظاته التي ينقلب فيها من حليمٍ إلى عاصف، من هادئٍ إلى هائج، كأنما يعلن أن الصبر قد نفدً، وأن سكونه لم يكن سوى غفوة موقتة. لكل صبرٍ حد، ولكل حلم يقظة، وحين ينفد صبر البحر، يكشف عن وجهه الآخر. عندئذً لا تترقب لطفًا في مده، ولا ودًّا في جزره، فإنه يثور كجوادٍ جامح، يرمي بسخطه كل من استهان به. فلا تأمن سكونه، ولا تغتر بابتسامته المتوارية خلف أمواجه الرقيقة.

إذا كنت على متنه، فاستعد، اربط حبالك جيدًا، وتشبث كما لو أنك تتشبث بالحياة نفسها. وإن كنت على شاطئه، لا تغترّ بسكونه، فإنه قد يمد كفّه فجأة، يرشقك بمائه لا ليلاعبك، بل لينذرك بأن مزاجه قد تبدّل. قد يأخذ منك أرضًا كنت تراها ثابتة، أو قاربًا كنت تظنه آمنًا، أو فكرة كنت تظنها يقينًا.

ثم تنهد وقال بكل ما في وجدانه من إيمان:

- هذا ملك! البحر ملك.. البحر سلطان. وكن حذرًا من الرياح، فالريح كالمرأة، سريعة التقلب، كثيرة الدلال، فإذا أعطتكم المرأة وجهها، فلا تتركوها دون أن تضعوا يديكم وراء ظهرها. مدركين أن اللحظة التي تفرّط فيها بزمامها قد تكون اللحظة التي تنقلب عليك. والريح كالعاطفة، تأخذك حيث تشاء، لكنها إن لم تجد من يوجّهها، صارت عاصفةً، لا تذر شيئًا في طريقها.

إذ لم يتعلم الإنسان من البحر فلا أمل له بالتعلم أبدًا. . البحر مدرستنا.

بدا القبطان متواضعًا جدًا وهو يقول هذا الكلام، يشبه في لهجته وحركاته طالبًا انقطع إلى مدرسته. . أعطاها كل حياته، وحبس نفسه راضيًا مختارًا، بين جدرانها.

كان هذا القبطان في الليل، وفي السحر، وفي أي من ساعات، يقوم ويتجول في كل أطراف السفينة، يتفقد البحارة، يدور كحارس يقوم بواجب الحراسة، إنه راع، والبحارة رعيته، والسفينة عالمه الصغير.

يعرف مجرى الرياح وتقلباتها بمجرد أن يرفع كفه، ويدرك بقدميه، من اهتزازات الماء ما سوف يكون عليه البحر، وهو مع هذا يحترم البحر، فلا يتحداه ولا يبصق في وجهه.

- كما أحبُ فضول البحر لأتعلم منه، أحبُ فضول اليابسة. . قال القبطان موجهًا كلامه للميرزا عبد النبي. فضول البحر يخفي في أعماقه أسرار العالم البعيد، أما فضول اليابسة فيكشف أسرار الذات الداخلية. يُلهمك البحر الغموض والمغامرة، أما اليابسة فتعلمك الصبر والتأمل. إنّ فضول اليابسة يجعل منّا أعمق وأكثر حكمة، كما أنه يعلمنا أن الجواب قد يكون في داخل نفوسنا قبل أن يكون في الخارج. . ومن هذا الفضول راودني سؤال عنك؟

- نعم بكل سرور. أجابه الميرزا.

- لقد سمعت بعض الركاب يناديك بالـ(ميرزا)؟ فما معناه؟

تبسم الميرزا عبد النبي، وبين للقبطان، أن كلمة ميرزا هي لقب نبالة استخدم في بلاد فارس والدولة العثمانية، مشتق من

كلمة أمير وكلمة زاد الفارسية التي تعني ابن. وهو أيضًا لقب يُعطى لمن يصل نسبه للرسول محمد ﷺ في بعض الدول الإسلامية من جهة الأم فقط. أما نحن ـ قال الميرزا عبد النبي ـ فنسبنا ينتهي إلى رسول الله ﷺ عن طريق الأب، وصولًا إلى الإمام محمد الجواد عليه السلام. والأمير مخفف عنه، ومير أيضًا، وكلها إشارة إلى أنه من أولاد أمير المؤمنين عليه السلام، وإلى الآن بقي هذا الرسم في علماء الهند لا يطلقون الميرزا على غير السيد.

طلب الميرزا محمد من أبيه أن يحدثه أكثر عن أجداده. فصار يحدثه عنهم، وذكر له من عُرف بالشأن الديني والدنيوي، قال:

- من أجدادك المير ناصر، وهو جدك الزابع عشر، كانت له إمارة دينية ودنيوية، وسلطنة مهيمنة في بعض الممالك العربية، ومن أجل ذلك كان عقبه يُدعون بآل السيد المير ناصر، فكان لهم من بعده شرف باذخ وقدر كريم في أرجاء الهند وإيران والعراق.

ومنهم السيد محمد بن الحسين بن عبد الله، الحسيني الموسوي، وهو جدك السادس، ولد في مكة، ونشأ في المدينة المنورة. ولما مات أحصيت كتبه فكانت ألف كتاب وتسعة.

ومنهم المير عبد النبي، وهو جدك الخامس، حاز رئاستي الدنيا والدين في بعض مدن الهند وإيران، وله آثار شريفة، ومؤسسات خالدة، وجامع في (حيدر آباد) يُعرف باسمه.

أما جدك الأول، الميرزا عبد الصانع، فولد في (إسترآباد) فكانت شهرته فيها وفي أغلب المدن الإيرانية هي (آغا ميرزا)، ومن هنا صار نسله يدعون بالميرزاويِّين، ويلحق أسماءهم لقب (الميرزا). ثم انتقل إلى (نيشابور) فولدتني أمي فيها. وهاجرت أنا إلى الهند، في أواخر دولة نادر شاه، وولدت أنت بها.

تسللت ابتسامة هادئة، بريئة، إلى وجه الميرزا محمد، كأنها إشارة لطيفة من أعماق روحه. تلك الابتسامة لم تكن مجرد تعبير عابر، بل كانت كشفًا صامتًا عن افتخار عميق وعلاقة وثيقة بما هو أبعد من اللحظة الحاضرة. كان فخره بالعائلة أكثر من مجرد نسب، كان شعورًا يتغلغل في كيانه، يضيء وجهه وتلمع عيناه كما لو أن في عينيه سرًا دفينًا من الأجيال الماضية. هناك، في تلك النظرة، كان تاريخٌ طويلٌ يتشابك مع الحاضر، مجسدًا في اسم عائلي حملته العصور في أعناقها كجوهرة نادرة تلمع عبر الزمن، شاهدة على عزٍ وكرامة لا تختفي.

تنفس نسيم الهواء، وهو ينظر إلى نهر يامونا المنطلق بمياهه في طريقه إلى أسفل الجبال الشاهقة المكسوة بالخضرة، ليمر عبر الوديان ذات الأشجار الوارفة التي تداعب مياه النهر أثناء سريانها في هذا المكان. ويستمر النهر في انطلاقه ليصبح بمثابة خلفية طبيعية هادئة.

ألوان السماء تتبدل مع أشعة الشمس الذهبية المتسللة برقة بين سحب القطن الأبيض، تلامس وجه الماء بلطف وتجعله كالمرايا البراقة. تعكس الأنهار الصافية الأضواء الساطعة والألوان الجميلة للمدن على ضفافها، وتتسلل العبارات والقوارب الصغيرة بين مياه النهر، معبرة عن حياة نشطة وحيوية.

بعد أيام، وصلنا إلى (الله آباد)، الواقعة عند اتحاد نهر يامونا مع نهر الجانجا ليتدفقا كوحدة واحدة. الرياح الباردة تلعب بأغطية السفينة، انطلقنا صوب الشاطئ على متن زوارق صغيرة تتلاعب بها الأمواج برفق، وتتمايل على مياه النهر بهدوءٍ يشوبه قليل من الاضطراب. بدأ الركاب ينزلون واحدًا تلو الآخر، يحملون أمتعتهم بكل هدوء، وكأنهم يحملون قطعًا من ذكرياتهم

الخاصة. انحنى البحارة بأذرعهم القوية لمساعدة الركاب في النزول بأمان، وليروّضوا الحركة المضطربة للزوارق مراعين كل حركة، متفادين أي خطر قد يطرأ. مع اقتراب الزوارق من الشاطئ، كان انعكاس أضواء المدينة البعيدة يتراقص على سطح الماء، تتراقص على سطحه، وتلون الظلام بألوان دافئة تنبض بالحياة. كانت تلك اللحظات تزدحم بالمشاعر، بينما كنت أشعر بأننا نقترب من لحظة فارقة، لحظة ستظل محفورة في الذاكرة.

عند مدخل البوابة المؤدية إلى حصن الله أباد، ينتصب عمود تاريخي حجري مصقول، يسمى عمود (أشوكا)، ويطلق عليه أيضًا اسم (عمود السلام) بارتفاع أحد عشر مترًا يعود تاريخه للقرن الثالث قبل الميلاد، أحد أبرز الآثار الهندية القديمة، يمتد بكبريائه الحجري في سماء الدهر، كالركيزة العمودية التي ترفع بناءً عريقًا وتحمل عبق الماضي. مزين بنقوش فنية، ونصوص محفورة عليه بخطوط الفن والحكمة، من أقدم النصوص التاريخية المكتوبة في الهند، عرفنا لاحقًا أنها تعاليم الملك أشوكا (273 ـ 237 ق.م)، الذي كان واحدًا من أهم ملوك الهند القديمة وممن اعتنق البوذية. هذه النصوص كأنها تحكي قصة الأجيال السابقة وتنادي الأجيال اللاحقة للوقوف والاستماع. كتبها الماضي بحبر من الحكمة والفلسفة، يحمل في طياته تعاليم التسامح والعدل، ويرسم طريق السلام والوئام بين البشر. نظرنا إليه وغصنا في بحر الزمن وكأننا نتسلم عطاءات الماضي، فهو يروي قصة حضارة تتراقص في ضوء الشمس.

ـ ما هذه النصوص يا أبي؟ سأل الميرزا محمد.

ـ النصوص المحفورة على العمود هي قوانين وتوجيهات للحكومة، ودعوات للسلام والتعايش السلمي بين الشعوب،

وتعاليم البوذية. هذه النصوص تخبرنا بأننا مسؤولون عن ترك أثر إيجابي في العالم من حولنا، الأجيال تتلاشى وتظل تلك الرسائل حية، تعلق في الذاكرة الجماعية للأمم.

ممكن أن نستلهم من عمود أشوكا قوة العقيدة وجمال الفن، وندرك أن الحكمة ليست مقتصرة على الكتب والأقوال، بل هي تجسيد في الأفعال والسلوك.

ناشدت قلبي أن يكون مثل تلك النقوش، محفورًا بقيم الحق والعدل والسلام، وأن يعكس في حياتي تلك الروح النبيلة التي عاشها أجدادنا. فلنستمد قوتنا من تاريخنا وتراثنا، ولنكن أبناءً فخورين بجذورنا. فنحن لسنا مجرد رحالة في عالم الزمن، بل نحن رواة للقصص وحراس للتراث، نواجه الحاضر ونبني المستقبل.

إنها تذكرنا بأن القوة الحقيقية تكمن في الروح والأفكار والقيم، وأننا قادرون على تغيير العالم من حولنا بقوة الإرادة والتفاني.

عند دخولنا إلى مدينة (الله آباد) بدت وكأنها لوحة فنية ترسم الألوان والأصوات والعبق القديم. تتلاقى الحضارات والثقافات لتصنع مزيجًا من الجمال والروحانية. معابدها العتيقة تنبض بالحياة، حيث تشهد صلوات الأتباع والمؤمنين وهم يغمرون الأجواء بالتسابيح والطمأنينة. معبد (الله رام) يحكي قصص الأبطال والآلهة بروعة تفاصيله الحجرية، وصدى أصوات الآيات يتراقص على جدرانه المزخرفة.

أزقة المدينة الضيقة، والمنازل المحشورة في بعضها تتشابك معًا كأصابع اليد، تتحدث بصوت هامس، الباعة والحرفيون

يتقنون حرفهم ببراعة. رائحة التوابل تعانق الأنفاس، تنبض فيها الحياة بجميع أشكالها. الناس يتبضعون ويتبادلون الأحاديث والضحكات، والقصص تنبعث من كل زاوية، مثل موجات البحر الهادئ تلامس شاطئ الروح. وكأن الزمن يتوقف في هذه المدينة، وتغرق في جمالها الخالد.

في كل زاوية وحجرة، تجد الجمال ينبض بروحه العذبة والملهمة. إنها مدينة تنمو في القلب، تستقطب الروح وتثير العقل، وتمنحنا حكاية مليئة بالألوان والعاطفة والإلهام.

المساجد والمدارس والخانقاهات كثيرة في هذه المدينة، مفتوحة أبوابها على مصراعيها لكل وارد من المدرسين والمعلمين، وطلبة العلم، بالإضافة إلى الترغيب والتشجيع على الاستفادة وتلقي العلم، فتجد جموعًا من هؤلاء الطلبة غادين ورائحين من قرية إلى أخرى، يتلقون العلم والمعرفة في هناء ورخاء ويسر، ولا يقصّر أصحاب الخير والثراء في قرية من هذه القرى في خدمتهم، وإسداء الجميل إليهم، ويعتبرونها سعادة أي سعادة، وزلفى إلى الله تعالى.

ذهبنا إلى إحدى المدارس، التي يرعاها الميرزا أبو المعالي، استقبلنا أحر استقبال، دخلنا إحدى الغرف، نور الشموع الخافت يتسلل برقة من خلال النوافذ، بدت وكأنها عالم مختلف تمامًا، تحتضن في أعماقها كتبًا قديمة تحمل تراثًا ثريًا. تكمن فيها أسرار لا تُكشف إلا بلغة الورق والحبر، ترتفع الرفوف الخشبية المنحوتة برشاقة وتملأها صفوفٌ متراصة من الكتب القديمة التي تعكس عمرًا طويلًا من الزمن. تتنوع أحجام الكتب وألوانها وأشكالها، مما يعكس مجموعة متنوعة من المواضيع والمعرفة التي تحتوي عليها من الحكمة والفلسفة وأنواع المعرفة.

على الطاولة القريبة، ترتسم لوحة فنية من الكتب المفتوحة والأوراق المبعثرة، كما لو كانت تروي قصصًا مفعمة بالحياة والإلهام.

في هذه الغرفة، يوجد الزمان والمكان في تآلف متناغم، حيث يُستَقبل الزوار بين صفوف الكتب القديمة لاستكشاف العلم والمعرفة المتجسدة في كل صفحة وكل كلمة تحملها تلك الكتب، هذه الكتب تظل شاهدة على عبقرية البشر وتراثهم العظيم. ظل الميرزا محمد في ذهول لما يراه، وكأنه ذهب في عالم آخر ساحر.

في اليوم التالي، ودعنا الميرزا عبد النبي، وهمس للميرزا محمد بكلمات الشجاعة والتشجيع. عيون الأب تحتفظ بألق الحنين والاعتزاز، وكلماته الخافتة كانت ترسم خارطة للحياة الجديدة التي سيخوضها ابنه. لتبدأ مسيرة تعليمية بعيدًا عن أحضان الأهل والأصدقاء.

التعليم الإسلامي في المدرسة يتمحور حول التعليم الديني والثقافي للطلاب المسلمين. وليست لها مبانٍ خاصة بل تستخدم المساجد وفناءها لأجل التدريس وتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية، التفسير والحديث والفقه والعقيدة، والدروس الدينية والقوانين الإسلامية. وتعتمد بشكل كبير على نظام التعليم التقليدي الشفهي، حيث يتم نقل المعرفة من الأستاذ إلى الطلاب عن طريق الاستماع والحفظ والتكرار. تقدم التعليم باللغة العربية لتعزيز فهم الطلاب للنصوص الدينية. وبعض من هذه المدارس الإسلامية تقدم دروسًا في العلوم العامة، مثل: اللغات والرياضيات والعلوم الطبيعية. تهدف إلى توفير تعليم شامل للطلاب. في المساجد الكثير من الغرف والحجرات على جميع جوانب المسجد، تستخدم لإقامة الطلاب والمعلمين.

الميرزا محمد يحمل في قلبه شغفًا لا يعد ولا يحصى للعلم والمعرفة، ومع وجود أستاذه المربي والمرشد الحكيم، أبي المعالي، تكوّنت روحه وشكّلت قامته بقوة العزيمة والاستمرار.

وهو يرى على صغر سنه، أن الأيام مليئة بالتحديات والصعاب، بسبب البيئة الجديدة، والثقافة المغايرة. لكنه لم يتراجع، بل تحدى الصعاب وغرس جذوره في تلك الأرض. تلقّى تعليمًا شاملًا وعميقًا، تعلم العلوم والفلسفة، واستكشف الفنون والآداب. كان قلبه وعقله كالإسفنجة التي تمتص المعرفة وتنبض بالفضول اللامحدود.

في قلبه شغف طلب العلم، وقوة التحول وروح الاستكشاف. العلم لا يعترف بالحدود الجغرافية أو العمر، بل هو جوهر يتجاوز الزمان والمكان. بعد أن ترك خلفه عالم الطفولة وأبحر في بحور المعرفة والحكمة. يتلمس دروب العلم بخطواته البريئة، مبتسمًا بثقة وعزم يشعان من عينيه. منذ اللحظة الأولى، أظهر استعدادًا نادرًا للاستيعاب والتعلم، حيث استنفد كل وسائل البحث المتاحة واجتهد في دراسة المصادر والمراجع المتعلقة بالعلوم الدينية. أسس لنفسه منهجًا علميًا دقيقًا ومنظمًا، وكان دائمًا يسعى لتحقيق المزيد من التقدم والاكتشاف. تخللت أيامه الصغيرة مقاعد الدروس والمحاضرات، حيث استمع بتأنٍ واهتمام إلى أساتذة العلوم والفلسفة والأدب. كان يرتشف المعرفة كالنهر العذب، يمتص الكلمات والأفكار بشغف متواصل. وهذا كله تحت رعاية خاله أبي المعالي، حتى أن الميرزا وصفه فيما بعد في أحد كتبه بقوله: (هو النور اللامع والنجم الطالع، عين الإنسان وإنسان عين الإنس والجان، المولى والولي الصمصام، الفيلسوف المحبور، المحقق المدقق العالي المتعالي الشيخ الأميرزا أبو المعالي).

تطور الفتى بسرعة مدهشة، وكأنه ينمو مع كل نظرة توجهها إلى العالم من حوله. استفاد من العمق الفكري للأدب والفلسفة، واستنار بأفكار العلماء العظماء الذين أضاءوا مساره، وأثبت أن العمر ليس عائقًا أمام البحث والتعلم.

في أروقة العلم والتعلم، تفتحت له بوابات من الإدراك والفهم السريع. كانت ذاكرته الاستيعابية تستوعب كميات هائلة من المعرفة بسرعة فائقة. فقد كان يجتاز المحطات التعليمية بسرعة ويستوعب المفاهيم العميقة بسهولة فائقة.

مرت الأعوام، تحوّل الفتى إلى شاب عاقل، ذكي، مبدع. تمايلت على كتفيه ثقافات الشرق والغرب، وتلاشت حدود الزمان والمكان بوجوده. كانت رحلته رحلة تحد وتطور، صُوّرت بمشاهد جميلة لا تُنسى.

ليصبح كنجمة منيرة في سماء العلم والتعلم. يتألق ببريق العلم والثقافة. . مستمرًا في تسلق قمم المعرفة، مفتونًا بجمال العلوم وغنى الثقافات. ممتلكًا قدرات استثنائية في الذاكرة والاستيعاب، فكان يمتص المعرفة كما تمتص النباتات أشعة الشمس. نظراته تتجاوز السطح وتتغلغل في أعماق الموضوعات، ويعيش في عالم من الفهم العميق والتعقيد المدهش.

فكان ما يحتاجه من وقت لاكتساب المعرفة هو أقل بكثير مما يستغرقه الآخرون. فكلما اجتاز المنهج الدراسي بسرعة، زادت متعته في استكشاف مجالات جديدة والغوص في أعماق المعرفة. أثار إعجاب ودهشة أساتذته فيما يحققه من تقدم سريع في مجالات مختلفة. تفوق على رفاقه في التعلم ونجح في تحقيق أهدافه بسرعة لافتة. كان يعكس تلك القدرات الاستثنائية والتفوق في تحصيله العلم.

عندما ينبثق الفضول والشغف في نفس الإنسان نحو عالم غير مألوف ومجهول، يصبح كل لحظة له مغامرة مثيرة في رحلة الاكتشاف والبحث عن المعرفة.

بعد أن اكتسب الميرزا محمد المزيد من المعرفة في العلوم التقليدية، العلوم النقلية والعقلية، إلهية واعتقادية وعملية وأخلاقية. استهواه التعلم والاطلاع على العلوم الروحية، سعيًا إلى اكتشاف المجهول واستكشاف أفق جديد من المعرفة، فشعر برغبة قوية في استكشاف العلوم الغريبة التي كان يجيدها الهنود. وهي منتشرة بكثرة في هذه البلاد. وكان يطمح للوصول إلى أعماق العلوم المجهولة والأسرار المخفية التي تتجاوز حدود العقل البشري المألوف. هذه الرغبة دفعته للخروج من منطقة راحته وتحدي نفسه لاستكشاف عوالم جديدة، فقلبه ينبض بالشغف لها وروحه تتطلع إلى علوم كهذه.

في الهند العديد من الأساتذة الروحيين والمعلمين الذين يترسخون في تعاليم الديانات المختلفة، مثل الهندوسية والبوذية والسيخية والجينية. رهبان وأساقفة وصوفية، يقومون بتدريس العلوم الروحية والتأمل واليوغا، والممارسات الروحية الأخرى للطلاب والمهتمين، يمارسونها في العديد من المعابد والأديرة، حيث يكرسون حياتهم للتأمل والصلاة والصيام ودراسة الكتب الدينية والروحية. ويتقنونها، ويتبعون مناهج وطرائق مختلفة ويعتمدون على تعاليم الأديان والفلسفات المختلفة لتحقيق النمو الروحي..

لقد كان شغف الميرزا محمد يمثل صورة المتعلم الحقيقي الذي يسعى إلى معرفة علوم ومعارف لا تعرف حدودًا ولا نهاية. استكشاف عوالم جديدة، يعتبرها البعض تعيش على هامش الحياة اليومية، مع أنها عوالم تحوي أسرارًا وغموضًا.

من بين الكتب القديمة والنصوص الأثرية بحث الميرزا عن معرفة مدفونة بين سطورها، كما راوحت نظراته بين السماء والأرض بحثًا عن علامات ورموز تخبره بأسرار الكون وما وراءه. أطلق سراح خياله في طرق لا نهائية للبحث عن مكنونات الروح والجوهر الحقيقي للوجود.

وبالفعل، لم يكن الطريق سهلًا ولا خاليًا من التحديات، فالعلم الروحي والغريب يختبر قوة الإرادة وصبر الباحث عنه. تساءل الميرزا عن فرص الفشل ولحظات اليأس، لكنه لم يستسلم قط. استمر في البحث والتعلم، وتمسك بالأمل بأنه سيصل إلى ما يسعى إليه.

مع الوقت، بدأت الأسرار تكشف له والخفايا تتناثر في دربه. زادت حيرته وفضوله حين اكتشف أن العلم الروحي والغريب لا حدود له، بل هو كالمحيط الباسق الذي لا نهاية له. إلا أنه أراد أن يأخذها ويتعلمها من المنهل الصافي، فهو مسلم ورجل دين، فصار يبحث عمن يرشده إلى الطريق القويم. وكلما فكر في الأمر، زادت رغبته في الوصول إلى هذه العلوم.

طلب من خاله أبي المعالي بنبرة متباينة بين الرجاء والحيرة، أن يرشده إلى من يعلمه تلك العلوم، شريطة أن تكون مأخوذة من علم أهل البيت عليهم السلام.

حينما رأى إصراره المتوقد، ذلك العناد النبيل الذي لا تزعزعه الرياح، وأدرك أن في روحه جوعًا لا يُشبعه إلا العلم، وعطشًا لا يرويه سوى الحكمة. قال له وهو يحدّق إلى عينيه كمن يودع سرًا قديمًا:

- إن ضالتك، يا بني، ليست بين الكتب المكدسة ولا بين أفواه الشيوخ المعتادين، بل في مدينة (حيدر آباد) حيث

يسكن رجل لا يشبه أحدًا، السيد مير علم التستري الهندي. ليس عالمًا وحسب، بل نافذٌ إلى عوالم لا تراها العيون، من أهل الأسرار، مرتاض، ذابت ذاته في أروقة الحكمة، وعارفٌ بلغ من الثقة ما جعل القلوب تهفو إليه كأنها تبحث فيه عن ضوء ضائع.

ثم همس في أذنه:

- حتى أنه لقصة غريبة تدل على تعمقه بالعلوم الغريبة، وعلم الرمل، وعلم السيمياء، والجفر، والأوراد الصحيحة. قربه ملك حيدر آباد منه.

انطلقت في داخل الميرزا محمد نيران الحماسة والرغبة، كأنما مسته يد خفية أيقظت فيه شوقًا طال رقاده. شعَر أن الوقت لم يعد يحتمل التأجيل، وأن المعرفة التي ظل يبحث عنها لم تعد مجرد فكرة بعيدة، بل قدرٌ يناديه. لم يجد بُدًّا من شدّ الرحال، من ترك كل شيء خلفه والمضيّ نحو مدينة حيدر آباد، التي بدت تلوح في مخيلته، وكأن نداءً خفيًا ينبعث من أزقتها ليتعلم تلك العلوم.

(حيدر آباد) تبعد عن مدينة (الله آباد) أكثر من (مائة وثمانية وأربعين فرسخًا)،.. فهو مستعد للسفر في أي رحلة وإن كانت طويلة، وفي أماكن بعيدة ومجهولة، من الممكن أن تمنحه معرفة جديدة.

في لحظة من الهدوء العميق، وتحت بريق النجوم اللامعة في سماء الليل، بينما تلامس أمواج البحر الهادئ سواحل الشاطئ بلطف، كنا واقفين على شاطئ البحر، أنظر إلى الميرزا محمد وعيونه مشرقة نحو الأفق البعيد. كان وجهه يتلألأ بالحماسة

والإثارة، وفي عينيه الشغف والإصرار. لينطلق نحو المغامرة والاكتشاف، وجدته متحمسًا لشد الرحال إلى تلك البلدة، يحمل في داخله شغفًا بالعلم والمعرفة في هذا العالم الواسع.

لم يطل به التردد، فقد كان القرار كالنار المتقدة في أعماقه، يحرق كل شك أو تردد. في تلك الليلة، عندما هدأت الأصوات وخبت ضوضاء المدينة، جلس أمام أستاذه، وأخبره بعزمه على السفر. كان صوته مزيجًا من الحماسة والرهبة، كمن يقف على أعتاب قدر لا رجعة فيه. نظر إليه أستاذه طويلًا، كأنما يقرأ في وجهه مصيرًا مرسومًا منذ الأزل، ثم أومأ برأسه ببطء، كأنه كان يتوقع هذا اليوم منذ زمن بعيد.

ثم أمسك بالقلم وكتب إلى والده رسالة، خطّها بأنامل ثابتة وقلب متلهف، موضحًا فيها نيته السفر إلى مدينة (حيدر آباد) لاكتساب المعارف الجديدة.

المحطة الثالثة

الهند ـ حيدر آباد (1194 ـ 1780)

حيدر آباد، من المدن الكبيرة والأنيقة والفخمة في بلاد الهند، تمتد شوارعها المزدحمة والمترامية الأطراف في كل اتجاه، تستقبل القدماء والجدد على السواء، في زحمة حيوية واندفاع دائم، تمتزج فيها حدائق الطبيعة الملونة وأغصان الأشجار بأغاني الطيور وضحكات الأطفال مع الثقافات المتنوعة، فتشكل لوحة فنية تنبض بالحياة. منازلها ضخمة، أسواقها كبيرة ومليئة بالعديد من التجار الأثرياء والمصرفيين وصائغي المجوهرات وعدد كبير من الحرفيين. .

اقتربت الشمس من المغيب، وبدأ الأفق يتزين بألوان ساحرة تجذب الناظرين نحو جمال المدينة الخلاب. وكأن الطبيعة تقدم عرضًا جماليًا بين السماء والأرض تشد له الأنظار.

سألنا عن السيد مير علم الهندي، قيل لنا إنه رجلٌ ذو علم ووقار، معروفٌ بين الناس بعقله الراجح وبصيرته النافذة. اسمهُ يتردد في أروقة المدينة كأنه جزء من نسيجها الحي.

قال أحدهم، مشيرًا إلى المئذنة التي تعانق السماء:

ـ ستجدونه في المسجد، لا يكاد يفارقه إلا لمامًا، فحياته بين الكتب والصلوات، بين التأمل والكلام الحكيم.

قررنا أولًا أن نستأجر بيتًا، بعد أن أثقل السفر أجسادنا. كنا بحاجة إلى مأوى، ليس فقط لراحة الجسد، بل لتأمل الطريق الذي قادنا إلى هذه المدينة، وللتهيؤ للقاء السيد مير علم الهندي في الصباح التالي.

كان الليل قد بدأ يُسدل ستاره حين وجدنا بيتًا متواضعًا في أحد الأزقة الهادئة. غرفة صغيرة، سقفها من الخشب، جدرانها تحكي عن أزمنة مرّت عليها. لم يكن البيت فاخرًا، لكنه كان كافيًا ليمنحنا لحظة من السكون، بعيدًا عن وعثاء السفر وصخب الأسواق.

في الداخل، أشعلنا مصباحًا زيتيًا خافت الضوء، جلسنا على الحصير، نتبادل الحديث بصوتٍ منخفض، كأننا نخشى إيقاظ المدينة النائمة. كان التعب يغلبنا، لكن أذهاننا ظلّت يقظة، تفكر في الغد، في اللقاء المنتظر، في الكلمات التي ستُقال، وفي الأسئلة التي ستحملها أرواحنا المتعطشة للمعرفة.

في ساعات الفجر الباكرة، استيقظ الميرزا وكله شوق لمقابلة السيد الهندي. بينما كانت المدينة لا تزال نائمة في سكونها، شعر الميرزا باندفاع خاص نحو تلك اللحظة التي سيخوض فيها لقاءه المنتظر، كأن الأقدار قد ساقت إليه الطريق، ليجد في وجه ذلك السيد الهندي علمًا جديدًا يفتح له أبوابًا مغلقة.

بدأ يومه بخطوات ثابتة تقوده نحو المسجد. يرتدي ثوبه الأبيض وعمامة سوداء، ويمضي في طريقه بثبات وراحة نفس، لا تزال المدينة هادئة والنسيم البارد يعانق الأرجاء في أعماق المدينة.

رأينا مسجدًا قديمًا يحمل طابع العبقرية الفنية، يرتقي السماء بنوافذه العالية وقبته البيضاء المزينة بزخارف إسلامية. وصلنا

إلى بوابات المسجد، وجدنا لافتة كتب عليها (مسجد المير عبد النبي)، تبين لنا أن هذا المسجد هو المسجد الذي بناه المير عبد النبي، الجد الخامس للميرزا محمد. خطونا باحة المسجد الواسعة، تسللت نسمات الهواء بلطف لتعطينا شعورًا بالراحة والسكينة. أسبغنا الوضوء، ودخلنا إلى حرم المسجد، استقبلنا عبق العود والمسك الذي يملأ الهواء ويشعر بأجواء دينية ملؤها الطمأنينة. توافد المصلون الذين يحضرون لأداء صلاة الفجر إلى المسجد. أقيمت الصلاة.. وبعد الانتهاء منها، استرشدنا عن السيد الهندي، فقيل لنا إنه ذلك الجالس قرب إحدى أسطوانات المسجد.

توجهنا نحوه بخطوات هادئة، وجدناه يواصل الدعاء والابتهال إلى الله، وكأن الوقت قد توقف من حوله. كانت الكلمات تتساقط من شفتيه في أناتٍ متتالية، تتناغم مع الهدوء المحيط، ودموعه تتساقط تباعًا.. كل دمعة كانت تعبر عن قربٍ من الله، يُشعره بالراحة الحقيقية التي لا يمكن أن يمنحها غير الإيمان العميق.

بصوت واضح وابتسامة متلألئة بادية على وجهه، سلم الميرزا عليه. رفع السيد رأسه نحو الميرزا ورد عليه السلام وبادله الابتسامة نفسها.

- هل يمكنني الانضمام إليك؟

- أهلًا وسهلًا بك أيها الشاب، بمسجدي الثاني.

- وأين مسجدك الأول؟ سأل الميرزا باستغراب.

- هو هنا، وأشار إلى قلبه متبسمًا. ثم أردف: بم أستطيع أن أخدمك؟

بيّن الميرزا محمد بوقار أنه من طلاب العلم، درس العلوم الشرعية وحفظ من متونها الكثير، وقضى شطرًا من حياته متجولًا بين المجالس والحلقات، ليتعلم ويبحث عن النور في ظلمات الجهل، وقطع مسافةً كبيرة ليصل إلى هذا المكان، حيث كان الأمل يحدوه للقائه. طلبًا لما هو أعمق، لما هو أبعد من مجرد النصوص والقواعد. طامعًا في المزيد من المعرفة، متشوقًا إلى سبر أغوار العلوم التي لا تُنال إلا بالصبر والمجاهدة. والغوص في بحر العلوم الروحية، وفهم الأسرار التي لا تُدرك إلا بالبصيرة، وأن يتعلم منه ما قد يجعله أقرب إلى الحقيقة..

في صوته كان ينبعث نوع من الجدية والتواضع، كأنه يثق بقدرته على فهم الحقائق التي سيتعلمها، وفي قلبه يقينٌ بأن ما يسعى إليه ليس مجرد علم يزداد به، بل هو مسارٌ نحو سموّ الروح وتهذيب النفس. لأنهً يؤمن بأنه بحاجة إلى معرفةٍ أعمق، ليس فقط في فقه الدين، بل في علوم أخرى قد تكون مفتاحًا لفهم أوسع للحياة.

كانت عيناه تلمعان بجديةٍ صادقة وهو يتحدث عن رغبته في هذا العلم. لم يكن هدفه هو مجرد تحصيل المعرفة التقليدية، بل كان يسعى إلى النفاذ إلى أعماق الروح، وفهم حقيقي لما وراء المظاهر. والقدرة على استيعاب هذه المعرفة، وتطبيقها في حياته بشكلٍ إيجابي، لتنير له الطريق، وتساعده في النمو الروحي والفكري.

كلماته عبرت عن تصميم حقيقي، وكأنما وجد في هذا اللقاء بداية لرحلةٍ جديدة في حياته..

ولكنه اندهش، حينما استقبل من السيد الهندي نظرة مترددة

وابتسامة مليئة بالحكمة. رفض السيد بلطف واحترام، معبرًا عن توجيهه له بنبرة هادئة وحكمة في عينيه:

- ساد صمت عميق بينهما، قطعه السيد الهندي بابتسامة هادئة، يزينها شيء من الحكمة والتردد. نظر إلى الميرزا محمد بعينين متفحّصتين، كأنه كان يزن كلماته قبل أن ينطق بها. ثم قال بصوت هادئ:

- يا بني، ليس كل باب يُفتح لكل طالب، وليس كل من رغب في المعرفة أُعطي مفاتيحها. إن العلم الذي تطلبه ليس مجرد دراية، بل مجاهدة، وتصديق قبل أن يكون تعلمًا. هناك علوم تُمنح، وعلوم تُكشف، وعلوم تُورث لمن يقدرها بحق. وبعضها يُختبَر السائر إليها، فليس كل قلبٍ يحتملها، ولا كل عقلٍ يدرك أسرارها.

ارتسمت على وجه الميرزا محمد علامات الدهشة، لم يكن يتوقع الرفض، بل كان يظن أن الطريق أمامه ممهد، وأنه بمجرد أن يطلب سيجد الإجابة. شعر للحظة أنه أمام امتحان، لكنه لم يفهم بعد طبيعته.

أطرق السيد الهندي، كأنه يستعيد ذكرى بعيدة، ثم رفع عينيه وقال بصوت أكثر حزمًا:

- أحترم شغفك، وأقدّر سعيك، لكني لا أستطيع أن أكون معلمك في هذا الطريق. ليست كل معرفة تصلح لكل إنسان، وليست كل نفس مؤهلة لتحمل أعباء ما هو خفي ومستتر. لا بد أن تنضج تجربتك أكثر، وأن تخوض اختباراتك بنفسك قبل أن تطرق هذا الباب مجددًا. فإن العلم عند غير أهله كما قال صدر المتألّهين (عليه الرحمة) كإعطاء السكين بيد السكران، فإنه يضر بنفسه وبغيره.

شعر الميرزا بأن كلمات السيد تحمل سرًا لم يدركه بعد، وأن هذا الرفض لم يكن تحقيرًا له، بل حمايةً من شيء لم يفهمه بعد. لم يردّ مباشرة، بل ترك الصمت يملأ المكان، محاولًا أن يستوعب ما قيل له، ليشعر أن الطريق إلى ما يبحث عنه لن يكون سهلًا أبدًا.

قطع السيد الهندي ذلك الصمت، وسأل الميرزا محمد عن السبب وراء رغبته في الاستزادة من المعرفة.

قال الميرزا بثقة وعزمٍ جاد، وصوت يحمل نبرة شوق لا تخطئها الأذن:

- لقد وهبت حياتي للعلم منذ صباي، وقطعت الفيافي والقفار لأطلبه، لكنني أدركت أن المعرفة ليست مجرد كتب تُقرأ أو دروس تُحفظ، بل هي نور يتسرب إلى القلب فيضيئه، ويمنح صاحبه بصيرة يرى بها ما لا يراه الآخرون. وجئت إليك، لأنني سمعت عنك أنك من أهل الحكمة، ومن الذين يجمعون بين ظاهر العلم وباطنه. أريد أن أتعلم منك ما لم أجده في الكتب، أن أفهم أسرار الروح والكون، أن أرى ما وراء المظاهر، وأفهم الحكمة التي تربط بين الأشياء، لتكون لدي معرفة شاملة تغمرني بالإلهام وتفتح لي آفاقًا جديدة.

توقف لحظة، وكأنما يستحضر كل الأسباب التي دفعته إلى هذه الرحلة الطويلة، ثم تابع:

أنا على يقين بأن القرآن احتوى على كل العلوم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال العلماء: (إن علوم القرآن خمسون علمًا وأربعمائة وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن، مضروبة في أربعة. إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد

ومقطع; وهذا مطلق دون اعتبار تراكيبه وما بينها من روابط. وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله ﷻ). وإن كانت الديانات عندها من العلوم الغريبة فأمة النبي وأتباع أهل البيت أولى الناس بتعلمها. فلا بد من كسب العلوم والفنون، وتعلم كل شيء، في كل يوم بل في كل ساعة، من المهد إلى اللحد، ولو بسفك المهج وخوض اللجج، والله يحب بغاة العلم.. والزيادة العلمية بصورة عامة أما أن تكون كمية بزيادة معلومات جديدة وأن يكون يوم المرء خيرًا من أمسه بالتعلم والتعليم. وزكاة العلم نشره، فيزداد علمًا، ويحصل على علوم جديدة. فالعلم بالشيء خير من الجهل به، حتى أنه يؤثر عن أفلاطون أنه قال: (ما من علم لمستقبح إلا والجهل به أقبح).

وهدف الأنبياء والأولياء والعلماء والصلحاء الذين هم ورثة الأنبياء إنما هو تعليم الناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾. ومعلّم العلوم الروحية هم الأنبياء ومن يحذو حذوهم، ويقتدي بمنهجهم وشريعتهم: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

كما أن في البلاد من يحمل هذه العلوم وينجذب إليهم عوام الناس، يتكلمون بمصطلحات في العلوم الغريبة كالأذكار والأوراد والمربعات والمثلثات والعزائم والجفر والرمل والسحر وما شابه ذلك، ويتبخترون بها، ويوحون إلى الناس بأنهم أعلم من خريجي مدرسة أهل البيت، ومن تعلم علم قوم أمن شرهم، لنكون على بصيرة من هذا الأمر أن جوبهنا به.

ظل السيد الهندي صامتًا، يتأمل الميرزا محمد بعينيه العميقتين، قبل أن يقول بصوت خفيض لكنه نافذ:

ـ أيقنتَ أن العلم نور، لكن هل أنت مستعد لتحمل

وهجه؟ هل تملك من الصبر ما يجعلك تتجرع مرارته قبل أن تذوق حلاوته؟

استمع الميرزا بتواضع وانصراف تام، وأدرك أن السيد يرغب في وضع تحديات له حتى يستوعب المزيد وينمو بشكل أفضل. وأن السؤال لم يكن مجرد اختبار، بل كان بابًا إلى أمر أكبر، إلى رحلة لم يكن يتوقع أنها ستبدأ بهذه الكلمات، فأعلن الميرزا بثقة:

- أنا على استعداد لتلقي التوجيه والتعليم الذي ترونه مناسبًا لي، وأعدك أنني سأكون مجتهدًا وملتزمًا بتعاليمك.

ابتسم السيد الهندي ابتسامة خفيفة، كأنما قرأ في عيني الميرزا محمد صدق العزم وحرارة الشوق. ثم قال بصوت مهيب، يحمل في نبراته عبق السنين والتجارب:

- سأقبل بأن أعلمك العلوم التي تشدّك وتعزّز اهتمامك، ولكن عليك أن تتعهد أن تستخدم هذا العلم بطريقة حكيمة وبناءة، وأن تكون سفيرًا للخير والعطاء في المجتمع. لكن لدي بعض الشروط التي يجب أن نتفق عليها.

استمع الميرزا بانتباه شديد، يعرف جيدًا أن السيد لن يتركه يبحر في مياه لا يعرفها، بل سيرشده بحكمته وخبرته الواسعة.

شرطي الأول: هو أن تكون متيقظًا لحقيقة أن العلم الحقيقي يستدعي التواضع والتأمل. قبل أن تستكشف الغرائب، يجب أن تتعلم الأساسيات وتسير على خطى العلماء العظماء الذين سبقوك.

شرطي الثاني: هو أن تكون متحمسًا لتطوير نفسك بشكل شامل، ليس فقط في المجالات الغريبة والمذهلة، بل في كل

جانب من جوانب الحياة. فالتعلم الحقيقي يكمن في توازن المعرفة والروح والتطور الشخصي.

شرطي الثالث: أن تكتم هذه العلوم، إلا لمن يستحقها، فهذه العلوم من الأسرار.

نظر الميرزا إلى السيد بتأمل واحترام، وحنى رأسه بإجلال وأجابه بثقة:

- أقبل تمامًا هذه الشروط. وأنا مستعد للتعلم والاستكشاف بالطريقة التي تقترحها.

عندئذ، أغمض السيد الهندي عينيه قليلًا، كأنه يزن الأمور في ميزان خفي، وحدد له وقتًا لتعليمه تلك العلوم.

وهكذا بدأت رحلة الطالب ومعلمه، وبقي عدة سنوات معه في دراسة العلوم الغريبة، تعلم فيها الميرزا منه بأن هناك من العلوم التي تعتبر من فروع السحر، فإن استحداث الحوادث إن كان بمجرد التأثير النفساني فهو السحر، وإن كان على سبيل الاستعانة بالفلكيات فهو دعوة الكواكب، وإن كان على سبيل تمزيج القوى البشرية بالأرضية فهو الطلسمات، وإن كان على سبيل الاستعانة بالخواص الطبيعية، فإن كان بالقراءة فهو علم الخواص، وإن كان بالكتابة فهو علم النيرنجات، أو بالأفعال فهو الرقي. وإن كان على سبيل الاستعانة بالأرواح فهو العزائم، وإن كان بإحضار تلك الأرواح في قالب الأشباح فهو علم الاستحضار، ويسمى علم تسخير الجن، وأما الإخبار عن الحوادث غير الحاضرة: فأما عن الماضي أو الحال أو الاستقبال فهو علم الكهانة، والإنسان كما يقدر على استحضار المجردات كذلك يقدر على تغييب الحاضر الحسي ويسمى علم

الإخفاء، وكذلك على إخفاء الأمور الحاضرة عن الحاضرين، ويسمى بالحيل الساسانية..

وذكر له أن هذه العلوم على هذا النهج، وعدّ منها علم القلفطيرات، وعلم الكتابة المسمى بالسر المكتوم، وعلم كشف الدك، وعلم الشعبذة، وعلم تعلق القلب، وعلم الاستعانة بخواص الأدوية.

وأما العلوم الخفيّة فهي المستورة المصون بها عن غير أهلها، ولم يزل الحكماء يبالغون في إخفائها حتى أنهم وضعوا فيها رموزًا واخترعوا في كتابتها أنواعًا من الخط، وهذه العلوم خمسة تسمى بالخمسة المحتجبة، وغير الرسوم المعهودة، وهي تنقسم إلى أقسام خمسة: الكيمياء والليمياء والهيمياء والسيمياء والريمياء، ولبعض أساطين الحكماء في مجموع هذه الأقسام كتاب ضخم، سماه (سرّ كلّه) لتكون حروف اسمه مشيرة إلى أسماء هذه العلوم، يعني به أن السين إشارة إلى السيمياء والراء إلى الريمياء وهكذا في البواقي، منبهًا على وجوه اختفائها.

وهناك رسومات وإشارات وطلسمات، وخطوط غير متعارفة، وأبواب مقفلة، من أجل كتمانها حتى يعجز القاصرون عن فهم المقاصد والمرادات، من الاصطلاحات والعبارات، فإن حرف المعنى جوهر ثمين لا يمكن تعليمه لأحد.

وأنه مبرهن ومحقق عند أهل اليقين أن اللطائف المعنوية كالخواص والأرواح والحروف والأسماء وكل ما هو غير محسوس، يكون كل واحد من الأجسام العلوية فائضًا على الأجسام السفلية، والسفليات معلولة للعلويات جميعًا، ولا بد من المناسبة والمشابهة بين العلة والمعلول، فكل شكل من أشكال الحروف وغيرها شكل في العالم العلوي وهو اللوح

المحفوظ، ولمجموع الحروف طبائع وحركة وسكون، وأمزجة وآثار، وبعض الحروف علوي، وبعضها سفلي، والمجموع أحياء قائمة بالأحدي الذي هو المنشأ والمبدأ للجميع. .

إن علم خواص الحروف وأسرار الأسماء علم جميل ولطيف، رقيق النزول، رفيع العروج، وهما ارتباط الحق بالعالم وارتباط العالم بالحق، وهذه الجواهر يمكن أن تكون حروفًا. . فمن عرف خواص الأسماء وأسرار الحروف وكسّرها وبسّطها، وداوم على حل وعقد ونظم الأسئلة واستخراج الأجوبة، أصبح متمكنًا من استخراج أسرار الطبيعة، وتنفتح عليه أبواب أسرار الخلقة، فيطّلع بذلك على مكنون خفايا القلوب. فالحروف روابط بين العلويات والسفليات، والنفوس والطبائع، وتنتبه النفوس من ضمائر بعضها بعضًا بواسطة الحروف، وهي منظر لقلوب العرفاء ومخبر للمعاني المتعارفة الحسنة، علم يعلمه الرحمن ليس له تحول وإحالات وإرسال.

فهذه فنون لطيفة، وعلوم شريفة، وذخائر نفيسة، ليست في متناول اليد، ولا متوافرة حتى في المكتبات الخاصة إلا بشكل نادر.

وإن للعلم سبعين درجة، لكل منها خاصيات، وكل منها أقسام عديدة يختلف كل قسم منها عن الآخر، فمنها ما هو واجب شرعًا، ومنها ما هو محرم، ومندوب، ومكروه، ومباح. وبينهما ارتفاع في الدرجة وانخفاضها، كما أن من أقسام العلوم، علم الكلام، وعلم الفقه، والحديث، والتفسير، والبيان والبديع والمنطق، وعلم السلوك وعلم الحقيقة، وعلم الحروف، وعلم الأوفاق، وعلم الأعداد، وعلم الحكمة، وعلم الهيئة، وعلم الطب والأدوية القديمة. ويحتاج كل من هذه

العلوم إلى مطالب ومواضيع ، فلا بد من بذل قصارى الجهود في هذه العلوم التي لا يمكن فهمها من غير معونة أساتذة ومدرسين لينال الإنسان ما يحتاج إليه منها .

مع مرور هذه السنوات الثمانية، تطورت مدارك الميرزا وأصبح نابغة حقيقية في مجال العلوم الغريبة. تمكن من فهم الظواهر المعقدة والقوانين الغامضة التي يعتمد عليها هذا المجال. أصبح لديه قدرة فريدة على فك رموز الطبيعة والتعامل مع العوالم الخفية. انفتحت أبواب العلم الغريب أمامه وبدأ يتلمس أعماقها وغموضها . وفي كل خطوة يستمد الحكمة والروحانية، وتنمو بصحبة المعلم الذي ينير له الطريق ويوجهه نحو مصيره المثالي في طلب العلم الغريب.

مع أنه لم يترك دراسة العلوم الدينية، بل كان في أحيان كثيرة يتدارسها أيضًا مع أستاذه الهندي .

كل كلمة من درس السيد الهندي كانت تتأجج في عقل الميرزا محمد، وتسلحه بالحكمة التي يستمدّها منه. وكل خطوة يخطوها معه تزيده نورًا في داخله .



في أحد الأيام، رجع الميرزا محمد إلى المنزل بعد الانتهاء من الدرس مع السيد الهندي، ممسكًا بيديه رسالة وصلته من والده، بعد إلقاء السلام والتحية قال لي :

- لقد وصلتنا اليوم رسالة من والدي .

كان الميرزا عبد النبي في أحيان كثيرة يتراسل مع ولده الميرزا محمد، للاطمئنان إليه وتلبية احتياجاته، إلا أن هذه المرة كانت البهجة تتلألأ في عينيه وتعكس على ملامح وجهه السعادة .

عاود الميرزا قراءة الرسالة مرة أخرى أمامي، ينظر إليها بتركيز، تهتز بلطف مع كل كلمة يقرأها، وكأن عينيه تتسابقان مع الكلمات، تخترقان الورقة ليستنشق رائحة الحبر ويشعر بحركة قلب والده بين كل حرف وآخر.

حملت تلك الرسالة في طياتها طلب الميرزا عبد النبي إلى ولده الميرزا محمد الرجوع إلى الدار، ليتأهبوا للسفر إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة المشاهد المشرفة.

كانت الرسالة كالنور الذي ينير دروبنا في الظلام، وكلماتها كالنغمات الهادئة التي تهز القلب وتثير الروح. ترسمت البهجة والسرور على وجه الميرزا محمد، وكان يشعر بالفخر والاعتزاز لدعوة والده إلى تلك الرحلة المقدسة. قال لي بعينين دامعتين، وبوجه يعبر عن ترقب وتوتر، يتلألأ ببريق من التفاؤل والحنين:

- أحمد الله الذي استجاب دعائي، فلطالما دعوت الله بدعاء الإمامين الصادقين عليهما السلام الذي علماه لشيعتهما: (اللهم ارزقني حج بيتك الحرام في عامي هذا وفي كل عام، ما أبقيتني، في يسر وعافية وسعة رزق، ولا تخلني من تلك المواقف الكريمة والمشاهد الشريفة وزيارة قبر نبيك صلواتك عليه وآله..

اللهم إني أسألك فيما تقضي وتقدر من الأمر المحتوم في ليلة القدر، من القضاء الذي لا يرد ولا يبدل، أن تكتبني من حجاج بيتك الحرام، المبرور حجهم، المشكور سعيهم، المغفور ذنوبهم، المكفر عنهم سيئاتهم، واجعل فيما تقضي وتقدر أن تطيل عمري في طاعتك وتوسع علي رزقي وتؤدي عني أمانتي وديني، آمين رب العالمين).

- وماذا عن السيد الهندي؟ قلت له.

- لقد أخبرته بذلك، وقد فرح فرحًا غامرًا ودعا الله أن يتم سفرنا على خير وعافية. وألا ننساه من الدعاء والزيارة.

بدأت الاستعدادات الفورية للسفر، وكانت القلوب ملؤها الشوق والحماسة بالرجوع إلى البيت وملاقاة الأهل، وللوقوف في مكة المكرمة والتمتع بأجواء الطاعة والتأمل والدعاء.



وصلنا إلى ديارنا في فرخ آباد مع غروب الشمس، وكانت السماء قد اتشحت بألوانها الدافئة، كأنها تعكس مشاعر الشوق التي تغمر قلوبنا. كل خطوة نحو الدار كانت تزيد من خفقان القلب، فهنا الذكريات، وهنا الدفء الذي نحنّ إليه طوال رحلتنا.

عند اقترابنا، لمحنا والديّ الميرزا يقفان عند المدخل، وكأنهما لم يفارقا المكان منذ وداعنا، ينتظران عودتنا بلهفة. كانت الأم أول من هرعت نحونا، عيناها تفيضان بالدموع، لكنها دموع الفرح التي لا تحتاج إلى تفسير. ضمت الميرزا إلى صدرها بحنان، كأنها تريد أن تمحو كل مسافات الغياب، وهمست بصوت مرتجف:

- طالت الأيام يا بني، كيف كنت؟ هل كنت تأكل جيدًا؟ هل نمت مرتاحًا؟

أما الميرزا عبد النبي، فوقف شامخًا، لكنه لم يخف لمعة الفرح في عينيه، ضمنا وضع يده على كتفي ولده وضغط عليها بحنان الأب ووقاره، حامدًا لله على عودتنا سالمين.

جلسنا جميعًا في المجلس، حيث كان كل ركن يروي حكايات الماضي، وكانت نظرات الأهل تترقب كل تفصيل في

وجوهنا، كأنهم يريدون التحقق أننا لم نتغير، أننا ما زلنا كما تركونا. تبادلنا الأحاديث، والسؤال عن الأحوال، قصصنا عليهم كل ما مررنا به، فيما كانت الأم تتنقل بيننا بلهفة، تقدم لنا الطعام الذي أعدته بيديها، وكأنها تحاول تعويضنا عن كل لحظة غياب.

تداخلت الضحكات بالدموع، والكلمات بالعناق، وكان الليل شاهدًا على لقاء انتظرناه طويلًا، لقاء لا تسجله الأيام في تواريخها، لكنه محفور في ذاكرة القلب إلى الأبد.

صرح الميرزا عبد النبي بأن جميع من في البيت سوف يذهبون للحج.. زوجته وولده والخدم.. وسوف يسلكون الطريق البحري.

- إن رحلة الحج عن طريق البر محفوفة بالمخاطر، بسبب ما يواجه المسافرون من صعاب كثيرة خصوصًا من قطاع الطرق، ناهيك عن الطرق الوعرة، وشح المياه والحيوانات المفترسة.. فتجتمع عليهم المخاطر وتتناوشهم من كل جانب.. وفوق كل ذلك الإتاوات التي تدفعها القوافل للسماح لهم بالمرور.
- لكن الطريق البحري أيضًا محفوف بالمخاطر، قالت الزوجة متسائلة.
- شدة الرياح والأمطار أقل خطرًا من الطريق البري، لأنها ربما لن تحدث، ولأننا سوف نسافر بأمتعة كثيرة، مع عموم الأسرة، فإنني أرى أن الطريق البحري آمن لنا. إن الخوف من السفر بحرًا، أقل بكثير من الخوف والهلع من السفر برًا، فهو مليء بالمصاعب والمصائب والمخاطر، فالخوف من الغرق ومعاناة العطش إذا ما نفد الماء، ومعاناة الجوع

إذا ما نفدت مؤونة الطعام، أهون بكثير من السفر برًا..
إلا أنه ليس من الضروري أن يواجه المسافرون المصاعب والمتاعب في كل مرة، وليس من الضروري أن يتعرض الإنسان لمصائب ومتاعب السفر بحرًا. إن من أكبر متاعب الرحلة البحرية هو أن سفر السفينة متوقف على حركة الرياح، ولم يجعل الله لأحد سلطانًا عليها، فهي تجري بأمر الله، ففي لحظات كهذه يظهر عجز الإنسان وضعفه، وتتجلى أمامه قدرة الله لهذا تجد أن الله امتن على عباده بأنه سخر لهم الفلك، قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

- سمعت أن أباطرة المغول يرسلون العطايا السنوية والمساعدات المالية والهدايا والصدقات لأهالي الحرمين الشريفين؟. سأل الميرزا محمد والده.

- نعم، وهناك أسباب كثيرة لذلك، منها الارتباط الديني ومكانة الأراضي الحجازية الدينية. ولكسب الشهرة بين نظرائهم من الدول الإسلامية. ونيل ود شرفاء مكة وتشجيعهم على توفير الإمدادات كافة لتأمين الطرق. وتوفير السكن المناسب للحجاج الهنود. وتنشيط التجارة الهندية في الأراضي الحجازية التي تعتبر أكبر ملتقى تجاري على مستوى العالم.

لقد وجه سلاطين المغول اهتمامهم الخاص إلى الحرمين

الشريفين، خصوصًا أباطرة المغول، السلطان أكبر (ت 1014هـ/ 1605م)، وابنه السلطان جهانگير (ت 1037هـ/ 1627م)، وحفيده السلطان شاهجهان (ت 1069هـ/ 1658م)، وابن الأخير السلطان أورنگ زيب (ت 1118هـ/ 1707م)، فكانوا يكنون كل إجلال وتقدير لمكة والمدينة، وكانوا يرسلون الأموال والهدايا من خلال الحجاج الهنود في عهودهم.

ومن عادة السلاطين المغول إرسال قوافل الحج من الهند كل سنة إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة. إن السلطان أكبر خصص مرة خمسمائة ألف روپية نقدًا بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي تحتاجها الرحلة، وأمر حاكم ميناء (سورت) بتجهيز سفينة خاصة لنقل الحجاج إلى الحجاز، وسلم لأمير الحج مبلغ ستمائة ألف روپية نقدًا وأشياء أخرى للصرف على الفقراء والمحتاجين في الحرمين الشريفين، وأمر أن يعطوا نفقات الطريق لكل شخص أراد زيارة الحرمين الشريفين، وفاز خلق كثير بهذا الإنعام.

كما كان سلاطين (بهمنية) في جنوب الهند، وسلاطين (گجرات) و(مالوه) في غرب الهند، وسلاطين (بنگالة) في شرق الهند مهتمين جدًا بشؤون الحرمين الشريفين دينيًا وثقافيًا وعلميًا، ومن ضمن اهتمامهم قيامهم بإرسال الأموال لأهالي الحرمين الشريفين مع قوافل الحجاج الهنود بصورة مستمرة، فضلًا عن إرسال الهدايا لأمراء مكة وأئمة الحرم وقضاة مكة، وإنشاء المدارس والمراكز العلمية والخانقاوات، مما أصبح فيما بعد من عادة الدول الإسلامية القائمة في الهند السير على هذه السنة ومنها الدولة المغولية.

ليس هذا فحسب، بل إن السلاطين المغول ساروا على

سياسة معينة لمعاقبة الثائرين والمتمردين من خلال نفيهم إلى الحرمين الشريفين لتفرغهم للعبادة، وتحصيل العلوم الإسلامية في مكة أو المدينة. فعندما تمكن السلطان همايون (ت 963هـ/ 1556م) من أخويه الأمير كامران (ت 964هـ/ 1557م)، والأمير محمد عسكري (ت 965هـ/ 1558م)، وذلك بعد دخوله معهما في صراعات سياسية وعسكرية طويلة، أذن لهما بالسفر إلى الحرمين الشريفين للحج والبقاء فيهما، حيث توفي كلاهما في مكة.

وكذلك فعل السلطان أكبر مع وزيره المتمرد بيرم خان (ت 968هـ/ 1560م)، بحيث طلب من الأخير الإذن للرحلة إلى الحرمين الشريفين لأداء الحج والعمرة، ولكنه اغتيل بيرم خان وهو في طريقه إلى الحرمين الشريفين. كما عاقب السلطان نفسه كلًا من الشيخ عبد النبي (991هـ/ 1583م)، والشيخ عبد الله السلطان پوري (ت 990هـ/ 1582م)، في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري عن طريق نفيهما إلى الحرمين الشريفين.

ثم قال الميرزا عبد النبي، رافعًا يده برفق ليضعها على كتف ابنه، بلمسة من الدفء والراحة:

- دعك من كل هذه الآن، قال الميرزا عبد النبي وهو ينظر إلى ولده بعينين جادتين، بينما الأم كانت تجلس بجانبه، تعبث بأطراف منديلها في صمت، وكأنها تخفي توترًا لا تريد أن يظهر. ثم قال بصوت هادئ لكنه حازم:

لقد أتممت جميع مستلزمات السفر، وقضيت جميع الديون والمتعلقات، ولم يبق شيء في ذمتي. ولم يبق قبل أن نذهب إلى فريضة الحج إلا أن نقوم بخطوة مهمة، وقد فكرنا أنا وأمك فيها بجدية. وهو شرط يجب أن يتحقق قبل هذه الرحلة المباركة.

توقفت أنفاس الميرزا محمد لحظة، شعر بأن حديثه يحمل ثقلًا لم يتوقعه. تبادل نظرة سريعة مع أمه، فوجد في عينيها مزيجًا من القلق والتصميم، فعاد إلى والدي متلهفًا لمعرفة ما يريد قوله.

ـ لقد كبرت يا بني، وحان الوقت لتأسيس حياتك، لا يمكننا أن نرحل إلى الديار المقدسة وقلوبنا مشغولة بك. نريد أن نراك مستقرًا، متزوجًا، قبل أن نغادر.

ساد الصمت لحظة، ثم تابعت أمي بصوت دافئ لكنه مليء بالعاطفة:

ـ لقد اخترنا لك فتاة صالحة، من عائلة كريمة، ونحن واثقون أنها ستكون نعم الزوجة لك. لكن القرار أولًا وأخيرًا يعود إليك.

لم يكن يتوقع هذا الحديث الآن، قبل رحلة الحج، لكنه رأى في وجه والده إصرارًا هادئًا، وفي عيني أمي دعاءً بأن يوافق.

لم يكن الأمر سهلًا، لكنه أدرك حينذاك أن هذه رجوعه إلى الدار لم يكن فقط بسبب السفر إلى بيت الله الحرام، بل كان أيضًا بداية لرحلة جديدة في حياته.

لم يكن الميرزا محمد يعارض رغبة والديه بالزوج، فهو يحترم القيم الأسرية ويقدر تقاليد عائلته بشكل كبير. كان يفهم أهمية الوفاء بتوجيهات والديه، وكان دائمًا يسعى لإرضائهم وإدراك رغباتهم. كان مستعدًا لتقبل قرارهم والامتثال له، معتقدًا أن هذا هو الطريق الصحيح للتعبير عن احترامه وتقديره لهما. وأن الزواج هو خطوة هامة في حياته، وكان مستعدًا لتلبية توقعات عائلته وتحمل المسؤوليات التي تأتي معها.

بعد مرور أيام، دقت أخيرًا أجراس البهجة، في القرية التي وُشِّحت بزينة الأماني والأفراح، وارتسمت على وجوه الناس ابتسامات التهاني والتبريكات.

لحظة العقد تشهد على تجمع العائلة والأقارب والأصدقاء للاحتفال بهذا الحدث السعيد. تهاني الحاضرين تتدفق كنهر جارٍ، والدعوات الطيبة تملأ الهواء بعبق الأمل والسعادة. كلمات الفرح والتبريكات تعزف لحنًا جميلًا ملأ المكان بالبهجة والمسرات.

في ليلة العرس، وبعد أن تفرق الجميع، كان الميرزا محمد يجلس في ركن هادئ من غرفته، وقد بدا عليه السكون العميق، أرسل إلى الخادمة وطلب ماءً للوضوء لكي يصلي.

جاءته الخادمة سريعًا، تحمل إبريقًا من النحاس، يلمع تحت وهج المصابيح، توضأ الميرزا بخشوع، الماء البارد ينساب بين أصابعه..

كانت الخادمة تنظر إليه باستغراب، وكأنها تقول ما هذه الصلاة في مثل هذه الليلة؟

لأزيح الحيرة عن فكرها قلت لها:

- في الآداب الإسلامية، يستحب لمن أراد الدخول بالمرأة ليلة الزفاف أو يومه، أن يصلي ركعتين، ثم يدعو بعدهما بالمأثور، وأن يضع يده على ناصية الزوجة مستقبلًا القبلة، ويقول: (اللهم بأمانتك أخذتها، وبكلماتك استحللتها، فإن قضيتَ لي منها ولدًا فاجعله مباركًا تقيًا من شيعة آل محمد، ولا تجعل للشيطان فيه شركًا ولا نصيبًا).

ومنها أن رسول الله ﷺ أوصى عليًا عليه السلام قائلًا له: (يا علي، إذا دخلت العروس بيتك، فاخلع خفيها حين تجلس، واغسل

رجليها. وصبَّ الماء من باب دارك إلى أقصى دارك؛ فإنك إذا فعلت ذلك أخرج الله من بيتك سبعين ألف لون من الفقر، وأدخل فيها سبعين ألف لون من البركة، وأنزل عليه سبعين رحمة ترفرف على رأس العروس حتى تنال بركتها كلُّ زاوية في بيتك).



المدينة تعج بروح الاستعداد للحج، الحركة المشوقة تعم كل زواياها. الشوارع تزدحم بالأرواح المتلهفة، والأسواق تعبق بعطر الأمل والتفاؤل. يتوافد الحجاج من مختلف أنحاء الهند، تناغم صدى أقدام المسافرين مع ضجيج المدينة، يحملون معهم أمتعتهم وأحلامهم، لتحقيق ركن من أركان الإسلام. في هذا السياق المهيب، ينبض قلب المدينة بروح الانتظار والترقب، فالحج ليس مجرد رحلة دينية، بل هو لحظة انتظار لقاء الروح بالمقدس، ليس فقط في الأرض وإنما في أعماق القلوب أيضًا.

في هذه اللحظات الساحرة، الزمان يختلط بالمكان، ليمنح كل شيء طابعًا خاصًا. يحمل بين جنباته الكثير من الأمنيات والأحلام، يجعل الروح ترقص بين طياته معبرة عن شوقها للرحلة الروحية المقبلة.

السماء ترتعش ببرودة الصباح، والشمس الطافية برقتها تتسلل بين الأفق والغيوم، مشعة بأشعتها الذهبية. يومًا جميلًا للسفر، قلوب المسافرين مليئة بالحماسة والشوق للرحلة. بدأت الرحلة بوادي الألوان والعمران الذي يُشكله السكان المتنوعون الذين يعيشون حياتهم اليومية بشكل متباين، بأزيائهم التقليدية وما يحتاجون إليه من أمتعة، الشوارع مزدحمة بالناس والبضائع، كل واحدٍ منهم يتحرك بخطوات ثابتة ومتحمسة.

اجتماع كبير لأقرباء وأصدقاء المسافرين الحجاج،

يصطحبونهم في موكب شعبي، بالأناشيد الدينية، وتقديم باقات الزهور، ثم يودعونهم وداع الفراق، حتى أُثر في المثل عندهم: (الذاهب للحج مفقود والعائد منه مولود) بسبب خطورة الطريق.

انطلقت القوافل من (فرخ آباد) إلى ميناء (سورات)، تماوجت بنا الطرق بين السهول والوديان، وأرهقنا الغبار الذي التصق بثيابنا، وبعد عشرة أيام من السفر المضني، لاحت لنا أسوار سورات من بعيد، مدينة الميناء العتيقة التي يعبر من خلالها الحجاج والتجار إلى أراضي الجزيرة العربية. استقبلتنا المدينة بأنفاسها البحرية المنعشة، كأنها تفتح ذراعيها للوافدين إليها من كل صوب.

عند دخولنا، بدت سورات صاخبة بالحركة؛ القوافل تتوافد، والبضائع تتنقل على أكتاف الحمّالين، وصيحات التجار تعلو في الأسواق، حيث تختلط رائحة البهارات القادمة من الهند برائحة الأخشاب العطرية والتوابل النفيسة. كانت المدينة تنبض بالحياة، وكل شيء فيها يعلن اقتراب موعد الرحلة الكبرى نحو الأراضي المقدسة.

بدت المدينة وكأنها بلدة نمطية، مساكنها من الطين والخيزران، شوارعها ملتوية، فيها عدد قليل من القصور والمستودعات التابعة للتجار المحليين، وفيها مؤسسات التجار الأتراك والأرمن والإنگليز والفرنسيين والهولنديين على طول الشاطئ. بعض الشوارع ضيقة والبعض الآخر بعرض كافٍ.

توقفنا عند أحد الخانات، منزلًا للمسافرين، حيث قررنا أن نستريح من عناء الطريق قبل أن نكمل رحلتنا نحو السفينة التي ستقلنا عبر البحر. جلس الميرزا عبد النبي تحت ظلال شجرة وارفة، يتنفس الصعداء بعد الرحلة الطويلة، وهو يتأمل في

الأزرق الممتد عند الأفق، البحر الذي سيحملنا قريبًا إلى بيت الله الحرام، حيث الطواف والسعي، حيث تسكب الأرواح أشواقها وتبحث القلوب عن الطمأنينة.

كانت الرحلة لا تزال في بدايتها، لكن في الأفق كان يرتسم وعد الوصول، وشوق اللقاء بالمقدس، حيث تنتهي الرحلة وتبدأ رحلة أخرى. . .

أخبرونا بأن انطلاق السفن سوف يكون في اليوم التالي، لانتظارهم قوافل أخرى آتية من بعض المدن.

بعد أن وضعنا رحالنا في أحد الأنزال، أراد الميرزا محمد أن يستغل الوقت. فقد سمع أن في مدينة سورات فاضلًا نحريرًا يقال له: (خير الدين) من أعاظم علماء الأشاعرة، وكان دائمًا ما يتطرق لأمور عقائدية خلافية.

سأل الميرزا محمد عن مكان وجوده، فدلوه عليه. فحضر مجلسه، ووجده وهو جالس في حلقته يدرس، فإذا هو شيخ فانٍ، وبحر لا يُدرك ساحله، فكأنه أول ليس له ثان.

بقي الميرزا يستمع لحديثه. . حتى وصل إلى قول النبي ﷺ (جُعِلَت لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا)، فقال:

- ما رأيتُ طائفة أضعف دليلًا وأسخف رأيًا من الإمامية.

قالها الشيخ أثناء كلامه إلى ما التزمه الشيعة الإمامية من السجود على ألواح التراب. وطَفِق يقع فيهم.

لم يستطع الميرزا أن يتجاوز الأمر، فسأله:

- ما دلك على سخافة رأيهم وضعف دليلهم؟

انشدّت وجوه الحاضرين لهذا الشاب (الميرزا) وهو يسأل الشيخ الكبير، وتهامست بعض الأفواه، فقطع الشيخ هذا التهامس برده على السؤال:

- إنهم قوم يقولون بالأحكام العقلية، ويسمون أنفسهم بـ(العدلية) تشبهًا بالمعتزلة، ويقولون بحجية العقل، ومع ذلك يقدمون الروايات على الدرايات، ويقولون: إن الإمامة من المسائل الأصولية لا يجوز التعويل فيها إلا على القطعيات، ثم يستندون فيها إلى أخبار الآحاد التي غاية ما تفيده الظن بعد المجاهدات.
- أصلحك الله، بين لي موضع تقديمهم الرواية على الدراية، وأخذهم بالآحاد في الإمامة؟.
- إن كل من يُقر ويعلم أن رجلًا من قريش كان يُدعى (محمدًا) ادعى النبوة وأسس هذا الأساس، فمن أقر بنبوته من المسلمين أو لم يقر من الكفار والمليِّين؛ يعلم ويُقر أن الذي جلس بعده في مجلسه، وأجرى الحدود والأحكام، وبعث الجيوش والسرايا، وفعل كل ما يفعله الإمام هو الصديق أبو بكر ابن أبي قحافة، ولم يسل عليه أحد سيفًا، ولا أنكر عليه منكر يعرف إنكاره بالدراية. وهم يدعون أن النبي ﷺ نص على علي (كرم الله وجهه)، وقد غصب أبو بكر والصحابة حقه، ويتركون الدراية، ويرجحون الرواية، ويسيئون القول في الصحابة.

أجابه الميرزا:

- إنهم يتمسكون بأخبار يروونها من طرق أهل السنة والجماعة، متضمنة نص النبي على علي بالخلافة، وإنكاره على أبي بكر في غصب حقه.

قال الشيخ وهو مشيح برأسه عن الميرزا:

- إنها آحاد، لم يثبت تواترها على شروطنا المعتبرة فيها عندنا، مع معارضتها الدراية.

- لكنكم يا شيخ تُجوّزن التعبد بالآحاد، وتقولون بحجية الظن المستفاد.

قال الشيخ وفي صوته نبرة حادة:

- هيهات، إنا لا نقول بحجية الآحاد والاكتفاء بالظن إلا في المسائل الاجتهادية التي طريق العلم إليها مسدود، لأن الله لم يجعل عليها أدلة قاطعة، ولسنا نقول بحجية الآحاد عند تعارضها مع الدراية والبداهة، مع كون دلالة الألفاظ ظنية واحتمال دس الكذابين في كل فرد من الأخبار، واحتمال سهو الرواة وسوء فهمهم وتواطئهم على تعمد الكذب، لتخريب الدين، مع عدم بلوغهم حدًا يستحيل العقل تواطؤهم على الكذب.

بثبات وثقة لا يتخللها تردد، قال الميرزا:

- إن المصنفين ذكروا أن الأخبار الدالة على ذلك قد تجازوت حد التواتر المعنوي.

- ادعاؤهم التواتر، لا يستلزم ثبوت التواتر علي وعليك مع تنصيص بعض المحققين ـ كالعلامة الفيروزآبادي ـ على وضع أكثرها، وخلو صحيح البخاري ومسلم عن خبر الغدير، مع إجمال دلالته، مع موافقة جل تلك الأخبار لمذهب الرافضة الذين فشا منهم الوضع والدس، كالكليني وغيره، وكل هذه قرائن توهن الوثوق عليها عندنا كما هي معتبرة عندكم أيضًا، بالعكس في موافقة الأخبار ولمذاهبنا، وكون الرواة منهما عندكم بالتسنن.

- إننا لا نثبت الإمامة بالمنقول، بل نثبتها بالعقول، ونقول: على الله وعلى رسوله نصب الإمام، بمعنى تعيينه.

- قال الشيخ: الرئاسة المطلقة لسنا نناز‌عكم فيها، وقد كان

أبو بكر رئيسًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي إلى يومنا هذا.

- وجوب العصمة منعت إمامة من لا عصمة له، وكان أئمتكم غير معصومين بالاتفاق.
- ما الحاجة إلى العصمة؟

تجمدت الأصوات والحركة في القاعة، صمت متوتر، أصبح وجه الميرزا محورًا لكل الأنظار والانتباه، كأنهم ينتظرون مواصلة الحوار، بثبات وثقة قال الميرزا:

- من وجوه نذكر بعضها:

فمنها: الرئاسة للإصلاح ورفع الفساد والنزاع، وإحكام التوالف بين سكان الأصقاع؛ فلو كان الإمام غير معصوم ما أمن المكلف في طاعته من الفساد؛ ولانجر عنه الخطأ إلى المنازعات والمشاجرات الخطأ.

ومنها: أنه لم يصح من الحكيم أن يكلف الناس وهم جائزو الخطأ بأن يطيعوا من يجوز عليه الخطأ ولم يأمنوا في اتّباعه الخطأ وهو واحد مثلهم في الوصف المحوج إلى الرئاسة.

قاطعه الشيخ:

- هذا لا يضر على طريقتي؛ لأني لستُ أقول بحكم العقول على الله؛ ولا أوجب الحاجة إلى الرئيس لأجل الأمن من الخطأ؛ بل لأغراض أُخر مذكورة في محلها.

ومع ذلك ينتقض هذا الدليل على طريقتكم في وجوب طاعة المجتهد غير المعصوم، مع قولكم بالتخطئة وتجويزكم احتمال الخطأ في كل ما تقلدونه فيه، فإنه عين تجويز التعبد على الله بما لا يأمن المكلف الخطأ، فلو جاز هنا لم لا يجوز هناك؛ مع أن حكم العقل لا يخصص؟

- هذا من باب الاضطرار وأكل الميتة.

تجلت التجاعيد العميقة على جبين الشيخ، معبرة عن استيائه، فقال بامتعاض:

ـ هذه مغالطة في التمثيل؛ لأن تحريم الميتة وتحليلها أمر شرعي يخصص عقلًا وشرعًا إذا وجد المخصص، مع كونه في موضوع الأحكام التي لا يرجع قبحها إليه تعالى عند العدلية، ومنعكم من التعبد بما لا أمن فيه من الخطأ الموجب ـ لقولكم بلزوم العصمة ـ أمر عقلي لا يقبل التخصيص عقلًا ولا شرعًا، وبانتقاضه ينتقض أصل العصمة، وبانتقاض حكم العصمة ينتقض إمامة أئمتكم.

اعتدل الميرزا في جلسته ببطء، كأنه يبحث عن السكينة والهدوء في عالم مضطرب. رفع رأسه بكل جرأة، وأخذ ينظر إلى الحضور، ثم قال:

ـ يجب على الله عقلًا أن يحفظ في كل عصر وفي كل جزء من أجزاء زمان التكليف إمامًا معصومًا حافظًا للحق، نجتهد في الوصول إلى الحق الذي عنده حتى يحصل لنا الظن بالنسبة إليه.

قال الشيخ، وفي عينيه بريق من السخرية الخفية، كمن يعي الوضع بكل وضوح:

ـ مع عدم إمكان تناول الحق، لا فرق بين المحفوظ في اللوح المحفوظ أو عند الإمام المعصوم.

ابتسم الميرزا، مستهجنًا قول الشيخ، فرد عليه:

ـ احتجابه صار سببًا لعدم التناول وهو منكم.

انتاب الحضور رياح من الارتباك والتوتر، فالتقطوا هذا التصرف بكل انتباه، محاولين فهم الرموز الخفية وراء تلك

الإشارات المستهجنة. كلمات الطرفين كانت شرارات تشتعل في الهواء المحيط، تثير الفضول والترقب. قال الشيخ وكأنه يوجه كلامه للحضور:

- لا يجوز عند العدلية أن يكون أحد مانعًا للطف الله في حق الآخر.

ثم وجه نظراته إلى الميرزا وهو يقول: مع أن ظهوره فيما بينكم ما كان يرفع الخطأ عن أفهامكم أيضًا، لأن كل ما كان يلقيه الإمام هي أخبار مركبة من الألفاظ، والأفهام تختلف في فهم معناها، مع أنكم لا توجبون الأخذ عنه مشافهة في زمن حضور الأئمة، والرواة ليسوا معصومين في النقل، خصوصًا مع تعدد الوسائط ولو كانوا عدولًا.

قال الميرزا مستفهمًا:

- ذلك الخطأ لقصور منا في إدراك الحق أو تقصير في بذل الجهد؟.
- المقصر فاسق عندكم، والقاصر عن الشيء لا يصح من الحكيم على مذهب العدلية تكليفه يدرك ذلك شيء حتى يفرض أنه بذل الجهد وأخطأ القصور، لأن الخطأ بالنسبة إلى المكلف به. والغرض أن القاصر عن الشيء ليس مكلفًا به مع قصوره، ولا معنى للخطأ في شيء مع عدم التكليف به؛ فلا معنى لقولكم بالتخطئة وتصريحكم بخطأ فقهائكم في المسائل، ثم اعتذاركم بالقصور في صدور الخطأ.

ثم قال: إذا جاز على الله أن يرضى من عباده بطاعة المجتهد المخطئ منكم فيما يصيب ويخطئ، مع إمكان حصول المفسدة من الاختلاف والخروج عن الحق، ويرضى بالظن الحاصل للمجتهد في الأحكام عند الفتيا وللمقلد عند التقليد

مع اعتقاد كون الحق محفوظًا عند إمام معصوم غائب من تسع مئة سنة ـ تخمينًا ـ عن الأبصار، وكل ذلك مع عدم أمن المكلف فيما يُجتهد فيه أو يُقلّد عن الخطأ، فهلا جاز أن يرضى بتقليد مجتهدينا وعلمائنا كالأئمة الأربعة، والإمام الرازي، وحجة الإسلام الغزالي، والقاضي البيضاوي، والمحقق الدُّوَّانِي، والفاضل الزركشي، واجتهادهم مع تقدمهم في المقدمات والعقليات والنقليات والأخلاق، وعند التحقيق لا نسبة بين علمائنا ـ الذين تُجوّز عليهم الخطأ ـ مع قولنا بالتصويب في المجتَهَدَات وبين علمائكم ومجتهديكم في كل فن من الفنون إذا تأملتم حق التأمل في تصانيف الطريقتين واقتباس مجتهديكم من مجتهدينا ـ لاسيما في القواعد الأصولية وطريقة الاستنباط ـ فهذا تمهيد القواعد[1] ملخص القواعد العلائية من الشافعية، وتهذيب الأصول لعلامتكم الحلي، هو ملخص مختصر السؤول لعثمان بن عمر الحاجب، والمسالك في الخيالات العقلية، وضوابط الاستنباط مختصر كتاب العقيدة من الشافعية.

مع اعتقادنا كون الحق محفوظًا عند الله وفي اللوح المحفوظ وعند جبرئيل وفي القرآن وفي أفراد الأمة، بحيث لا ينال يقينًا بل ظنًا، وذلك لضرورة بقاء التكليف وانسداد باب العلم بانقطاع الوحي وإفادة الكتاب والسنة الظن بعد الاستفراغ في الوسع، فلا حاجة حينئذ إلى القول بوجوب إبقاء الإمام المعصوم على الله من هذه الجهة.

---

(1) هو كتاب للشهيد الثاني زين الدين العاملي (ت 966 هـ)، وهو ملخص من كتاب (التمهيد) في القواعد العربية وكتابه (الكوكب الدري) لعبد الرحيم الأسنوي (ت 772 هـ).

- إنه يحتاج إليه لحفظ العالم. قال الميرزا.
- إنه تعالى قادر على ذلك بدون ذلك.
- لحفظ الدين.
- والنبي ﷺ قد بلغ الرسالات وأظهر المعجزات، وألقى إلى الأمة ما كان مكلفًا به بالخصوص والتفصيل، وكلف العلماء بالاجتهاد في سائر الحوادث، وجعل تكليفهم فيها غاية ما يؤدي إليه اجتهادهم.

قال الميرزا، بصوت هادئ لكنه نافذ، يليق بمن عرف ما يقول:

- عندنا من لا يقول بانسداد العلم مع إبقاء الله التكليف فيما انسد الباب إليه، ويقول: يتوقف التكليف على التوقيف والإقدار وإزاحة العلة عقلًا، وهي تحصل بالبلوغ والعقل والاختيار والبيان. ويقول: إن خواص الشيعة والموالي يتشرفون بحضرة الإمام عليه السلام ويقتبسون من علمه، وليس الإمام محجوبًا ولا ممنوعًا عن إرشاد من يريد إرشاده من يأمن من شره، وممن يسترشد الحق، وأنه يُلقي الخلاف عندما يكاد تجتمع الطائفة على خلاف الحق، وأنه من وراء المجمعين والمتواترين الذين يجوز عليهم التعمد على الكذب، أو ترك نقل المتواتر، وعدم الإجماع على المجمع عليه، وأنه سبب قابل لإفاضة الرحمات الإلهية ونزولها إلى الدنيا، وأن المذهب الحق مع مشخصاته معلوم بالضرورة والبراهين القاطعة العقلية ونصوص الكتاب المحكم والسنة المتواترة، والأخبار المشاعة والمذاعة والمحفوفة بالقرائن القاطعة، وما ليس كذلك مما اختلف فيه أهل المذهب

لاختلافات الروايات، فالسبيل فيها التوقف في تعيين الحكم والاحتياط في العمل، وإلا فالتخيير.

كل ذلك بالبراهين القاطعة العقلية، لأن القرائن السندية تؤمننا من الخطأ في نسبة البيان إلى أصحاب العصمة، والدلائل العقلية تؤمننا من وقوع الاختلاف منهم في المطلوب البتّي القطعي التعييني المضيّق الفوري، وأما الاختلاف في المطلوب غير القطعي؛ فلا يتعلق التكليف برهانًا، وفي القطعي غير البتي، والبتي الكلي والترتيبي، والتخييري، والموسع، فليس بمستلزم للخروج عن الحق، ولا كون الحق في طرفين مختلفين، ولا كون المختلف مخطئًا.

لما وصلت المحاورة إلى هنا، علا صوت من بين الحظور، موجهًا كلامه إلى الميرزا محمد، قال معترضًا بقوله:

- ما تقول في المحل الذي لا يحصل العلم، ولا يمكن الاحتياط، ولا يمضي التوقف للضرورة إلى الفتيا؟

- هذا مشترك بين من ينفي الاجتهاد الظني وبين من يثبته، لأنه كثيرًا ما تتعارض الأدلة الاجتهادية الظنية. كما هو مشاهد في الكتب الفقهية ومن سيرة الفقهاء، فلا يحصل للمجتهد في المسألة ظن ويبقى الإشكال والتردد، فما كان قوله في حالة الحيرة والعجز عن الترجيح ـ مع الضرورة الداعية إلى العمل والحكم ـ هو قول نافي الاجتهاد الظني بعينه عند عدم حصول العلم من مظانه، مع قولهم بعدم التكليف فيما لا توقيف للقطع فيه.

- هذا قليل.

- إذا اعترفت بالإمكان والتحقق؛ فلا يجديك القلة، مع أن مداركم أكثر من مدارك النفاة، ويقع فيها التعارض أكثر من التعارض في الروايات مع أن المسلّمة من المحدثين يقولون

بالتخيير والتسليم فيما وصل إليهم من المكلّف ـ تعالى شأنه وقوامهم عليه السلام.

- كيف يعملون في أخبار التراجيح؟
- يقولون فيها بالتخيير أيضًا، فإنه يشملها بل يقولون إن الترجيح أدنى قبول إلى التسليم، لأن أدلته من الآيات المحكمات والأحاديث المخالفة الطريق جميع العامة، الموافقة للاحتياط للبعد عن الخطأ النظري في الاعتماد على الظن البشري، ولأن الترجيح فرع التسليم لهم، فالعمل بالتسليم يجمع العمل بالترجيح والتسليم معًا، لتحقق التسليم بالترجيح، والترجيح بالتسليم، ولا دور بعد التأمل، والعمل بالترجيح في غير التسليم مخالفة لطريقة الترجيح والتسليم معًا إذ هما متلازمان جدًا.
- كيف يفعلون في أخبار التقية مع عدم العلم بها؟.
- ما جوّز على الإمام الإفتاء بها جوز لهم العمل بها عند عدم العلم بخصوصها.

حين حان وقت الزوال، ارتفع صوت الأذان من مآذن سورات، كأنه يخترق ضجيج الأسواق والحركة الدؤوبة، ليغمر المدينة بسكينة روحية لا تشبه غيرها. كان الحضور في المجلس بين صمت عميق وهمسات غير مفهومة، كأن كل واحد منا غارق في تأملاته الخاصة، يراجع في داخله ما دار من نقاش في المجلس.

قمنا من مجلسنا بهدوء، وكأننا نسير في طيف من الروحانية، خطونا نحو مقر إقامتنا عبر أزقة المدينة العابقة برائحة البخور والمسك.

عند المساء، وخصوصًا بالقرب من البازار (السوق)، تصبح الشوارع مزدحمة بالناس والتجار بما في ذلك (التجار

البانيان)[1] حيث يبيعون بضائعهم فيه، ويوجد أيضًا عدد كبير من السكان الضيوف، خلال فترة الرياح الموسمية، فعندما كانت السفن تأتي وتذهب من الموانئ دون خطر، كان عدد سكان المدينة ينمو.

الحجاج من جميع البلدان الآسيوية الجنوبية حتى من دول آسيا الوسطى يقصدون الموانئ الهندية الواقعة على السواحل الغربية في (الگجرات) و(مالابار) و(السند) [كراتشي]، و(تهانه) [بومباي]، وكانت هذه المناطق الساحلية تستقبل سنويًا المسافرين من داخل الهند وخارجها من البلدان الآسيوية الجنوبية، ومنها كانوا يتوجهون إلى (جدة) مباشرة عبر بحر العرب ثم البحر الأحمر في السفن الشراعية.

في تلك الليلة، بقي الميرزا غارقًا في تأمل عميق، يفكر في ما جرى بينه وبينهم. لم يكن مجرد حديثٍ عابر أو لقاء عادي، بل كان يحمل في طياته دلالات، وإشارات لم يفك شفرتها بعد.

جلس في زاوية الغرفة، وقد تدلى رأسه قليلًا، كأنما يحمل على كتفيه ثقل الأفكار التي تتصارع داخله. كان يراجع تفاصيل الحوار، يربط بين الكلمات، ونبرات الصوت، وحتى النظرات المتبادلة. هل كان فيما سمع معنى أبعد مما بدا؟ هل فاته إدراك مقصدهم الحقيقي؟

كان كل من حوله منشغلًا بشؤون السفر، أما هو فكان مسافرًا بالفعل، لكن داخل ذاته، في رحلة لا تقل تعقيدًا عن الرحلة التي تنتظره عبر البحر.

---

(1) وهو اسم لإحدى الطبقات التجارية في الهند، اقترن تاريخها بالتجارة الخارجية، قدمت من كوجرات ونهر السند وجافا، واستقرت في مسقط وسيطرت على تجارتها الخارجية.

المحطة الرابعة

الحجاز (1198هـ/ 1783م)

عند الصباح الباكر، انطلقت الباخرة من ميناء (سوارت) في الربع الأول من سنة (1198هـ/ 1783م)، تحت أشعة الشمس الدافئة ومعزوفات الرياح البحرية، وبسلاسة فوق أمواج البحر الهادئ. الرحلة ساحرة، تأخذ المسافرين بعيدًا عن اليابسة، نحو عوالم جديدة ومغامرات لا تنسى. في هذا الوقت تغيرت الرياح الموسمية الصيفية. أغلب الرحلات تكون في هذا الوقت، لأن الرياح في موسم الأمطار تكون عنيفة بدرجة تجعل العودة في بحار الهند أمرًا صعبًا محفوفًا بالمخاطر والعقبات الكبيرة.

الرياح الموسمية هي التي تتحكم في الرحلات، والملاحون يفهمون دور الرياح الموسمية في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر. الساحل الغربي للهند غير صالح للملاحة بين الحين والآخر في المدة الممتدة عمومًا بين حزيران وأيلول.

وقد سمعنا أحد البحارة يقول: إن الذي يغادر الهند في بداية آذار، رجل عاقل، والذي يغادرها في العشرين منه، يزداد احتمال الخطر عليه، أما الذي يغادرها في النهاية منه فهو رجل يفتقر إلى الخبرة، وهو مقامر جهول.

البحارة يعتمدون التقويم الشمسي، في حركة السفن، يقارنونه بالشهر القمري في رحلاتهم إلى الحج ليكون توقيتًا صحيحًا للوصول إلى مكة في أوائل شهر ذي الحجة.

والتجار أيضًا يعتمدون على الرحلات الناجحة، لأن السفن إذا وصلت بعد انتهاء الحج فإن البضائع لا بد أن تبقى هناك عامًا كاملًا. وهذا يعني أن الناقل يعاني خسارة الرحلة، مثل ما حصل فعلًا في إحدى الرحلات.

ومع ذلك، فإن التجار المسافرين من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر، جعلوا لهم وكلاء دائمين مقيمين بجدة، يخزنون البضائع. ولتفادي التحكم المطلق للرياح الموسمية، فلا يملك الحجاج المسافرون بالبحر أي خيار سوى الخضوع لمواسم الإبحار، فمن يصل بعد فوات أوان الحج يكن عليه انتظار موسم الحج المقبل مدة تمتد إلى أحد عشر شهرًا.

على متن الباخرة، تجمعت الأرواح المغامرة والأحلام المتحققة. كل مسافر يحمل قصة خاصة، وكل قلب ينبض بالحماسة والترقب لما سيأتي. الباخرة تعدت حدود الزمان والمكان، محملة بالحكايات والأمل والروح الاستكشافية. تلاقت الألسن وتبادلت الضحكات والقصص، وتعانقت الأرواح والقلوب، تعالت أصوات الناس، على السطح العلوي للسفينة، يتناثر الضوء الذهبي للشمس على وجوههم، مشعًا بالسعادة والحياة. وتغمر الروح بالسلام والجمال، إنها رحلة تجعلهم يشعرون بأنهم جزء من هذا العالم الواسع والمذهل.

ترتفع الأمواج حول الباخرة وتهمس لها بأسرار البحار العميقة. تمتزج رائحة الملح برائحة الهواء النقي، والهدوء الساحر يسرق الأنفاس. يشعر المرء بالحرية والاندماج مع هذا الكون البحري الساحر.

في كل غروب للشمس، تزداد الروعة والجمال. تتلون السماء بألوان الغروب، تعكسها المياه الهادئة كمرآة سحرية.

وبينما تغرب الشمس، تظهر نجوم الليل المتلألئة وتعزف سمفونية السكون والسحر.

والميرزا محمد يتأمل الآفاق بعينين تمزجان بين لوني السماء والبحر. تتلاطم أفكاره كأمواج متلاطمة في بحر الوجدان، تسحبه إلى أعماق لا يُدركها سوى البحارة الذين عانوا أمواجها.

- أراك تستغرق في الفكر، تطيل النظر إلى البحر، قلت له.
- نعم، البحر يثير العديد من الأفكار والتأملات. يبدو أن جماله وهدوءه يشجعان الإنسان على التفكير بعمق، ويجلب السكينة والهدوء للروح.
- وما هي الأفكار التي تدور في رأسك؟
- شغلني الحوار بيني وبين الشيخ الأشعري، لقد أمعنت النظر في ما قال، وأرى أن الأدلة النقلية لا توجب القطع على الخصم في الإمامة، مع تعلق الشيخ بما يتعلق به الاجتهاديون القائلون بالانسداد في تزييف الأخبار وتضعيفها، والأدلة العقلية القائمة على العصمة ووجوب الرئاسة لرفع الفساد ينتقض مع القول بتجويز التعبد بالاجتهاد الظني. وأنا متحير في الأمر الموصل إلى إلزام الخصم مع عدم الالتزام بمثله، مع يقيني بأحقية الإمامية من باب آخر.

لم أعرف ماذا أجيبه، فخيم علي الصمت المطبق، والميرزا محمد يبدو وكأنه يستمع إلى لغة الرياح وهمسات الأمواج، يبدو وكأن فكره يعانق السماء، ويطير بين النجوم والسحب.

بعد أيام من الرحلة، ظهرت على الأفق البعيد جزيرة (سُقُطْرَى) الواقعة على المحيط الهندي بالقرب من خليج

عدن، وهي جزيرة آهلة بالسكان، ومنها تتزود السفن بالماء العذب عند الحاجة، وأحيانًا يحمل سكان الجزيرة الماء العذب إلى السفن في قوارب كبيرة. وهي مشتهرة بإنتاج الند وهو صنف من أصناف البخور، وبالصبر السوقطري كأجود أنواع الصبر.

سمعت من البحارة أن هذه الجزيرة تسمى بجزيرة (السلع المقدسة). حضارات العالم القديم كانت تسمي الأرض التي تنتج البخور والمر والصبر واللبان ومختلف الطيب، السلع المقدسة، وتنظر إليها نظرة تقديس. وسميت عند قدماء اليونان والرومان بجزيرة السعادة، وبسبب صعوبة الوصول إليها في الماضي نسج حولها عدد من القصص والأساطير. ويقال إن الكثير من أنواع النباتات وأنواع الزواحف والحلزونيات البرية والطيور الموجودة فيها غير موجودة في أي مناطق أخرى من العالم.

في هذه الأيام سكنت الرياح تمامًا، وصمت البحر، واحتبست الحركة، السفينة عالقة بين الماء والسماء، ترقد فوق الموج بلا حراك، لا تتقدم ولا تتأخر. يومين أو أكثر بقينا في رتابة مقلقة، حيث لم يكن في الأفق سوى امتداد البحر الرتيب، والسكون الذي يبعث على التوتر.

الماء العذب، ذاك العنصر البسيط الذي لم يكن يثير اهتمام أحد في بداية الرحلة، أخذ ثمنه بالارتفاع حتى صار المسافرون يتبادلون النظرات بقلق وهم يشترون ثمانية أكواز بروبية واحدة، كأنهم يدفعون مهرًا لشيء لا يملكون خيارًا في رفضه.

وصار الجميع يترقب السماء، يبحثون عن أي إشارة من الرياح، عن أي حركة في الأشرعة، كأنهم يتضرعون إلى الطبيعة أن تستجيب لمحنهم، وكما لو أن البحر قد استجاب لتضرعات المسافرين وقلقهم الصامت، هبت الرياح من جديد،

وانطلقت السفينة مجددًا تحت أشرعة امتلأت بالحياة، وسط صيحات البحارة وفرحة الركاب. لكن فرحتهم لم تدم طويلًا، ففي اليوم التالي، خمدت الرياح من جديد، وعاد البحر إلى جموده المريب.

في خمسة أيام ثقيلة، قطعت السفينة ما كان ينبغي لها أن تقطعه في يوم واحد فقط، وكأنها تقاوم مصيرها، أو كأن البحر نفسه يتلاعب بها، يمنحها الأمل ثم يسحبه في لحظة، كأنه يختبر صبر ركابها ويقيس مدى احتمالهم. ليدركوا أن لا شيء يسير وفق رغبات البشر دائمًا.

وصلنا إلى ميناء (مخا)، أقدم الموانئ في اليمن، وكان على السفن التجارية أن تتوقف فيه، أتت القوافل من سيناء ومكة والقاهرة والإسكندرية، ومن بقاع أخرى كثيرة. للاتجار مع تجار الهند فيه. ميناء (مخا) هو المنافس لميناء جدة، والسبب ربما يعود إلى التوسع في استخدام السفن الكبيرة التي يخشى عليها من أخطار التوغل في البحر الأحمر، فصارت ترسو في مخا.

يقول البحارة، إن المتاجرة كانت قبل ذلك في ميناء عدن، مع التجار القادمين من (مليبار)[1] الذين يجلبون معهم الأدوية والتوابل والبسباسة، (تابل يعمل من قشرة جوز الطيب المجفف)، وجوز الطيب والقرنفل والزنجبيل والقرفة. ومع أن وزنها خفيف فإنها تشكل قيمة جيدة. ومع القادمين من شرق

---

(1) منطقة مليبار أو (مالابار)، هي منطقة في جنوب الهند، تقع بين غاتس الغربية وبحر العرب. وهي تقع الآن وسط ولاية كرالا. وتشمل الأقاليم الأربعة وهي: مالابرم وكاليكوت وترشور وبالاكاد.

أفريقيا الذين يجلبون معهم الذهب والعاج، ومن (كِنْبَاية)[1] الأقمشة وبضائع أخرى ثمينة، ومن هرمز، وغيرها من المدن.. لأن ميناء مخا أكثر أمنًا من ميناء عدن.

بعض المسافرين فضلوا النزول من السفينة في (مخا) بعد معاناتهم من قلة الماء العذب، ومن العواصف التي كادت تطيح السفينة. نزلوا في مخا، للتفرج عليها، مخا مدينة صغيرة محاطة بالأسوار، ومعظم بيوتها مكونة من ثلاثة طوابق أو أربعة، وعامة الناس فيها على مذهب الزيدية.

هناك طريقان للسفر بحرًا من مخا إلى جدة، الطريق الأول: هو طريق البحر الكبير، الذي يكون مياهه عميقة وهي وسط البحر، ويستغرق هذا الطريق ما بين سبعة أو ثمانية أيام، إذا كانت الرياح مواتية، وإلا اضطرت السفن إلى العودة من حيث أقلعت.

والطريق الثاني: هو طريق البحر الصغير، المتصل بساحل اليمن والموازي له، والمياه فيه ليست عميقة، وهو محفوف بمخاطر الصخور الموجودة على مقربة من سطح الماء، التي ترتطم بها السفن أحيانًا فتتحطم، ويستغرق هذا الطريق خمسة عشر أو ستة عشر يومًا، ولا يخشى فيه أن تعود السفن من حيث أقلعت، ذلك لأنها تبحر نهارًا، ثم تتوقف في أحد الموانئ إذا ما جنَّ الليل، وإذا صارت الرياح غير مواتية بقيت في مرساها،

(1) كمبات، وتعرف باسم خمبات، كانت في الماضي مركزًا تجاريًا هامًا، إلا أن ميناءها طُمِر تدريجًا بالطمي، وتحولت التجارة عنها. اشتهرت بمصانع الحرير والمشغولات الذهبية. وقد زار الرحالة العربي المسعودي المدينة التي أسماها (كنباية) في عام (915م)، ووصفها كميناء رائج.

وإذا احتاج المسافرون إلى الماء اشتروه من أهل القرى الموجودة على الساحل، كما أن الركاب يمكن أن ينزلوا من السفينة في أي وقت شاءوا، ويكملوا رحلتهم بالطريق البري، إلا أن مخاطر هذا الطريق كثيرة وعديدة، لهذا لا يُفضّل هذا الطريق إلا في ظروف خاصة، ولا يستطيع ربابنة السفن الهنود المجازفة بالمضي بالسفينة من هذا الطريق، لأنهم لا يعرفون موضع الخطر، ومواقع الصخور التي قد تواجه سفنهم، فهم في العادة يستعينون بربابنة بحر العرب لقيادة سفنهم حتى (جدة). وقد أبحرت سفينتنا من (مخا) مساءً.

اقتربت سفينتنا من (جبل الذكر) وسبب تسميته بجبل الذكر، يقال إنه كثيرًا ما تضطر السفن إلى التوقف قبالة هذا الجبل، في انتظار أن تهب الرياح، فيلجأ المسافرون على ظهر السفينة إلى الذكر والدعاء، ويتوسلون إليه بسيد الأبرار. هبت الرياح بما لا تشتهي السفن؛ وهكذا لم تتحرك سفينتنا إلى الأمام قيد قدم واحدة، وكاد ماء الشرب ومخزون الطعام ينفدان، ووصلت الحال بنا إلى الرضا بجرعة ماء أو جرعتين في اليوم والليلة، وبلغت القلوب الحناجر، وعم اليأس قلوب المسافرين، لدرجة أن بعضهم بدأ يشرب ماء البحر المالح، مما أصابهم بالألم والوجع حتى إذا ضقنا ذرعًا، هبت ريح طيبة، ونجّانا الله من تلك المهلكة، فقد عادت سفينة صغيرة من مدينة (الحديدة)، فحملت إلينا الماء العذب من الساحل، فارتوى المسافرون. إلى أن وصلت باخرتنا إلى مدينة (الحديدة) بعد عشرين يومًا.

أعمال الملاحين وواجباتهم من عجائب السفر بالبحر، فهم يقومون بأعمال وحركات يصعب على البهلوان أن يأتي بها، وقد رأيت القبطان يأمرهم بالصعود أعلى عمود الشراع، وهو في غاية الارتفاع، فيصعد هؤلاء بواسطة الحبال، في أصعب

الظروف، فيفتحون الشراع حينًا، ويطوونه حينًا، ويقومون بهذه الأعمال بشكل سريع جدًا، وبطريقة محكمة لا تحتمل الخطأ، تثير إعجاب المشاهدين ودهشتهم، ويرددون كلما قاموا بعمل ما، لا سيما عندما يرفعون المرساة، عبارات وجملًا ينطقونها بلهجة ونغمة خاصة، وهي بمجملها قريبة من العبارات العربية التي تتضمن أدعية وأذكارًا، يترنمون بها بأسلوب خاص، يثير مشاعر السامعين، ويؤثر في القلوب.

انطلقت البواخر، لإكمال رحلتها، الجزء الأكثر أمنًا هو من مدخل مضيق باب المندب إلى جزيرة (كمران)، أما الأسوأ فهو من كمران إلى جدة.

وصلنا جزيرة (كمران) بعد سبعة أيام، والجزيرة بعيدة عن ساحل اليمن، تقع في منتصف الطريق بين (الحديدة) و(اللحية)، قالوا إنها كانت ميناءً عامرًا من قبل، لكنها الآن خربة، وصارت اللحية ميناءً بدلًا عنها، ترسو فيه السفن.

في جزيرة كمران مسجد كبير لكنه آيل للسقوط، وقلعة صغيرة، تابعة لحاكم اللحية، الأكواخ فيها متباعدة، وبعيدة عن القلعة، فيها حدائق من نخيل، وآبار ماء عذبة، يشتري أصحاب السفن ما يحتاجون إليه من ماء عذب، يكفيهم في رحلتهم حتى وصولهم إلى جدة، ويعيش السكان هنا على هذه الآبار، وهم يحملون الماء إلى السفن، وليس في أرضهم عشب ولا كلأ، وليس لديهم حيوانات ولا زراعة، أما الحبوب وضروريات الحياة فيأتون بها بالسفن من اليمن، أو يشترونها من أصحاب السفن. مقابل تزويد السفن بالملح الكمراني، تقع مناجم هذا الملح بالقرب من ساحل البحر في المنطقة المقابلة لجزيرة كمران.

نزلنا هناك من أجل تنظيف الملابس والاستحمام والحصول

على الماء العذب، فرأينا من أحوال معيشتهم ما يثير الحزن في القلوب، وتذكرت نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على بلادنا : إذ فتح فيها أبوابًا من النعم الوفيرة. سأل الميرزا محمد رجلًا منهم :

- كيف هي معيشتكم هنا؟
- أليس فيما من الله به علينا من ماء عذب، وأسماك طازجة، وقليل من نخيل ما نعيش عليه؟!

فتذكرت حكمة اللطيف الخبير، وتدبير الرزاق القدير، إذ أخرج لعباده من هذا البحر ماء عذبًا، حتى ينتفع به أصحاب السفن، ثم أسكنه جماعة من الناس كي يحملوا هذا الماء إليهم، فأتم بهذا التدبير المحكم حاجة الفريقين، فسبحان الله.

بالقرب من هذه الجزيرة يوجد الكثير من اللؤلؤ والمرجان، ويقولون إن موسم صيدها يكون في شهور الصيف الأربعة، إلا أن بعض الناس يقولون إن لؤلؤ البصرة أجود من اللؤلؤ المستخرج من هنا.

أحببت كمران حبًا جمًا، وتمنيت لو أقمت فيها، فلا توجد عزلة أفضل من العزلة هنا، لكن هدفي المنشود ليس كمران، بل إنه في ما بعد كمران. .

رجعنا إلى السفينة، هبت رياح مضادة، مما جعل السفينة لا تتحرك إلا مسافة قصيرة، كما أنها لم تتمكن من التوقف إلا في أماكن معينة، خشية تحطم مرساة السفينة من شدة الرياح وتلاطم الأمواج العاتية، وإذا حدث هذا لا قدر الله، فستدفع العواصف السفينة للوراء كما تشاء، لهذا فضل القبطان أن نكون بالقرب من الموانئ، حيث تكون الأمواج هادئة فلا تصاب السفينة بمكروه لا تحمد عقباه.

بعد أربعة أيام من الإبحار، هبت ريح عاصفة، وعلت

الأمواج حتى صارت كالجبال، وأخذت تتلاعب بالسفينة، تحركها يمينًا وشمالًا، أخذت السفينة تدور حول نفسها، مما أفقد معظم الركاب صوابهم، اختلت حواسهم، أصيبوا بالدوار والقيء، تمامًا مثلما حدث لهم في أول أيام الرحلة، اضطرت السفينة إلى أن ترسو في اليوم التالي على ساحل جزيرة (مرسا)، حملتنا قوارب صغيرة إلى تلك الجزيرة في آخر النهار، والجزيرة ما هي إلا جبل يتميز بانحداره الشديد، وهو غير مرتفع. توجد منطقة منبسطة تنبت فيها أشجار، يشبه ورقها ورق الأثل، رأينا فيها أحجارًا مختلفة الألوان، خلابة المنظر، كما لاحظنا وجود مقابر كثيرة، وقد استرحنا في الجزيرة إلى الغروب، ثم رجعنا إلى السفينة بعد الإفطار.

أبحرت السفينة، لكنها لم تتقدم قدمًا واحدة بسبب هبوب الرياح المعاكسة، ووصولها إلى مكان الجزيرة، فعادت السفينة من حيث أتت منذ يومين فقضينا هناك يومًا، وهكذا خسرنا مسيرة يومين.

إلى أن هدأت الرياح المعاكسة، وبدأت الباخرة بالإبحار، وصلت البواخر إلى ميناء جدة، ورست على بعد عدة أمتار من اليابسة، فقد كان قبطان الباخرة شديد الحرص، وهو دون أدنى شك لا يريد زيادة العدد من السفن الجانحة على الشاطئ وحطام السفن المنكوبة.

الأرصفة المرجانية الموازية للشاطئ، طافية على وجه الماء بشكل صخور متعرجة، هذا ما يشكل خطرًا دائمًا بالنسبة للسفن، ومع أن بحارة البحر الأحمر معروفون بمهارتهم، إلا أن من الواضح أن الاحتياط دائمًا واجب. فإن ميناء جدة صعب الرسو جدًا لامتلائه بالصخور والرمال، ما يجعل السفن ترسو

على بعد ميلين منه، وتستعمل القوارب والسفن الصغيرة لإيصال البضائع إلى الميناء. ففي جدة دائمًا تجارة عظيمة في الأوقات التي تسمح فيها الرياح الموسمية للسفن بالوصول إليها من الجنوب والشمال. وأكثر سفن الهند تصل إلى جدة.

حين وصلت الباخرة إلى الميناء، انتقل المسافرون منها مع بضائعهم بالقوارب ليصلوا إلى اليابسة. الهواء شديد، والمركب الذي يستخدم للنقل من الباخرة إلى اليابسة من نوع قديم وتالف، يرتفع تارة بقوة بين الصخور المرجانية وتصطدم مؤخرته تارة أخرى بقاع البحر. قام البحارة بالتجديف بعصي كبيرة، فاندفع المركب بصعوبة هائلة بعد أن كاد يغرق.

نزل المسافرون من المركب، وأمست هناك جلبة وصياح عال جدًا من قبل الركاب والمسافرين الآخرين الذي وصلوا قبل الباخرة.

جدة مشيدة على شاطئ البحر، في وادٍ رملي منخفض، لا أثر فيه لأية تلة أو اعوجاج في الأرض، شديد الحرارة وقاحل. ميناؤها كئيب وحالته يرثى لها، لا توجد فيه أي خضرة يمكن لها أن تنهد هذا المنظر الكئيب الحزين.. الأرصفة مزدحمة بالبضائع القادمة من كل مكان، صف لا ينتهي من القوارب مسحوبة على الشاطئ، بسبب انخفاض مستوى البحر، ومنحنية بشكل حزين على أوتادها، أشرعتها الممزقة تتدلى برخاوة على الصواري.

جدة هي المركز التجاري العظيم في البحر الأحمر، ونقطة الارتكاز لكل تجارة، ومركز الطاقة الروحية التي يلهمها العامل الديني.. ليس لأنها مرسى مناسب، بل لأن نقل البضائع بين السفن فيها ضرورة.

عند مدخل المدينة توجد بعض الشجيرات الشوكية، يحيط

بالمدينة سور يحميها من هجمات قبائل البدو، إلا أنه سور مهدم ومليء بالثغرات. شوارع جدة عشوائية، المنازل مبنية بشكل متين، مشيدة من الحجر الملاط بالآجر، ومزينة بمشربيات [شناشيل] جميلة، من الخشب المنقوش والمزخرف. أسقفها وأسطحها رديئة غير محكمة، مسقوفة بجريد النخل فوق عوارض خشبية، مغطاة بطبقة من الطين، وهو لا يمنع من تسرب المياه من الأسقف، وكثيرًا ما تنبت الأعشاب على مثل هذه السطوح عقب هطول الأمطار. المطبخ والحمام يكونان داخل البيت، ومبنيين من الحجارة أيضًا، أما بقية أجزاء البيت الخارجي فهي من الطين.

الإبل والخيل والبغال والحمير، وسيلة النقل الوحيدة، وأجرتها ليست ثابتة، فهي تتغير من شخص إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، فأجرة الشقدف، خمسة ريالات، ويتكون من السرج الخشبي المحشو بسعف النخيل، حتى يمكنه حمل اثنين من الحجاج على ظهره، وهو للنساء غالبًا. أما البغال الضخمة القوية فأجرة الواحد منها سبعة ريالات، والصغيرة منها خمسة ريالات، وأجرة الحمار القوي ستة ريالات، والصغير ثلاثة ريالات. وأجرة الخيل خمسة ريالات. وأجرة هذه الدواب تختلف بحسب جودتها، ورداءتها.

وتتميز الحمير بسرعة سيرها والهدوء في وقع خطاها، لكن جلالها رديئة جدًا، فالبردعة من الخشب المكسو بالجلد، واللجام والركاب من الحبال المفتولة.

وأكثر الناس تفضل ركوب الجمال، ويحبون مشيتها المهدهدة وهيئتها الخاملة. الجمل المطية الأساسية لهذه البلاد المقفرة والقاحلة، فهو مثير للسخرية ومقاوم، تصرفاته مضحكة،

لا يتوقف سواء كان مثقلًا بالأحمال أم لا، ويمشي دائمًا دون أكل أو شرب، إنه حيوان مناسب للظروف المحيطة فقد خلق خصوصًا للصحراء.

أمر السيد عبد النبي أن نستأجر شقدفين.

- ما هو اسمك؟ سأل الميرزا عبد النبي سائس الجمال.
- راشد، أجاب الفتى. وهذه الناقة هي أم بروشه (وهو اسم الناقة).

قديمًا كان العرب يطلقون كنى شهيرة على بعض الحيوانات، بحيث يذكرون اسم الحيوان بكنيته، أو يذكرون كنيته دون ذكر اسمه. إلا أنهم الآن يسمونها بأسماء وكنى شعبية.

صعدت زوجة الميرزا عبد النبي والخادمة الشقدف الأول، والميرزا محمد وزوجته الشقدف الآخر. قاد راشد الناقة من رسنها. ثم أخذ يجذب الرسن إلى أسفل وهو يقول: (خر، خر) فسقطت على ركبتيها. ثم مالت إلى الوراء، وبعد أن ركزت قدميها الخلفيتين تحتها، رقدت على رجليها الأماميتين ثم زحزحت ركبتيها إلى الأمام حتى ركزت نفسها براحة على الأرض. عندئذ ربط راشد إحدى رجليها الأماميتين بطرف رسنها ليمنعها من النهوض. امتطينا أنا والميرزا عبد النبي النوق.

رفع راشد سرج ناقة أخرى، وهو على شكل لوحة خشبية مزدوجة ركزت عليها سعف النخل، حزمه بشدة على ظهر الناقة. وبعد تركيبه حول سنام الناقة، وصله بخيوط معقدة، وبعد هذا وضع غطاء وطوى بساطًا فوقه، ثم وضع الأمتعة الخاصة بالعائلة. شد الحبل عليها فتماسكت بحزم.

تحميل الناقة عمل صاخب، لأن أكثرها تزمجر إذا اقترب المرء منها، وخصوصًا عندما توضع الأحمال على ظهورها.

لم يكن هذا ضروريًا دائمًا، لأن النوق كانت مدربة على هذا، إلا أن أعرابيًا قربنا كان يلاقي صعوبات كثيرة مع ناقة صغيرة، قامت على رجليها بعد أن أرقدها، وحتى بعد ربط ركبتيها حاولت النهوض، وأخذت تتحرك؛ وقد أخذت تهدر وتلفظ الحشيش الأخضر نصف المعلوك على قميصه. فصرخ فيها بغضب. وظهرت كأنها ستقضم رأسه في أية لحظة. إن إناث الجمال بصورة عامة لطيفة، أما الجمال الذكور فإنها تعض، وعلى الأخص عندما تهيج وتسبب إصابات بالغة.

ركبنا عند الغروب، وبدأ المسير من جدة صوب مكة. وبدأ مسير القافلة، كان على كل واحد من سائسي النوق أن يقود ناقته أو يربطها من رسنها إلى ذنب الناقة التي أمامها. وما أن وصلنا إلى السهول المعشوشبة حتى تركوا الجمال تأكل ما تجد من الأعشاب في طريقها.

إن البدو لا يزعجون أنفسهم في إناخة الجمال كي تركع لهم ليتسلقوها، إنهم يحنون رؤوسها ويضعون رجلًا على رقبتها حيث يصبح السرج في متناول أيديهم. وعندما يريد البدوي ركوب الناقة الرابضة، يقف وراء ذنبها. ثم ينحني إلى الأمام ويمسك الوتد الخشبي بيده اليسرى، بينما يضع ركبته اليسرى على السرج، وعندما تشعر الناقة بثقله تبدأ بالنهوض حالًا، رافعة قائمتيها الخلفيتين عن الأرض، ثم تنهض الناقة على ركبتيها، وبهزة أخرى تكون على قوائمها. وفي هذه الحال يعتمدون كليًا الاستواء على ظهر الناقة على التوازن، لأن الركوب على جمل رابض، خصوصًا فوق أرض خشنة، يشبه الجلوس على حصان.

وصلنا إلى بلدة (حدة)، وهي مكان على الطريق يتوقف فيه

الحجاج قبل الدخول إلى مكة للاستراحة، والتزود بالماء، ثم استأنفنا الرحلة إلى مكة. وقد قضينا هذا اليوم في حدة، لأننا نسينا أن نجلب معنا (الهدي) من جدة لذبحه في مكة، فأرسل الميرزا عبد النبي أحد الخدم لجلبها، واضطررنا للانتظار في حدة وأن نستريح في نزل من العريش، وهي غرفة مربعة الشكل مصنوعة من سعف النخل، فتحات التهوية في جدرانها، ليسري النسيم إلى داخلها، يقيم جميع الحجاج في هذه العرائش، وفيها أقسام مخصصة للأشراف والنبلاء مفروشة بحصيف كالسجاد مستديرة الشكل يجلس عليها الناس.

بعد أن جلب الخادم الهدي، غادرنا حدة، ووصلنا إلى وادي (ذي طُوَى)، سمي الوادي بذلك لاشتماله على بئر مطوية ومبنية بالحجارة، وهو المكان الذي بات فيه رسول الله ﷺ ليلة الفتح، وفيه بني مسجد في مكان خيمة النبي[1] والحجاج يغتسلون من البئر قبل دخولهم مكة.

وصلنا مكة عند غروب الشمس، بعد ثلاثة أيام من المسير، وهي مقفرة قاحلة، يندر وجود الأشجار فيها، تكتنفها الجبال والهضاب العالية من جميع الجهات، إلى مسير أربعة أيام، وتضيق الطرق التي بين الجبال حتى لا تتسع إلا لمرور ثلاثة جمال أو أربعة مجتمعة، وتتسع في مكان آخر فيمكن أن يعبر ما بين خمسة وعشرة من الجمال في وقت واحد. لا توجد بحيرات أو جداول في ضواحي مكة، فقط ينابيع قليلة يغتسل فيها المسافرون مقابل أجرة يتسلمها البدو. القربة الواحدة من الماء تباع بنصف قرش.

اجتزنا البوابة المؤلفة من عمودين يشبهان أعمدة بوابة

---

(1) أزيل في توسعة الشارع في حدود عام (1410هـ).

مزرعة، ويبتعد الواحد عن الآخر بضعة أمتار. قيل إن هنا آخر حد للصيد، فبعد قطع هذه المنطقة يحرم قتل حيوان مفترس أو حتى قتل طائر مهما يكن نوعه. ومع طلوع الشمس يمكن رؤية أسراب لا تحصى من طيور الحجل، ومستعمرات كاملة من عندليب الصحراء، تتنقل أمام الحجاج دون أن تطير، فقد اعتادت الناس الذين أصبحوا غير مؤذين بالنسبة لها، ثم أحاطت بهم مجموعة طائرة من الحمام وكأنها غيوم. قدم لها بعض الحجاج الذرة والسمسم، تقف عند قوائم الدواب بشكل أليف جدًا. حتى خشي عليها أن تسحق بالأقدام رغمًا عنهم.

فجأة عند مفترق طريق، دخلنا إلى المدينة المقدسة، لا شيء يجعلك تتوقع مدى قربها فهي تختبئ بين جبلين متقاربين جدًا، داخل وادٍ ضيق يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، حتى نصل إلى المسجد الحرام وهو في أخفض مكان في المدينة وكأنه بيضة وسط عش.

هناك شارع رئيسي واحد يقطعها وفيه بعض التعرجات، ثم تأتي الشوارع الفرعية لتلتحم به بشكل إجباري في معظمها.

شرع البدو بتنزيل أمتعة الحجاج المسافرين من على ظهور الجمال، فتبعثرت بعض الأمتعة، وفقد الكثير منها، كما سرق الكثير منها.

ذهبنا لاستئجار منزل لنقيم فيه. منازل مكة كمنازل جدة، مبنية بطريقة متينة من الحجر والملاط، مدعومة بعوارض من الخشب داخل الجدران، مصممة بطابقين أو ثلاثة، مزينة بمشربيات من الخشب الهندي. وتصميمها غير محكم، لأنهم يجعلون غرف الجلوس وغرف النوم ملاصقة للمطابخ والمرافق العامة للبيت، فيدخل الدخان المنبعث من المطبخ إلى غرفة

الجلوس، وفي الغرف سجاد وأرائِك جميلة، وتكثر الأواني النحاسية في بيوت مكة.

تبنى البيوت على التلال، فتكسو التلال من أسفلها إلى أعلاها، ولا يوجد في البيوت ساحات أو أفنية، وبعض البيوت لا أبواب لها. والتي لها أبواب لا توجد فيها أقفال أو مشابك أو مزلاج لقفلها، فقط قطعة خشبية على هيئة صليب تستخدم كقفل.

البيوت محاطة بحواف من القرميد، منسقة بشكل مربعات، ولها مشابك مما يسمح بمرور الهواء دون أن ينكشف المرء على جاره. في الليل ينامون على شرفات المنازل. ومن عاداتهم ترك الفوانيس مشتغلة طوال الليل، في الشوارع والجوامع والبيوت. الوقود الذي يستخدمونه عبارة عن روث الجمال الجاف، والقليل من الخشب، ونوع رديء من الفحم يصنع من نبات السَّنا البري، وهو يحترق بسرعة كبيرة مخلفًا وراءه رمادًا أبيض دقيقًا جدًا.

رأينا أثناء الطريق أسرابًا من الجراد منتشرة على التلال في أعداد هائلة غطت الأماكن التي نزلنا بها، وكان البدو يجمعونها في سلالهم ليأكلوها. كما أن الأحراش في مكة كثيفة موحشة، وهي موطن للكثير من الزواحف السامة مثل العقارب والحيات.

يربي أهل مكة الإبل على نطاق واسع، أما البقر والعجول والماعز والأغنام فمتوافرة فيها كما هي في الهند، إلا أن الأغنام هي الأكثر، وخيولها نجيبة غالية.

واد قفر، غير ذي زرع، كل ما فيه هضاب ومرتفعات صخرية، لا ترى فيه العين شجرة مثمرة، أو شجرة ظليلة، ومع هذا ترى أسواق هذا الوادي معلومة بالرزق، والخيرات الكثيرة، فيها فواكه من جميع الأنواع والأقسام، ولا سيما العنب والرمان، والسفرجل والبطيخ، وهي موجودة بوفرة في كل وقت

وزمان، وهذا ثمرة دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه قائلًا: وارزقهم من الثمرات، وهذه الفواكه تأتي من الطائف ومن مناطق أخرى، وقد ذكر لي أحد التجار أثناء تجوالنا: بأن سوق مكة دخله مائة وخمسة وسبعون حمل بعير من البطيخ، وقد بيع البطيخ كله قبل حلول المساء ولم يبق منه شي.

الفاكهة تأتيهم من اليمن ومن مسقط، كما تجلب من الطائف وبعض مناطق الحجاز، بينما يستورد القمح والأرز من مصر والهند بالسفن، وكانت أسعار الحبوب هذه السنة رخيصة جدًا. ويقول أهل مكة: إنهم لم يشهدوا منذ عدة أعوام انخفاضًا في أسعار الحبوب مثلما شهدوا هذا العام: إذ كان ثمن تسعة أكيال من القمح ريالًا واحدًا، وهذا يعني أن تسعة سير [وزن أقل من الكيلو بقليل] قمح بمكيال الهند ثمنها روبية واحدة، والبضائع الأخرى والقماش بأنواعه والأواني والمجوهرات وغير ذلك متوافر بكثرة في كل مكان، كما أن العبيد والجواري الحبشيات يباعون في سوق النخاسة.

للبدو لهجة قاسية، بشرتهم محروقة بشكل كامل بفعل الشمس، يلبسون قميصًا يشدونه بواسطة حزام، ويحملون (الجنبية) وهي خنجر ذو نصل مقوس للغاية، لا يستغنون عنه. مثبت في العسيب وهو غمد الجنبية، مصنوع من الخشب الخفيف، ومغلف بجلد، وخيوط الخيزران، في منتصف الحزام. حيث يتم لف الحزام على الخصر.

يلبسون أيضًا (المشلح) عباءة واسعة جدًا وبلا أكمام، ويضعون على رؤوسهم وشاحًا من الحرير الملون المصنوع في دمشق أو في بغداد، ويثبت على الرأس بواسطة العقال، بحيث يصبح شكله كالتاج، وهو نوع من الحبال المجدولة نصفها من

الحرير الأسود والنصف الآخر ذهبي اللون، متناوبة مع بعضها بشكل العصي. الجميع يرتدي هذا اللباس على الطريقة التقليدية، فقراء وأغنياء.

في صباح اليوم الرابع من ذي الحجة، احتشدت الجموع الغفيرة من الحجيج، مهرولين وزاحفين، حثيثي الخطى، القلوب تنبض بشغف وحماسة لمشاهدة موكب مهيب ظهرت أولى نوقه في الأفق، قافلة الحج المصري أضخم قافلة للحج وأوفرها نظامًا، وفي مقدمهما المحمل الشريف، كلما اقتربت القافلة، زاد تلألؤ الأمل في عيون الحاضرين والقادمين. ومع كل خطوة يقتربون بها، تنعكس البسمات والدعوات على وجوه الناس، تصدح أصواتهم بالتكبيرات والتلبيات.

المحمل، إطار مربع من الخشب، في زوايا القمم الأربع قبب من الفضة مطلية بالذهب، قمة المحمل هرمية مغطاة بستار من الديباج الأسود، عليه كتابة وزخارف مطرزة بالذهب، في بعض الأجزاء منه مكتوب (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وهو على أرضية من الحرير الأخضر في بعض الأجزاء، وتحده حواش من الحرير محاطة بأجراس من الفضة، والناس يتبركون بالمحمل وبلمس الكسوة ويقبلون شراشيبها.

داخل المحمل مصحفان صغيران داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقان في القمة، إضافة إلى الكسوة الشريفة، المحمل موضوع على جمل ضخم يسمى (جمل المحامل) ويتمتع هذا الجمل بإعفائه من الأعمال الشاقة بقية أيام السنة.

وللمحمل بيرق، مصنوع من القماش المزركش، على وجهيه آيات قرآنية، وله شرابة مدلاة بخيط مزخرف من أعلى الصاري.

رأس الجمل حامل الهودج مزين بالعقود الملونة، تسير خلفه

الجمال التي تحمل المياه وأمتعة الحجاج، وخلفه الجند الذين يحرسون الموكب حتى الحجاز، ومن ورائهم رجال يدقون الطبل ويرفعون الرايات.

بعد الحج يعود المحمل حاملًا الكسوة القديمة للكعبة بعد إبدالها بالجديدة، أو تعطى للسدنة الذين يخدمون البيت، ثم تقطع قطعًا بحجم قطعة الورق، وتوزع على النبلاء والأمراء وعامة الناس، ليحتفظوا بها كذكرى مقدسة. يقولون إذا وضعت تحت رأس المسلم في فراش موته كان ذلك كفارة له عن جميع ذنوبه.

في اليوم نفسه وصلت القوافل البرية الأخرى، القافلة المغربية تضم الحجاج القادمين من سائر بلاد المغرب، تمر بأرض مصر في طريقها إلى الحجاز. القافلة الثانية هي قافلة الشام التي تضم الحجاج القادمين من تركيا والأناضول وأرض كنعان، والقافلة الثالثة هي قافلة الهند التي تنطلق من جزر الهند الشرقية. وكل هذه القوافل تتوقف في المدن لينضم إليها الحجاج.

في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة نزلنا حدود منى عند المغرب، وأقمنا الصلاة فيها، رغب الميرزا بالبقاء فيها حتى صلاة الفجر ثم نغادر، لكن المطوفين لم يوافقوا على ذلك، إلا إن الميرزا صمم على القيام في منى، ثم توجهنا إلى عرفات في نهاية الليل، ووصلنا قبل طلوع الشمس، المطوفون يترددون دائمًا إلى الحجاج ولم يكن الحج نفسه هدفهم، بل هدفهم هو جمع المال فقط ولهذا لا يحفلون كثيرًا بالسنن والمستحبات.

بدأ الحجيج يمتطون الجمال للخروج من عرفات، الآلاف من الجمال تغادر عرفات في وقت واحد، مع ازدحام المشاة، وأصواتهم ترتفع: (لبيك اللهم لبيك)، أصحاب الجمال من

البدو يصيحون (الطريق. . الطريق)، أثارت القوافل الغبار في الطريق، منظر ساحر لا يتمتع به إلا الذي رآه بنفسه.

معظم الحجاج يتركون سنة المبيت بمنى، ويذهبون إلى عرفات في هذا اليوم، وكنا من بين القليلين الذين بقوا هذه الليلة في مسجد الخيف، ثم انطلقنا إلى عرفة في الصباح. وبعد أن صلينا صلاة الظهر والعصر جمعًا توجهنا إلى جبل الرحمة. يتراءى للناظر جمع غفير من الناس، منهم الشاب، ومنهم الشيخ العجوز، ومنهم الرجال، ومنهم النساء، منهم الغني ومنهم الفقير، بأعداد غفيرة، وقفوا جميعًا في عرفات خاشعة قلوبهم، دامعة عيونهم، مرفوعة أيديهم إلى السماء. ألسنتهم تلهج بالذكر والدعاء، كان هذا أمرًا عظيمًا. وقد خيل إلي أن هذا مثال حي على وقوف الناس بين يدي الله يوم القيامة، كما أن الإفاضة من هذا الموقف إلى بيت الله الحرام تشبه عودة المؤمنين من موقف الحشر إلى دار السلام.

أقمنا في عرفات إلى ما بعد غروب الشمس، وصلينا المغرب والعشاء، وقد وصلنا إلى منى وقت الضحى يوم النحر وقمنا بالطواف حول الكعبة بعد رمي الجمرات، وقضينا النفث، ووفينا النذور.

بعد الطواف دخلنا الكعبة المشرفة، وكان هذا الدخول بطريقة خاصة، ذلك لأن حامل مفتاح الكعبة ـ وهو من بني شيبة ـ يفتح باب الكعبة المشرفة في هذا اليوم، ويسمح لبعض الناس بالدخول بعد أن يتسلم منهم حق المفتاح، ورجعنا إلى منى بعد أن صلينا الظهر في المسجد الحرام، وفي يوم النفر الأول ـ أي في الثاني عشر من ذي الحجة ـ غادرنا منى، وصلينا العصر في (المحصب). وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ، وهو

الآن مسجد، قيل إن فناءه هو محل نزول النبي ﷺ، ويسن للحاج النزول به والتوقف عنده، إلا أننا صلينا المغرب والعشاء في المسجد الحرام.

ثم أدينا العمرة والطواف نيابة عن بعض من سألنا الدعاء والزيارة، من الأقارب والأصدقاء والمحبين.

الحجاج العائدون من عرفات ومنى، يأخذون حمامًا سريعًا عند (عين زبيدة) وهو حوض سباحة مستطيل الشكل، محفور وسط واد ضيق عند حافة الطريق، والحجاج في أشد الحاجة لذلك، بعد أيام قاسية مروا بها، إلا أن هذه المياه مضرة خصوصًا في أوقات الأوبئة، لأن سباحة هذا الجم الغفير في هذا الحوض يسبب أخطارًا مرعبة.

الحرم المكي محاط بأروقة بحذاء جداره الخارجي، تعرف بالمدرسة، يستأجرها الحجاج للعجزة والمرضى والنساء، ليستطيعوا أداء الصلوات جماعة في وقتها، ويطوفوا حول البيت الحرام بعدما يفرغون من الصلاة جماعة ويخف الزحام. وتحمي الحجاج من حرارة النهار القاسية. ويستغلها التجار أيضًا بعد الموسم لبيع بضائعهم تحتها.

أرضية الحرم جميلة مرصوفة بالرخام حول الكعبة تنخفض عن مستوى الفناء المربع الكبير بنحو ثمانية إنشات وضعت سنة (981هـ/ 1573م) بأمر من السلطان ولها شكل بيضوي غير منتظم، أحيطت بعدد اثنين وثلاثين عمودًا ذهبيًا رفيعًا، بين كل اثنين منها علقت سبعة مصابيح زجاجية تضاء دائمًا بعد الغروب، ووراء الأعمدة أرضية مرصوفة أخرى يبلغ عرضها نحو ثماني خطوات وقد ارتفعت عن الأولى نوعًا ما، لكنها ذات صنعة أسوأ، إضافة إلى واحدة أخرى أعلى بستة إنشات ويبلغ عرضها

ثماني عشرة خطوة، تقف عليها عدة أبنية قديمة صغيرة، وخلفها أرض مفروشة بالحصباء، بحيث أن درجتين عريضتين قد تؤديان من الفناء المربع نزولًا إلى الكعبة المشرفة، أما الأبنية الصغيرة المذكورة آنفًا والتي تحيط بالكعبة فهي المقامات الخمسة مع بئر زمزم والقنطرة المدعوة بباب السلام والمنبر.

توجد أربعة أبنية قبالة الجهات الأربع للكعبة الشريفة يقف عليها أئمة المذاهب الدينية الإسلامية، الحنفية وهو الأكبر حجمًا حيث يبلغ طوله خمس عشرة خطوة وعرضه ثماني خطوات، وهو مفتوح من الجهات كلها ويدعمه اثنا عشر عمودًا صغيرًا وله طابق علوي مفتوح ويتخذ فيه المؤذن موقعه. والشافعية فوق بئر زمزم ويعد لها كغرفة علوية، والحنبلية قبالة الحجر الأسود وكان عبارة عن مقصورة صغيرة مفتوحة من الجهات كلها وتدعمها أربعة أعمدة رفيعة مع سقف مائل خفيف ينتهي في نقطة تمامًا بنمط بناء (الباغودة) الهندي، المالكية ومقامهم في الجنوب، يؤمون الحشود في الصلاة.

يهرع إلى الصلاة عشرون ألف مسلم، ويجلس أتباع المذاهب الأربعة المختلفة للصلاة قرب مقاماتهم، وأول من يقيم ويصلي أهل المذهب الشافعي، وحين يفرغون من الصلاة يقيم ويصلي الأحناف، ثم المالكية ثم الحنابلة، إلا في صلاة المغرب، فيصلونها في وقت واحد لضيق وقتها، كل مذهب بإمامهم.

وهناك مقام للشيعة يسمى بالمقام الزيدي، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

في المقام الحنبلي يجلس فيه ضباط الحكومة وكبار الشخصيات خلال تلاوة الأدعية، وفي غيابهم يجلس (خصيان الحرم) يملأ هؤلاء المساحة تحت هذا المقام في الجهة

المقابلة، ووراءه تحدد أماكن النساء اللواتي يأتين إليه بشكل أساسي لصلاتي المغرب والعشاء.

حينما يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، يقيم مؤذّنو سائر الأئمة. فيدخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة، لاجتماع التكبير فيها من كل جهة. فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي، أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه. فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو، فتتداخل الأصوات ويحدث من السهو واللغط على كثير من الناس شيء كثير.

أنكر بعض علماء المسلمين هذه المقامات المحدثة، لأنها تفرق جماعة المسلمين، وإظهارهم وكأنهم أهل ملل شتى. سألت أحدهم عن تاريخ هذه المقامات، فقيل لي:

- جرى العمل بنظام هذه المصليات في المسجد الحرام منذ القرن السادس الهجري في عهد أحد الخلفاء العباسيين، ولم يكن هناك سوى جماعة واحدة في الحرم، وكان الكل يقتدي بإمام واحد، وبعد ظهور هذه المصليات وتعدد الجماعات، كانوا يقدمون جماعة المالكية لصلاة المغرب أيضًا، كما كانوا يقدمونها لصلاة الظهر والعصر والعشاء؛ وذلك نظرًا لضيق وقت صلاة المغرب عند المالكية، ونظرًا لأن تأخير الصلاة عن أول وقتها يقع إثمه على المصلي. وهذا في المذهب المالكي بتحقيق العلماء.

ولما جاء القرن التاسع الهجري، طلب سلطان ذلك الزمان من جماعة المالكية الاكتفاء بتقديم إقامتهم في الصلوات الثلاث، على أن يقدم الأحناف إقامتهم لصلاة المغرب، فأوقف علماء المالكية انفراد جماعتهم بصلاة المغرب، وبدأوا يصلونها

مع جماعة الأحناف، ذلك لأن وقت صلاة المغرب لا يستمر حتى تفرغ جماعة الحنفية والشافعية من الصلاة.

قلت له باستغراب:

- كيف يجوز أن يظهروا بهذا القدر من الاختلاف في ركن إسلامهم وعمود دينهم، وفي موطن هو أحب البلاد إلى الله، ومهوى أفئدة المسلمين وقبلتهم، وعنوان اجتماعهم! مع أن كثيرًا من العلماء أفتوا بعدم جواز ذلك.

صدق أبو الأسود الدؤلي حينما قال:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا
وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عَمَدٌ
وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ

كان بإمكان الميرزا محمد أن يتحدث، أن يعترض، أن يناقش بحججه، لكنه اختار الصمت. لم يكن صمته ضعفًا ولا عجزًا، بل كان موقفًا أعمق من الكلام. لقد رأى في أعين هؤلاء العلماء يقينًا راسخًا بأفعالهم، وقرأ في نبرات أصواتهم ثقة لا تتزعزع. أدرك أن الجدال معهم لن يكون أكثر من صدى يتردد بين جدران قناعاتهم. كان يعلم أن بعض المعارك لا تُخاض بالكلمات. وربما، في قرارة نفسه، أراد أن يفهم أكثر، أن يراقب كيف تمضي الأمور دون أن يتدخل. ففي كثير من الأحيان، يكون الصمت أبلغ من كل خطاب، والتأمل أعمق من كل نقاش. وحين علم بما دار بيني وبين من سألت قال:

قال الله سبحانه: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 197].

كلمات بعض المصلين تأتي بصوت مجموع، وكأنه صفير مدهش يهتز طويلًا ويتوهج بخشوع. جميع الجباه تلمس الأرض تضرعًا وخشية لله، وتتوالى الركعات والركوعات حتى تنتهي بالسلام الأخير المفضي إلى نهاية العبادة. وأنت قريب من الكعبة فكأنك أقرب ما تكون إلى الله.

الأصوات تتوافق مرة بنغم واحد، ومرة أخرى تكون متعاقبة، حتى أنه كان يتخللها بكاء حقيقي، إنهم يبكون في هدوء السماء. لحن متناغم وعذب. . الأفق مغلق بشكل شبه تام بالجبال التي تحاصر المدينة، وتنزل دعائمها بصورة تبدو وكأن الذهب يسيل منها على الأحجار الصهباء غير المصقولة التي تحيط به.

عدد كبير من المؤمنين يطوفون حول الكعبة، بأرجلهم العارية على البلاط الرخامي بمنتهى الأدب وكأنهم أشباح بيضاء.

قبلنا الحجر الأسود، المرفوع على علو شخص، ضمن إطار فضي بيضوي الشكل قطره (ثمانون سم) تقريبًا، لم نشعر ببرودته كما هو حال الرخام، تفوح منه رائحة العنبر، وتشعر بطعم حجر البارود، يقال إنه نيزك، ويعتقد البعض أنه حجر صوان.



بعد انتهاء مراسم الحج، أقيم السوق الكبير، بعد أداء فريضة الحج، بالقرب من المسجد الحرام، من عشرة إلى اثني عشر يومًا، وهو عبارة عن أكشاك صغيرة وليست متاجر ثابتة. فبعضهم يتاجر لتغطية نفقاته، والبعض الآخر يشتري بضائع لبيعها في بلاده حين عودته، ومن كل هذا ينتج خليط سوق موسمي كبير. . فيه كل شيء، من الدقيق إلى العقيق. . ومن البر إلى الدر. إلى غير ذلك من السلع المتنوعة.

فيه مقادير كبيرة من الحجارة الكريمة للخواتم والعقود من اليمن، والأقمشة والمسك من الصين، وأشياء كثيرة غريبة وطريفة. أوزانهم غريبة جدًا حبات فول، سبائك صغيرة من الرصاص، نوى تمر، قطع صغيرة من العنبر، يعلم وزنها جيدًا على الأرجح.

ذهبنا نتجول في السوق أنا والميرزا محمد، اشترى الميرزا من أحد الباعة عمامة وقفطانًا وحزامًا، وخشب الورد وزيت الصندل والمسك.

ثم رأينا سوق النخاسة، وهو عامر في مكة، والمعروض فيه من الرجال والنساء من مختلف البلدان، ويكثر في السوق الرقيق الأفارقة، يأتون إلى مكة في قوافل الحج، يجمعون في (الدَّكَّة) في السوق ويعرضون للبيع، فيختار النخاسون من يعجبهم منهم، ويأخذونهم بعد دفع أثمانهم وتسلم الصكوك من الباعة، فيشتريهم أهل مكة ويبيعونهم للحجاج، ويستمر هذا السوق يومين كل سنة، ويتملك سكان مكة بعضًا من هذه الجواري، ثم يبيعونهن فيما بعد، إن أرادوا بيعهن، بإرسالهن إلى المشتري من دون عرضهن على دكة في سوق النخاسة.

النبلاء والشرفاء يشترون الرقيق الأفارقة والجورجيين، ويرسلونهم إلى المشاعر المقدسة، للخدمة فيها، فيزاولون أعمالًا مختلفة من التنظيف والكنس وإنارة المصابيح وما إلى ذلك من الأعمال التي تحتاجها المشاعر.

وأما غيرهم من العبيد فيستخدمونهم للأعمال الخاصة، ويستخدمونهم في مزاولة الأعمال الوضيعة في البيوت، مثل كنس البيوت، وغسل الملابس وجلب الماء، وحمل الأثقال، وتقديم الطعام، ويعطونهم مقابل ذلك ملابس تكفيهم سنة،

وطعامًا مرتين كل يوم. وقد يستبدلون بآخرين مرة كل سنة، إلا أنهم لا يبيعون الجواري اللاتي قد أنجبن منهم.

نظرنا إلى الرقيق والعبيد والجواري، وفي عيون كل واحد منهم تتجلى قصص تحمل حزنًا وألمًا، رقيق تنحني ظهورهم تحت وطأة العبودية، حياتهم محدودة بالأوامر والخدمة المطلقة، والسعادة المفقودة.. حرية أحلامهم تختفي بين يديهم المغلقتين، تحولت أمنياتهم الساطعة إلى أشلاء من الأماني المحطمة. ولكنهم صامدون، متمسكون ببقايا كرامتهم المهدورة، في انتظار لحظة تحريرهم من قيود العبودية وظلم الحياة التي مزقت أحلامهم وتعثرت على عقبات الظلم والاستغلال.

النشاط الاقتصادي في مكة، يتمحور حول التجارة المهمة، خصوصًا في موسم الحج، في المؤن والبضائع الأخرى المرتبطة بالحج واحتياجات الحجيج. لكن ما يلفت النظر أن التجارة التي تكون فيها مكة سوقًا أو مركزًا لنقلها، مقارنة بمجمل التجارة في الشرق الأوسط وتجارة الحجاز تكون ضئيلة جدًا في المدن والموانئ مثل جدة. وما يسمى (بسوق الحج) ما هو إلا سوق لسد احتياجات الحجاج. ومكة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على جدة، وليس العكس، فمكة لم تكن موقعًا يجعل منها مركزًا تجاريًا، مع أن الاعتقاد السائد منذ صدر الإسلام أن مكة كانت مركزًا تجاريًا مهمًا، وهي لا تقع في أي مسار مباشر أو خط من خطوط التجارة والاتصال المباشرة بالأقطار المجاورة التي يصل إليها الناس عن طريق البحر. وطبيعتها لا تساعد لتكون مركزًا تجاريًا، ووقعها في قلب الصحراء الجرداء يمنع سكانها من العمل في تربية الحيوانات أو ممارسة الرعي، لأنها في واد غير ذي زرع، وتعاني ندرة كبيرة في المياه. وهي تعتمد غالبًا على الأغذية المستوردة

التي تصل من مناطق نائية مثل القاهرة عبر جدة، ومن أنحاء الجزيرة العربية والهند. وضعفها ليس في الغذاء فقط، بل يشمل حتى أخشاب (التيك) التي تستعمل في ترميم المسجد الحرام تجلب من الهند، والحديد عن طريق مصر. وإرسال الأغذية إلى مكة والمدينة هو ضرب من العبادة والتقرب إلى الله.. فسكان مكة يعتمدون اعتمادًا كليًا في كسب العيش على الحج كل عام، وعلى ما يحصلون عليه في أثناء موسم الحج، حيث تدب الحياة في المدينة، وتحمل التجارة بالدواب، ويتحول نصف سكانها إلى مضيفين وتجار وحمالين وخدم.. وقد سمعنا قولًا عندهم (لا نزرع قمحًا ولا دخنًا، الحجاج هم محاصيلنا). (الحج خبز الحجاز). ولولا وجود بيت الله فيها لهجرها سكانها لا محالة. لأنها لا تنتج شيئًا.

الصناعة الوحيدة المحلية التي يعرفها أهل مكة هي إخراج الماء من بئر زمزم، يشرب منه الحجاج ويغتسلون، ويحملون منه إلى أوطانهم في عبوات صغيرة من النحاس الأصفر أو الصفيح.

قرر الميرزا عبد النبي وولده الميرزا محمد الذهاب إلى (مقبرة المعلاة)، تقع في بداية طريق جبل الحجون، على السفح منه، وهي مقبرة أهل مكة، سميت المعلاة بهذا الاسم لأنها تقع في أعلى مكة، وهي في الموقع القديم نفسه الذي كانت عليه في الجاهلية والإسلام، عرفت أيضًا بمقبرة بني هاشم، ومقبرة أبي طالب. تقع إلى الشمال الشرقي من مكة على مفترق الطرق المؤدي إلى كل من المسجد الحرام وجبل الحجون، تضم مقبرة المعلاة أماكن مجهزة لتغسيل وتكفين الموتى، عادة ما يحمل الموتى إلى مقبرة المعلاة بعد الصلاة عليهم بالمسجد الحرام، ليحمل المصلون الجنازة إلى مقبرة المعلاة لدفنها، المسافة بين

المسجد الحرام وبينها قريبة نسبيًا. ضمت المقبرة رفات الكثير من الشخصيات أشهرها: عبد المطلب، أبو طالب، السيدة خديجة، والقاسم ابن رسول الله، كما ضمت رفات أول شهيدين في الإسلام ياسر وسمية؛ ومن هنا حظيت هذه المقبرة - بعد مقبرة البقيع - باهتمام المسلمين وجموع الحجاج الوافدين على الديار المقدسة وخصوصًا الشيعة منهم، حيث تعتبر عندهم أحد الأماكن التي يؤمها الزائرون منهم.

أبرز معلم فيها هو قبر أم المؤمنين خديجة، يعلوه قبة شاهقة - يقال إنه على طريقة العمارة المصرية - يعلو القبر من الداخل صندوق خشبي، مغطى بقماش مخملي مطرز.

زرنا هذه المقابر وقت مرورنا بها، ويحيط بالمقبرة سور قديم مبني بالحجارة، وبه أيضًا جملة قباب قيل لنا: إنها على مقابر عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم أجداد النبي ﷺ وكذلك قبة على قبر عمه أبي طالب(1).

وتمثل الميرزا محمد بما قاله عمرو الجرهمي:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر
فأخرجنا منها المليك بقدرة
كذلك يا للناس تجري المقادر

---

(1) مع سيطرة الحركة الوهابية على مكة وقيام الدولة السعودية الأولى؛ تم هدم جميع المباني والقباب في مقبرة المعلاة يوم الأربعاء (29 ربيع الثاني 1218هـ)، وتم تسوية قبور هذه المقبرة بالأرض.

فصرنا أحاديثا وكنا بغبطة
كذلك عضتنا السنون الغوابر
وبدّلنا كعب بها دار غربة
بها الذئب يعوي والعدو المكاشر
فسحت دموع العين تجري لبلدة
بها حرم أمن وفيها المشاعر

عزمنا بعد ذلك على زيارة المدينة، قوافل الحجاج تغادر من مكة، للتوجه إلى المدينة، وتجتمع في (وادي فاطمة)، وتتجه في مجموعات صغيرة، لشح المياه إلى (وادي صفراء)، وهو وادٍ كثير النخل والزرع، وينزل كثير من الحجاج في (رابغ)، يومًا وليلة، لتوافر المياه فيها.

ثم تتجمع القوافل من جديد في وادي صفراء، ولا تقطع سوى مرحلتين فقط، فلا تتعدى بئر (سُوَارق) خشية البدو، ثم تسير القوافل من بئر سوارق في مجموعات صغيرة نحو المدينة المنورة التي لا تبعد سوى مسيرة يوم واحد، وبعض القوافل الأخرى ترجع إلى جدة، ثم يسافرون منها إلى (ينبع) في مركب عبر البحر.

تسير القوافل إحدى وعشرين ساعة، وترتاح ثلاث ساعات كل يوم، فتصل إلى المدينة في اثني عشر يومًا، والماء نادر في هذا الطريق، والبدو وحدهم من يعرفون الطريق في الصحراء، ويعلمون أين توجد الآبار. يمر الطريق إلى المدينة عبر تلال كثيرة قاحلة، لا شجر فيها، وينهب البدو كل ما مع الحجاج ولا يردون إليهم إلا ما لا يرغبون فيه، وقد يأخذون حتى ماء القافلة المحمول على الإبل.

من عادة الناس أنهم يركبون ظهر راحلتهم عند المساء، ولا

ينزلون عنها طوال الليل، وقد ينزلون عنها قبيل طلوع الصباح أو بعد طلوع الشمس، ويتوقف الأمر على وقت الوصول إلى مكان الماء؛ وذلك لأن السفر في النهار شاق، وقد يؤدي إلى الهلاك بسبب ريح السموم.

الجمال تمشي بنفسها دون أن يمسك أحد بزمامها، ويمنع أصحابها المشاة من التقدم عليها، بحجة أن هذا ينسي الجمال الطريق، فإذا وصلت إلى المنزل الذي اعتادته توقفت. ثم بركت؛ وهكذا تفعل الإبل التي تليها.

حين نزلنا للراحة، كانت ملامح الميرزا عبد النبي شاحبة على غير عادته، وعيناه اللتان طالما أشرقتا بحكمة الأب ووقار العالم، بدتا مثقلتين بشيء ما. كان يسير بخطى متباطئة، كأنه يحمل على كتفيه أكثر من مجرد متاع السفر.

- أبي، هل أنت بخير؟ سأل الميرزا محمد بصوت تملؤه الحيرة والقلق.

توقف الميرزا عبد النبي برهة، ثم استند إلى عصاه، وزفر نفسًا عميقًا، كأنه يريد أن يطرد من صدره عبئًا خفيًا. نظر إلى ابنه بعينين غارقتين في تأمل بعيد، ثم قال بصوت هادئ لكنه مثقل بالألم:

- يا بني، السفر إلى بيت الله أمر عظيم، والرحلة متعبة وشاقة..

تأمل الميرزا محمد وجه والده، محاولًا أن يقرأ ما وراء كلماته. هل كان التعب فقط؟ أم أن هناك شيئًا آخر يخفيه؟ تحسس الميرزا محمد يد والده، فوجدها دافئة على غير العادة، امتدت يده إلى جبينه، فشعر بحرارة خفيفة تسري في جسده.

تسارعت نبضاته وهو ينظر إلى وجه والده، الذي كان يحاول أن يخفي تعبه بابتسامة واهنة.

- «أبي، أنت محموم! منذ متى وأنت تشعر بذلك؟ لماذا لم تخبرني؟» قالها الميرزا محمد بقلق، وعيناه تمتلئان بالخوف.

أدار الميرزا عبد النبي وجهه نحو الأفق، متأملًا الرمال الممتدة بلا نهاية، كأنه يبحث عن إجابة بين ذراتها المتطايرة. ثم قال بصوت هادئ لكنه متعب:

- لا تقلق يا بني، إنها وعكة خفيفة، ربما لأن جسدي بدأ يشعر بتعب السفر.

لم يقتنع الميرزا محمد بكلماته، فرغم محاولاته التظاهر بالقوة، كان الوهن واضحًا في صوته ونظراته.

- يجب أن نستريح، لا يمكننا الاستمرار وأنت على هذه الحال.

لكن والده هز رأسه ببطء، وكأنه يرفض أن يكون مرضه سببًا في تأخير المسير فأجابه:

- لا يا بني، لن أسمح للحمى أن تكون عائقًا بيني وبين الحج... سنواصل المسير.

بقينا نسير متجاورين معه. إلى أن وصلنا إلى المدينة، وهي محاطة بسور[1]، له عدة أبواب، تحيط بالمسجد النبوي (بقيع الغرقد) وهي المقبرة الرئيسة لأهل المدينة منذ عهد النبي ﷺ.

مضينا إلى المسجد النبوي، مسجد الصفاء والسكينة، يعبق

---

(1) هدم السور وأزيلت بقاياه في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين.

برائحة التاريخ والتقوى. طغت القبة الخضراء الفاتنة على الأفق، تنبثق منها أشعة الشمس الذهبية لتغمر الساحة الواسعة في السحر.

في صحن المسجد حُجرة بسيطة مكعبة الشكل، لها قبة بيضاء كبيرة بشكل أقرب إلى النصف دائرة تتخلله عدة فتحات صغيرة للإنارة، تسمى (قبة الزيت)، باب الحجرة يفتح إلى الشرق لخزن أدوات المسجد والشمع والزيت، وله فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري. وأمام الحجرة أسطوانة قد رُسمت في أعلاها بلاطة، لمعرفة أوقات الظهر والعصر في جميع أيام العام[1].

الأعمدة البيضاء المزينة بزخارف فنية معقدة بأناقة نحو السماء، وعلى السجادة الخضراء صفوف ملتفة حول المصطفى ﷺ. كل قلب معطاء في هذا المكان يعبق بالشوق للقرب من النبي، والروحانية تنبثق من الصلوات والأذكار التي تتراقص في الهواء.

أُعلن بدء صلاة المغرب، والجموع تتجه نحو الصفوف المكتظة. يتلاحم الصوت مع أصوات المؤمنين، والدعاء يرتفع كالسحاب نحو العرش. ينبض المسجد بالحياة والروح، وتتجلى أمام العيون الصورة الباهرة للحضور النبوي.

تتراقص الأنوار على الأقواس المزينة بالعقيق الأحمر، في كل ركن، تحكي قصة الحضور والدعاء. وفي النهاية، تتجمع الأرواح وتلتقي في هذا المكان السماوي الذي يجمع بين البشر والسماء، حيث ينساب الإيمان كنهرٍ هادر في قلوب المسلمين.

---

(1) أزيلت الخزينة أو القبة من صحن المسجد النبوي، في عمارة السلطان (عبد المجيد خان) سنة (1294هـ/ 1877م).

رجع الميرزا محمد إلى مسكنه مع أبيه، في أعماق الليل الساكن، تحت ظلام الغيوم المتدلية بحجمها المتفاوت، صار السيد عبد النبي يتصارع مع ألمه، اشتدت الحمى، تنفسه غير منتظم، مصحوب بألم في الصدر، وسعال شديد. رافقته هذه الآلام في أيامه الأخيرة، تلك الأيام التي كانت رحلة داخل أغوار المرض، حيث الأمل واليأس يتداخلان كأمواج البحر الهادر. عيناه، اللتان كانتا في يوم من الأيام تشعان بالحيوية والعزم، الآن ترقبان اللحظة الأخيرة بسكون مريب. كان يتنفس بصعوبة، كل نفس هو معركة أخيرة في مساره الحي.

حاول الميرزا عبد النبي أن يخفي أوجاعه وسط الابتسامة التي لا تفارق وجهه، ينظر إلى ابنه. وظهر كل تفاصيل وجهه الذي بدا شاحبًا.

مسك بيده بقوة، تحدثا عن بعض الأمور، تبادلا الضحكات، وقصصًا عن الأماكن التي سيزورانها. كان الوقت يمضي يتردد في الانصراف ويتيح لهما قطعة صغيرة من السعادة.

جلبنا أحد الأطباء لمعالجته، أعطاه بعض الأعشاب لتهدئته، حين خروج الطبيب سألته عن حال الميرزا عبد النبي، فأجابني:

- لا يبدو أن هناك علاجًا قادرًا على إنقاذه!

تغيّرت حالة الميرزا، بدأ السعال يزيد والهمسات الخفية لا تكفي لإخفاء التعب. كانت تلك اللحظات الهادئة مليئة بالحزن والقلق، الميرزا محمد يراقب تغيرات والده يومًا بعد يوم، عرف أن الوداع قريب.

بات السيد عبد النبي يتصارع مع مرضه، كل حركة في جسده كانت تشهد على معركة شرسة. اشتدت الحمى كالنيران تلتهم

جسده، تحوّلت نفسه الهادرة إلى عاصفة محطمة، حيث أمسى كل نفس يتنفسه معركة ضد الزمن والموت. تنفسه أصبح غير منتظم، يختل بين السريع والبطيء كصرخة صامتة تتحدى الحياة. وكل لحظة كانت مصحوبة بآلام في الصدر يتسلل إلى داخله كالسيف الحاد، كما لو كانت كل نبضة تحاول إيقاف عقارب الزمن. السعال الشديد يجتاح رئتيه مصحوبًا بالدم.

كانت عيناه تشعان بالحنان والفخر لابنه، ولكن الألم لم يكن يخفى عليه، الميرزا محمد بجانبه، يمسك بيده ويشعر بالضياع. كلمات الوداع لم تستخرج من فيهيهما، لكن النظرات كانت تقول كل شيء.

شعر الميرزا عبد النبي بقبضة تضم يده بلطف. نظر إلى جانبه ورأى ابنه الشاب يمسك يده بقوة، كأنه يحاول نقل القوة والراحة لوالده في تلك اللحظة الأخيرة.

الأم جالسة بجانبهما، تمسح دموعها برفق وتحاول توجيه ابتسامة ضعيفة إليه. إلا أن المصيبة العظمى أن أم الميرزا محمد أصيبت بأعراض زوجها نفسها، لكنها أخفت آلامها.

ابتسمت شفتاه، ثم تمتم بكلمات، لم أسمعها أولًا، ثم علمت بعد ذلك أنه يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، هذا كان عزاؤه.. ثم تكلم معه بكلمات خرجت منه بشق الأنفس، وأوصاه فيما أوصاه أن يدفن في النجف الأشرف.

فاضت عينا الميرزا ومن معه بالدموع.. وعلم أن هذه اللحظة الأخيرة للوداع. وفي هذه اللحظة، انسلت روحه من جسده الضعيف. غادر هذا العالم، ورحل إلى عالم آخر، حيث يمكن لروحه أن تحلق بحرية في سماء الخلود.

كان يومًا مظلمًا في حياتنا عندما فقدنا الميرزا عبد النبي فهو الأب لنا جميعًا، كان رمزًا للقوة والحنان، والدعامة التي استند إليها الميرزا محمد طوال حياته.

عندما حلت لحظة الوداع، كانت الدموع تملأ الأعين، والقلوب تنزف الألم. فقد أغلق عينيه للمرة الأخيرة، وترك خلفه ذكريات لا تنسى ومحبة لا تموت. كان رحيله كالعاصفة التي تجتاح القلوب، تترك وراءها حزنًا عميقًا وفراغًا صعب الملء.

توقفت الحياة حولنا. الألوان باهتة والضوضاء مخملية. الحزن يملأ القلوب. الفراغ يتسع وكأن العالم قد فقد قطعةً أساسية منه. تذكرت كل لحظة قضيناها معه، كل حكمة ونصيحة غرسها في وجداننا.

بعض القوافل كانت لا تزال في المدينة، انتشر الخبر كالنار في الهشيم، وعمّ الحزن القافلة. سرعان ما اجتمع الناس حول الميرزا محمد، بين معزٍّ يربت كتفه، ومسترجع يردد بصوت خاشع: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقف هناك، وسط الجمع، عيناه تحملان دموعًا لم تسقط، وكأنها تأبى أن تصدّق ما حدث. نظر إلى والده المسجّى أمامه، وجهه هادئ كمن نام بعد عناء طويل، جسده المسافر عبر السنين قد بلغ منتهاه هنا، في أرضٍ لم يكن يظن أنه ستنتهي حياته فيها.

لم يكن يدري الميرزا محمد ماذا يفعل، تداخلت الأصوات من حوله، اقتراحات الدفن، كلمات المواساة، ذكرٌ لسير والده وأفعاله الطيبة. كان كل شيء يبدو بعيدًا، كأنما لا يصل إليه سوى صوت قلبه، ينبض بثقل الفقد.

اقترب أحد الرجال منه، شيخ وقور من القافلة، وضع يده على كتفه بحنو وقال:

يا بني، احتسب أباك عند الله، فهذا سفرٌ آخر، لكنه نحو دار البقاء.

- هيا لنحمله للتغسيل، فلا معنى لبقائه. قال آخر.

أغمض الميرزا محمد عينيه لحظة، كأنه يودع صورة والده في ذاكرته، ثم زفر بأنفاس متقطعة، وقال بصوت خافت لكنه ثابت:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندَكَ أَحتَسِبُ مُصيبَتي، فأَجِرْني فيها.

حملناه على الأكتاف، بقلوب مثقلة بالحزن، وخطوات تشعر بثقل الفقد. وصلنا إلى المغتسل، حيث استقبلنا المكان بصمته المهيب، وكأنه يشاطرنا الحزن.

كان الماء يتدفق برفق، وكأن الأيدي التي تغسله تحاول أن تمسح عنه عناء السفر الطويل. تسللت رائحة الكافور إلى أنوفنا، رائحة كانت ختامًا لحياة، وبدايةً لمثوى جديد.

بعد أن تمت عملية الغسل، لف جسده في بياض ناصع، وكأنما عاد طفلًا في مهده، خاليًا من الدنيا وما فيها. كان الميرزا محمد واقفًا عند رأس والده، لا يتحرك، عيناه معلقتان بوجهه، كأنه يحاول أن يحفظ كل تفاصيله في ذاكرته، كأنما يخشى أن يختفي من أمامه إلى الأبد.

حملناه إلى المسجد، دخلنا به في رهبة، المصلون اصطفوا، الأيدي ارتفعت بالدعاء، والأصوات تتابعت في خشوع، كانت كلمات الإمام تملأ المكان، تمتزج مع الدموع الصامتة،

والقلوب التي تضرعت في خفاء. بعد التكبيرات الخمس، ساد صمت عميق، لم نكن نسمع سوى أنفاسنا المضطربة، وكأن الجميع استشعر حقيقة الرحيل:

(اللهُمَّ إِنَّ هَذَا المُسَجَّىٰ قُدَّامَنَا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَزَلَ بِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْزُوْلٍ بِهِ، اللهُمَّ إِنَّا لَا نَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا، اللهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيْئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَاغْفِرْ لَهْ، اللهُمَّ اجْعَلْهُ عِنْدَكَ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّيْنَ وَاخْلُفْ عَلَىٰ أَهْلِهِ فِي الغَابِرِيْنَ وَارْحَمْهُ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ).

ناداني الميرزا محمد في أن أستأجر الجمال للسفر صوب العراق.

لم يكن مجرد قرار بالسفر، بل كان وعدًا أخيرًا، التزامًا بوصية لم يعد من الممكن تأجيلها. فقد أوصى والده، الميرزا عبد النبي، أن يُدفن في النجف، في جوار أمير المؤمنين، حيث تُطوى الحياة لتبدأ من جديد في رحاب الخلود.

خرجتُ إلى السوق، حيث كانت القوافل على أهبة الاستعداد، التجار يعرضون جمالهم، والرحالة يتفاوضون على الأسعار. سألت عن قافلة مأمونة يقودها دليل متمرّس يعرف خفايا الصحراء، فالسفر إلى العراق ليس نزهة، بل طريق طويل محفوف بالمشقة.

عدتُ إلى الميرزا محمد وأخبرته أن القافلة ستتحرك عند الفجر. أومأ بصمت، عارفًا أن هذه الليلة ستكون الأخيرة له في هذا المكان. كان وجهه مثقلًا بالحزن، لكنه لم ينطق بشكوى.

في تلك الليلة الموحشة لم يغلب سلطان النوم على أحد من أفراد العائلة. جلس الميرزا في غرفة قرب جنازة والده، تحت

ضوء المصباح الخافت، ممسكًا بمصحفه. قلبه مثقل بالحزن، وعيناه تفيضان بالدموع، فتح المصحف، وبدأ صوته يتهادى في أرجاء الغرفة، كهمس الريح بين أغصان الأشجار. كان يتلو ببطء، وكأن كل آية تحفر في روحه معنى جديدًا، وكأنها تخاطب وحدته وتواسي غربته، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ كررها مرارًا، كمن يحاول أن يقنع نفسه بها، كمن يتمسك بها كحبل نجاة وسط بحر من الفقد. كان القرآن أنيس وحدته، وصوته المرتل، رغم الحزن الذي يلفّه، بدا وكأنه نور يشق عتمة الليل.

كان الصباح ينساب ببطء، والغيوم الرمادية تلفّ السماء كقطعة من الثوب الثقيل. الأجواء مليئة بالسكون العميق، وكأن الطبيعة نفسها تشعر بالحزن الذي يعتصر قلوب أفراد العائلة.

كانت عيون الميرزا محمد تحمل مزيجًا من الحزن وهو ينظر إلى نعش والده، مستعدًا للمغامرة الشاقة التي ستقوده في رحلة نقل الجنازة إلى العراق.

تم تجهيز النعش بعناية، زين بقماش فاخر. تجمعت القافلة التي سوف تأخذ الجنازة معها، مع أفراد العائلة وبعض الأصدقاء. تعاون الجميع في تحميل النعش على الجمل، وكان الحزن يغمر قلوب محبيه.

انطلقت القافلة في رحلة الحزن والأمل، عبر الصحاري الشاسعة والمسالك الوعرة. القرآن والصلوات والأذكار تملأ الأجواء، مصاحبة لخطواتهم المرهقة.

- سوف نسلك درب زبيدة، قال رئيس القافلة.
- وما هو درب زبيدة؟ سألته
- يقال إن السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، الخليفة

العباسي، شارفت الهلاك وهي في طريقها لأداء مناسك الحج في عام (186هـ/ 802م)، ونذرت على نفسها ألا يعاني الحجاج بعد ذلك العطش وهم في طريقهم إلى الحج. فأنشأت الطريق من الكوفة عبر أشد المناطق شحًا بالمياه، وأصبح الطريق من أفضل الطرق لتأمين المياه للحجاج، من خلال بناء خزانات المياه، تبدأ من الكوفة إلى مكة المكرمة. وتتوزع على طول الطريق، الآبار وخزانات المياه، وكانت الجمال تعبر من نقطة توقف إلى أخرى للتزود بالماء.

لم تكتفِ زبيدة بهذا الأمر بل أمرت بفتح أقنية فرعية من القنوات خلال عبورها بين الجبال، كما أمرت أن تصل القناة إلى جبل الرحمة ليرتوي منها الحجيج في يوم عرفة، وأمرت بعدها بمد القناة إلى خلف الجبل إلى منطقة يسميها أهل مكة (المظلمة).

شارك به أمهر المهندسين والعمال، عن اقتناع تام مشيرين إلى عبارتها الشهيرة لخازن أموالها حين أبلغها بأن الأمر سيتكلف كثيرًا مقاطعة إياه: (اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارًا).

- إنه الطريق الذي سار فيه الحسين عليه السلام حين خروجه من مكة إلى العراق. استدرك الميرزا محمد على كلام رئيس القافلة.

خلال هذا الوقت كانت الجمال تُقاد وتجلب لتسرج وتحمل. ثم ذهب ليجلب لي الجمل الذي أركبه. وكان هذا جملًا أصيلًا مشهورًا من عُمان.

إن الجمل الجيد الذي يمشي بسرعة خمسة أو ستة أميال في الساعة مريح جدًا، غير أن السير البطيء يسبب تعبًا مرهقًا متواصلًا في ظهر الراكب.

تتدحرج أيام الحزن ببطء شديد، كما لو أن الزمن نفسه يتألم مع كل نبضة في قلب الميرزا محمد وعائلته، ثلاثة أيام فقط مضت منذ أن غادر والده الدنيا، ولكن الحياة تُخبِئ مزيدًا من الألم والفقد. توفيت أمه بعد وفاة والده بثلاثة أيام، كانت الصدمة الثانية التي هزت أركان وجوده، مع هذا الفقدان المزدوج.

حزن عميق غزا قلبه لم يترك له أي فرصة للتنفس، يغمض عينيه بقوة، يحاول تجاهل ضغط الألم الذي يعصف بداخله، لكن الذكريات تتدفق إلى ذهنه كلما حاول التهرب منها.

كانت الضربة الثانية قوية جدًا، كأن القدر يعمد إلى تكريس الفراغ داخله.

تتسرب دموعه بلا توقف، تحاول مع كل ومضة أن تفرغ الألم المتجمع داخل روحه المكسورة. يتذكر صوت والده الدافئ وضحكة أمه الحنون، كانا ملاذه الوحيد في عالم مظلم، والآن أصبحا ذكرى مؤلمة تسكن ركنًا من ذاكرته.

في لفافة من الحزن والأسى، يبحث عن قطعة من الأمل تُضيء الظلام المحيط به. يمد يده بحثًا عن أي كلمات تخرجه من هذا العالم، يحاول جاهدًا تجسيد هذه الحالة النفسية المعقدة، وكأنه ينقل رحلته الداخلية الصامتة إلى صفحات الورق، في محاولة يائسة للتعبير عن هذا الألم الذي يعصف به.

تتلألأ الدموع في عينيه، وينبض الألم في قلبه، ولكنه يصمد ويتجاوز الحزن لأنه يعرف أن روحي والديه تراقبانه، وتحملانه برعايتهما ومحبتهما. ففي النهاية، يكون الحب هو المفتاح لتجاوز الألم والمضي قدمًا في الحياة بكل قوة وإرادة.

لملم بقايا نفسه، وتلا علينا قول الإمام الصادق عليه السلام:

(قد عجز من لم يُعد لكل بلاءٍ صبرًا، ولكل نعمة شكرًا، ولكل عسر يسرًا، أصبر نفسك عند كل بلية ورزية في ولد أو في مال، فإن الله إنما يقبض عاريته أي ما أعاره لك وهبَته ليبلو شكرك وصبرك).

لا بد من المضي قدمًا، لإتمام مراسم الدفن، بنفس صابرة راضية بقضاء الله وقدره. سرنا وسارت بنا الأيام.

المحطة الخامسة

العراق / البصرة ـ النجف
(1200هـ/1785م)

اجتزنا بعض القرى على حافة الصحراء، كانت الصحراء تمتد أمامنا قاحلة جرداء تغطيها طبقة من الملح تحدث عند وطئها صريرًا مشابهًا لصرير الجليد أثناء المسير فوقه.

أول مدينة ندخلها هي البصرة، محاطة بسور، ويحدها من جهة الشمال الشرقي شط العرب، ويحد سورها نهران كبيران، هما: نهر الخندق من جهة الشمال والشمال الغربي، ونهر الخورة من جهة الجنوب الشرقي، تفرعات هذين النهرين تلتقي بنهر صغير جنوبي المدينة، يُدعى: نهر البنا، ونهر ثالث يقطع المدينة من جهة شط العرب وحتى أقصى الجنوب الغربي، وهو نهر العشار. وهو شريان حيوي لأهل المدينة، سواء لاستخدامه في النقل من وإلى شط العرب، أو لاحتياجات السكان اليومية، ويبدو أن هذا النهر كان من أكثر أنهار البصرة تلوّثًا.

البصرة مدينة واسعة جدًا، مكتظة ببساتين التمر والحبوب، ذكور النخيل زرعت في الشمال الغربي من الإناث، لأن الريح تهب عادة من تلك النقطة ويمكن تمييز الذكور بسهولة عن الإناث لأنها أعلى منها وأقل أوراقًا في قمتها. والأرض مليئة بالسواقي لتوزيع الماء من النهر أثناء المد، إذ أن النخيل لا يمكن أن يحمل التمر بدون هذا لأنه بحاجة إلى الرطوبة المتزايدة.

مظاهر العمران والبناء فيها لم تكن متناسبة مع تلك السعة، وربما السبب في ذلك افتقار البصرة للصخور والأحجار، وانتشار المستنقعات فيها، ويبدو أن ذلك جعل من الصعوبة نقل الصخور والأحجار إليها.

البيوت مبنية من جذوع النخل والقصب. وبعض الأبنية مشيدة من الطابوق، الذي يُصب بشكل خاص، ويجفف في الشمس. وكذلك أسوار المدينة مشيّدة منه. وأكثر البيوت تصب المياه القذرة لمطابخها في الطرقات التي ليست مُعبّدة بالحجارة. بل إن أكثرها قد سلطت مجاريها على تلك الجهة.

اجتمع آمرنا على أن نذهب إلى النجف عن طريق النهر، لأن الإبحار عبر النهر أسرع من السفر برًا على ظهور الإبل.

ذهبنا أنا والميرزا محمد إلى (المعقل) وهو الميناء الذي سوف تنطلق منه زوارقنا إلى النجف الأشرف. رأينا فيه عدة سفن لا تتجاوز حمولة أكبرها أربعمائة طن، وذلك بسبب الصعوبة في اجتياز الحواجز. والمعتاد أن تحظى السفن المسافرة من البصرة إلى بومباي أو البنغال بحمولات كاملة يتألف الجزء الأكبر منها من طبقات نحاسية من مختلف الأنواع، أما سفن بومباي فإنها على العموم تحمل الفواكه الجافة، على أنه من النادر أن تبحر أية باخرة إلى أي جزء من بقاع الهند دون أن تحمل معها عددًا ملموسًا من الجياد العربية. وهناك أمثلة عديدة على السفن التي تنقل الفضة والسبائك بمبالغ تقرب من الروبيات[1].

- هل تريدان أجرة قوارب أيها السيدان؟

قال رجل وهو مقبل علينا، على رأسه كوفية، يرتدي قميصًا

---

(1) العملة الهندية الأساسية وتعادل خمسة وسبعين فلسًا عراقيًا آنذاك.

وسروالًا رماديين، لا يتضح جيدًا اللون منه من الوسخ! كثيف اللحية، عيناه غائرتان، أحرقت الشمس بشرته. يظهر من هيئته وكلامه أنه رجل محترم.

- نعم، قال الميرزا محمد.
- إلى أين وجهتكما؟
- إلى النجف الأشرف.
- هل عندكما حمولة؟
- بل لدينا جنازتان.

لم يستغرب الرجل ذلك، فالظاهر أن نقل الجنائز من مكان إلى مكان آخر بعيد، كان مألوفًا لديهم.

أطرق الرجل، ثم قال:

- أنتم بحاجة إلى ثلاثة قوارب، قارب لكم، وقارب للجنائز، والثالث لمن سوف يساعدنا في حمل الجنائز. وهذا سوف يكلفكم ألف وثلاثمائة قرش (القرش = عشرين فلسًا) للقوارب والحمالين.

لم يبد السيد محمد اهتمامًا بالمال، فقد كان همه فقط هو الوصول إلى النجف لمواراة والديه في مثواهما الأخير.

- موافق، قال السيد محمد.
- إذًا على بركة الله، قال الرجل، أعطوني نصف المبلغ والنصف الآخر حين الوصول. وسوف يكون موعدنا في هذا المكان عند الفجر.

أعطى السيد محمد نصف المبلغ للرجل، ثم ذهبنا إلى السوق وتزودنا بالمهمات من الأطعمة، وأصناف من الأواني

الخزفية وعِدد الطعام. أنفقنا لقاء ذلك كله خمسمائة قرش إضافية. واشترى السيد ألبسة لكل شخص منا تتألف من: عباءة عربية مصنوعة من الصوف، صديري داخلي، زوج من السراويل، قميص، (زبون)، عمامة، طاقية من الصوف، زوج نعال أصفر اللون.

قضينا هذه الليلة في مدينة البصرة، توجد داخل أسوار المدينة عدة أماكن خالية لم تقم فيها أية أبنية ويظهر أن البعض منها قد تعرض للحريق، والمنازل متشابهة بصفة عامة جدًا، وقد بنيت معظمها باللبن عدا أقسام ضئيلة منها أنشئت بالآجر، وتتألف أخشابها من جذوع النخل.

الجدران سميكة جدًا والأخشاب الرقيقة هي التي تؤلف المادة الأساسية الوحيدة في البناء. سقوف المنازل مفلطحة محاطة بجدران واطئة، وعلى هذه السقوف ينام السكان خلال فصل الصيف في الهواء الطلق. النور لا ينفذ إليه من الشارع وذلك لانعدام النوافذ فيه. المنزل على شكل مربع، ويقوم في داخل هذا المربع عدة غرف بعضها يقع تحت الأرض يلتجئ إليها الناس عندما ينتابهم التعب بسبب حرارة الشمس في النهار.

أما المطبخ والماء والخيول فإنها توضع كلها في الطابق الأرضي، أما الصالة التي يستقبلون فيها الضيوف والحريم والغرف الأخرى فإنها تكون في الطابق الثاني حيث تتألف على العموم من ردهة تسندها أعمدة متواصلة تحيط بداخل البناية كلها تقريبًا. والمعتاد أن يكون لهذه البنايات ممران واسعان أحدهما يؤدي إلى غرفة حيث يسمح للأجانب وغيرهم بدخولها، والثاني يؤدي إلى الحريم حيث لا يسمح لأحد بدخوله عدا أفراد العائلة.

شوارع المدينة ضيقة جدًا، وأجزاء كبيرة من هذه الطرقات غير معبدة مما يصعب حتى على الخيول المرور فيها.

في فجر اليوم التالي، ارتدينا ملابسنا الجديدة وذهبنا إلى مرفأ القوارب.

- حياكم الله، أنا خادمكم عبد اللطيف، قال الرجل الذي استأجرنا منه القوارب..

أنزلنا أمتعتنا وقد جاء أربعة من مساعدي عبد اللطيف بحمل الأمتعة. وإنزال الجثتين من ظهور الإبل.

الزوارق أعدت بشكل يدعو إلى الإعجاب لتحقيق القصد من استخدامها، لذا لم يكن المبلغ الذي دفع عنها غير مقبول.

وبينما هم يشدون الأمتعة، قال عبد اللطيف:

- لماذا لا تدفنون جنائزكم هنا، في مقبرة الحسن البصري؟ هي مقبرة كبيرة والناس يدفنون فيها موتاهم، وتضم رفات الكثير من الأولياء والعلماء. ففيها الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، ورابعة العدوية، وأم الصهباء معاذة العدوية، وأبو بسطام شعبة بن الحجاج، ومالك بن دينار، وسهل بن عبد الله التستري، ومن الشعراء فيها الفرزدق، وخالد بن صفوان.

- نعم، نعلم بعض الأسماء التي ذكرتها، إلا إن السيد المتوفى أوصى بدفنه في النجف. قال له الميرزا محمد.

ولأنه هو من بدأ الحديث، سأله:

- ما هو المذهب السائد في هذه المدينة؟

- المذهب السني هو السائد، واستوطن الكثير من الشيعة هنا

أيضًا، جاءوا من إيران بسبب الاضطرابات الداخلية فيها، إلا أن أغلبهم الآن يدّعون أنهم من أهل السنة.

- ولم ذلك؟
- لأن السنة يتحفظون من الشيعة أكثر مما يتحفظون من منتسبي المذاهب الأخرى.

الشيعة في عام (1156هـ/ 1743م) قاموا بهدم قبور أولياء السنة، الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، ومعابد للصلاة تابعة لهم عندما حاصر نادر شاه مدينة البصرة. إلا أن السنة أعادوا بناءها ثانية فور انسحاب الأعداء منها.

كما أن لهؤلاء الأولياء معجزات.

- وما هي؟
- يقولون إن حمار أحد الذين يريدون الذهاب من البصرة القديمة إلى البصرة الحديثة فرّ من صاحبه، فراجع الرجل المسكين العمال الذين كانوا يشتغلون قرب قبر طلحة وشكا إليهم من أنه تجول طويلًا في البادية، دون أن يوفق في العثور عليه، فتألم الجمع لما أصابه وتوجهوا بدعائهم إلى الولي ليعيد الحمار إلى صاحبه. وبعد مضي فترة وجيزة، شوهد الحمار راجعًا باتجاه ضريح طلحة، وهو يعدو بأقصى سرعته وكأن وراءه من يسوقه بالسوط.

ويذكرون أن القبة المشيدة على قبر الحسن البصري حينما سقطت، ظهر الولي حسن البصري لأحدهم في المنام وأكد له أن لا يعاقب المعماري الذي بناها، وأنه يريد برجًا صغيرًا على قبره بدلًا عنها، وأن يكون رأسه حذو الحائط تمامًا لكي لا يطوفوا حول قبره بشكل دائري.

أما الزبير فإنه يرقد تحت قبة كبيرة، قرب جامع جميل ذي منارة واحدة، وقد ألقى عليه إمام الجامع التحية، فرد التحية إليه.

- وهل يوجد غير هذا الشيخ ردت عليه التحية في أي وقت مما سبق؟

- لا أعلم ذلك. ثم قال باقتناع: إلا إننا لا نتوقع بأننا بالمكانة التي ممكن أن تجعلنا مشمولين بهذا اللطف، مع آثامنا الكثيرة.

ثم أردف: إن هنا طائفة من النصارى الشرقيين، وقد نزحوا أيضًا من إيران. ويوجد صابئة أيضًا بأعداد ضئيلة، وهم يعملون في مجال الصياغة هنا. كما يوجد أكثر من مائة عائلة يهودية..

صعدنا إلى الزورق، وهو يعرف باسم (دونيك)(1)، ويسمى أحيانًا باسم (كرافة) يستخدم في نهري دجلة والفرات. يبلغ أقصى عرض الزورق ما بين أربع إلى ست أذرع، أما طوله فيبلغ ستًا وعشرين ذراعًا، وهو يصنع من ألواح خشبية قوية عرض الواحدة منها ذراع واحدة تقريبًا، تربط بينها قطع صغيرة من ألواح وتغطى بطبقة من القار يبلغ سمكها زهاء عرض أصبع، حيث يسهل إصلاحها في تشققها وتسرب المياه إليها.

ويغطى داخل القارب بالنوع نفسه من الألواح لا يزيد طول اللوح الواحد منها عن ذراعين طولًا، أما عرض الألواح فغير متساوٍ، ويكون الرتق بينها عادة كثير الشقوق، وبعض هذه القوارب تغطى بالحصر بدلًا من الألواح، وتطلى بطبقة من القار أيضًا. ويكون الزورق حادًا جدًا في نهايتيه ويبحر

---

(1) الدونك أو الدانك، يطلق على الزوارق في العراق، ولا يزال سكان الجنوب والأهوار خصوصًا يستعملونها حتى يومنا هذا.

بسرعة، أما مجاذيفه فهي من الأخشاب التي تربط بقطعة من اللوح على كلا الجانبين.

وعلى مقربة من الصاري ربطت بعض الحصر لتصد عنا حرارة الشمس، وقد برهنت على فائدتها الكبيرة. وفي صدر الزورق أنشئ مطبخ باللبن والطابوق لإعداد الطعام فيه، وقد وجدنا هذا التدبير ذا فائدة عظيمة لأنه أعاننا على تهيئة كل ما هو ضروري لنا دون أن نضطر إلى تأخير الرحلة بسبب الرسو هنا وهناك.

واجهنا نسيم عليل من الجنوب وانفتحت الأشرعة وتحركت المجاذيف وأخذ القارب يقطع من فرسخ إلى فرسخين في الساعة الواحدة. حسب شدة الرياح وضعفها. وإذا هبط المد ولم تتهيأ لنا سوى رياح ضئيلة اضطروا إلى سحب زوارقنا بالحبال، وإذا مالت الشمس نحو المغيب ملنا بزوارقنا إلى الضفة اليمنى من النهر لنمضي هناك الليل كله نعاني البق وضجيج أصوات الحيوانات الضارية في العراء.

على هذا الحال، وبعد سبعة أيام وصلنا إلى النجف الأشرف.



في طريقنا إلى النجف الأشرف، صادفنا أربع جنائز أخرى، ومن طريق آخر صادفنا خمس جنائز أيضًا. تساءلت في نفسي عم إذا كان يمكننا أن نخمن عدد الموتى الذين يجلبون إلى هذا البلد من البلدان الأخرى.. ولاحقًا حينما سألت أحد عمال الدفن في مقبرة النجف قيل لي إن عدد الجنائز التي تأتي من البلدان الأخرى كإيران والهند يبلغ الألفين سنويًا.

في مشاهد هذا الطريق، تتجلى أمامنا لغة رمزية تروي قصة

عميقة عن هشاشة الحياة وتفاوت مصائر البشر. وعندما يتعانق الألم والوجع، بعظم الواقعة وثقل الفقد، يفتح الزمان أبوابًا لعالم الجراح، حيث تصبح القلوب موطنًا للأسئلة العميقة، والطرقات مسارًا للتأملات المحزنة في عجز الإنسان أمام حقيقة الموت وعجزه عن السيطرة على مجريات الحياة. تختلط فيها ألوان الحزن والتساؤلات. فبينما نسير في درب الحياة، يرد في خواطرنا تساؤل مشوش يحاول تفسير لغز الحياة والموت، يُلقي بظلاله على قدرة الإنسان على فهم مغزى الوجود.

وصلنا أخيرًا إلى مرفأ الزوارق المنتظر، شهدتنا لحظة مليئة بالسحر والترقب، كانت الشمس تنحدر إلى الاتجاه الأفقي، بلون جميل، النهار ينحسر ويفسح في المجال لأسرار الليل، وقد اندفعت سحب براقة إلى الساحل، ورقصت أمواج الشاطئ بدقة تامة.

- هذا اخر طريقنا معكم، قال عبد اللطيف، وهو يأمر من معه بإنزال الجنائز والأمتعة.

نظرنا إلى الأفق، ظهر مجموعة من الحمالين، يضعون على أكتافهم أحمالًا من البضائع المتنوعة، كانوا مثل الرموز للقوة والإصرار. عندما أبحرت أعين الحمالين عبر أروقة الزوارق المتوقفة.

استأجرنا من هناك جمالًا لنقل الجنائز والأمتعة، من شاطئ النهر إلى مرقد الإمام علي عليه السلام. وبينما تجول عقولنا في ظلال الحزن والفقد، أعطانا الأفق البعيد نظرة مشرقة في أحضان تلك الأرض وتحت سماء طافية بنسائم السكينة، تراءت لنا من مسافة بعيدة القبة النحاسية المطلية بالذهب والمنارتان القائمتان لمرقد الإمام علي عليه السلام، تعكس وهج الشمس المتساقطة على سطحها

المتلألئ. وكأنها رمز للأمان والسلام في وسط هذا البحر العاصف من الأحزان.

المنارتان ملاذ آمن، يضيء طريق الضالين ويحميهم من عواصف الحياة. يقف المرقد بكبرياء وسط المدينة، كشاهد على العبور الزمني والروحاني. جوهرة ثمينة محاطة بأرض جرداء. وكأنها قطعة من السماء هبطت إلى الأرض. كنقطة توقف في زمن قد مضى، تمثل فيه القيم والأخلاق نبراسًا في الظلام المحيط.

وصلنا سور المدينة، وهو سور ضخم له بابان، باب المشهد، وباب النهر، وله باب ثالث يسمى باب الشام لكنه مغلق ببناء، والسور مهدم بحيث يمكن الدخول إلى المدينة من خمسين موضعًا. وهو سور واطئ، مدعم بأبراج مربعة الشكل بلغ عددها (تسعة وسبعين) برجًا فخمًا، والأبراج محصنة ومزودة بوسائل دفاعية تجعلها تصمد أمام أي هجوم تتعرض له المدينة من قبل الغزاة بالإضافة إلى كونها تدعم البناء وتقويه. لا يبعد كثيرًا عن مرقد الإمام علي عليه السلام من جهة الشرق، وتمتد المقابر من هذه الجهة نحو المرقد.

المرقد يقع في قلب المدينة. ومعظم الطرق الداخلية تتوجه نحوه، والمحور الرئيس والأقدم فيها هو القادم من مدينة الكوفة باتجاه المرقد.

أمر الميرزا محمد أن تبقى العائلة في أحد أواوين الصحن العلوي، ريثما نذهب إلى زيارة الإمام علي عليه السلام، والصلاة على الجنازتين وإتمام عملية الدفن. تلتفت أعين الزائرين بشوق إلى أروقة المرقد المقدس، حيث ينتظرهم لقاء مع رمز العدل والعظمة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. تتعالى الأصوات

المتلطفة بالدعاء، وتتجلى الآمال والتمنيات بالشفاعة والرضا من قبل الإمام العظيم.

انتهينا من الزيارة والصلاة وتوجهنا نحو المقبرة. ليبدأ اليوم الذي لا يُنسى، يشعر فيه القلب بثقل لا يُطاق والعيون بالدموع التي لا تنتهي. إنه اليوم الذي يتم فيه الدفن.

وصلنا المقبرة، وكأن الزمان يتوقف فيها، عند دخولنا المقبرة في تلك الليلة الساكنة، شعرت بأن الهدوء يلف المكان كالستارة السوداء التي تحجب العالم الخارجي. بدت هادئة والسكون جاثم عليها، إلا من الحفيف الذي يداعب أوراق شجر السدر فيها. أو صوت معول لشق لحد جديد، وتردد صوت تلاوة يرتفع معه نشيج. كأن أجواءها مهيأة لاستقبال ضيوفها الجدد. يشعر الحاضرون بالاحترام العميق للموتى ولعملية الدفن.

تصطف القبور، يتناثر ضوء القمر الساطع فوقها كأشعة فضية، وتتجمع الظلال حولها لترسم لوحة غريبة. تبدو المقبرة كممر موحش يؤدي إلى بوابة لعوالم أخرى، حيث يتلاقى الماضي والمستقبل، وترقص الحياة والموت معًا بأناقة خالدة. بعض القبور عليها شموع مشتعلة وأبخرة، وعلى البعض الآخر منها نثرت الزهور بلطف، وأخرى موضوعة فوق التراب الناعم الذي يؤوي موتاهم. . وكأنها رمز للحياة. تتخللها بعض الشجيرات بعناية متناغمة كما لو كانت شهودًا على حكايات الأرواح التي ترقد تحت التراب. الأزهار المتفتحة تبعث عبقًا يملأ الهواء برائحة الحياة والموت في آن واحد. ترتسم الحروف الحجرية على القبور بأسلوب فني يروي قصصًا لا تنتهي. أمام كل قبر، يمكن رؤية أسماء وسنوات لأجساد رحلت عن عالم الدنيا، ولكن هناك قصصًا لا يمكن كتابتها على أحجار. هناك ألم وحنين

وذكريات توجد في الأماكن الداخلية، حيث ينظر الزوار قصصها بأعينهم وقلوبهم. ولا يمكن للكلمات أن تكتب قصص الأرواح التي ترقد تحت الأرض.

هنا يتساوى الزعماء والفقراء جنبًا إلى جنب، يتشاركون في نوم عميق يعيد الروح إلى معاني الوجود. الليل هناك ليس مرعبًا بل هو مكان للصمت الذي يجلب معه تأملات عميقة. المقبرة ليست مكانًا للنهاية بل مكانًا لبداية جديدة، حيث ينبت الأمل والألم، والذكريات تزهر مجددًا. المكان الوحيد الذي يجمع بين الحياة والموت. تتمدد أجسادهم جنبًا إلى جنب وكان مصيرهم واحدًا من حيث الشكل، ولكن أرواحهم يبقى سرها عند بارئها، إذ أن أعمالهم ولا شك متباينة فمنهم من انتقل إلى رحمة الله وجواره وبمشيئته، حاملًا سجل أعماله مفعمًا بأعمال الخير وبالصلاح فهو من المفلحين، وآخرون دون ذلك بدرجات.

تأخذ القبور أشكالًا مختلفة، من الأقواس الرخامية الفاخرة إلى الأحجار البسيطة التي تحمل أسماء من نسيهم الزمن. في الزوايا البعيدة من المقبرة، كانت هناك قبورٌ مهملة ومنسية، وكأنها تشكل جزءًا من قصة مؤلمة لا تجد من يرويها.

قررت الاقتراب من أحد هذه القبور، وجدت نبتة صغيرة تتسلق من بين الحصى. كانت هذه النبتة رمزًا للأمل والحياة المستمرة حتى في أعماق الظلام. رفعت رأسي لأنظر إلى السماء المليئة بالنجوم، وشعرت بأني جزء من دورة الحياة والموت التي لا تنتهي. المقبرة ليست مكانًا للحزن فقط، بل هي أيضًا مكان للاحترام والتأمل في قيمة الحياة.

في هذه الأثناء سمعت بكاءً وآهات بعيدة، تأملت هنيهة، ثم نظرت وإذا هي امرأة تجري وراء رجل يحمل أخاها إلى

مثواه الأخير وهي تنوح وتبكي وتتعثر بأذيالها، وحامل الجنازة يجري مسرعًا غير مبال بها، وكأنه يتعمد ذلك لأنه يرى أن لا فائدة في التمهل، فالإسراع بمواراة الميت في خبايا الثرى خير من بقائه، لأنه قد يتفسخ ويتعفن.. هذه إذن هي نهاية الإنسان المغرور الذي يملأ الدنيا ضجيجًا، ثم ما لبث بعد ذلك أن قذف إلى أعماق الأرض، فيهدأ ويستكين وكأنه اشتاق للعودة إلى أمه الأرض.

ومن بعيد، شاهدت ثلة من نساء وهن في حالة صراخ وبكاء، وعرفت بعد ذلك أنه قد مر على فقيدهن أربعون يومًا، ومعهن نادبة تنعى فقيدهم.

المقبرة، مكان مليء بالأسرار والذكريات المدفونة في أعماق التراب. المقابر مرآة للزمن، حيث يمكن للزائرين أن يقرأوا فيها حكايات الحياة والموت..

بدأ الحفارون بحفر القبرين، وجلس الميرزا محمد قرب أبويه وبدأ يقرأ سورة ياسين والصافات. بينما نحن كذلك، إذ جاء رجل واهن الجسم، كبير السن، بين يديه مصحف، سألته إن كان يعمل في المقبرة، قال لي: أنا من الريف ولا أريد أن أسرد عليك سبب هجرتي، ولكني أخبرك، وأرجوك أن لا تشك بعد أن أطلعك على حالتي بأني أستجديك شيئًا، أخبرك بأني كنت ولا أزال أعيش في ضيق وشظف من العيش، وحين وجدت أنه لا ينفع مع هذه الفاقة قعود، اندفعت بلهفة لا تقاس ألهث باحثًا عن العمل كالراكض في آخر الشوط، وفي كل محاولاتي أرجع لا ألوي على شيء، سعيت أبحث عن عمل أكسب منه فأسد رمقي وأقوّم به أود أطفالي الذين لا أستطيع المكوث قربهم، نعم، كيف أستطيع ذلك وولولتهم تذهب بصبري، وتقل من

عزيمتي، وكلما دنوت منهم تركتهم ساعيًا سعيًا حثيثًا علني أجد عملًا أملأ من خيره جوفي وجوف أطفالي، فوصلت إلى حال جعلني كما تراني أحمل فرشاة وعلبة صبغ أصبغ به واجهات القبور، أو ألقن الموتى، اعتاش على تلقين الموتى وأحصل على الأجر من ذلك. فصرت أستطيع بالكاد إيجاد القوت.. ولكن تعسًا لعائلتي يوم يقذفني المرض في الفراش فمتى كان ذلك باتت عائلتي في فقر وجوع. ثم أخذ يتلو القرآن.

وبصوت مزق الصمت والوجوم، قال السيد:

- اللهم أنزله منزلًا حسنًا مباركًا وأنت خير المنزلين. وانهالت عيناه بالدموع. ثم تعثر شرود ذهنه وارتخاء أعضاء جسمه إثر خشوع دب في أوصاله.

نزل الدفان إلى القبر حافيًا مكشوف الرأس محلول الأزرار، ثم تناول جثمان السيد فبدأ برأسه، فأخذه ونزل به القبر وهو يقول:

بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك، هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، اللهم زدنا إيمانا وتسليمًا.

ثم أضجعه على جانبه الأيمن واستقبل بوجهه القبلة، وحلّ عقد أكفانه من قبل رأسه ورجليه ووضع خده على التراب. ووضع معه شيئًا من تربة الحسين عليه السلام.

سألني الدفان عن اسم المتوفى واسم ابيه، فقلت له: عبد النبي بن عبد الصانع. فبدأ يلقنه:

- يا عبد النبي بن عبد الصانع: اذكر العهد الذي خرجت عليه من دار الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عليًا أمير المؤمنين والحسن

والحسين.. فذكر الأئمة عليهم السلام الإثني عشر واحدًا واحدًا إلى آخرهم.. أئمتك أئمة الهدى الأبرار.

إذا أتاك الملكان المقربان رسولين من عند الله تبارك وتعالى، وسألاك عن ربك وعن قبلتك وعن أئمتك فلا تخف ولا تحزن، وقل في جوابهما: الله ربي ومحمد نبيي والإسلام ديني والقرآن كتابي والكعبة قبلتي وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمامي... ويستمر معددًا الأئمة جميعًا...

يذكّره بهم، ثم يستمر ليملي عليه كيفية الإجابة عن أسئلة منكر ونكير:

واعلم أن الله تبارك وتعالى نعم الرب وأن محمدًا نعم النبي وأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأولاده الأئمة الأحد عشر نعم الأئمة، وأن ما جاء به محمد حق، وأن الموت حق وسؤال منكر ونكير في القبر حق والبعث حق، والنشور حق، والصراط حق، والميزان حق، وتطاير الكتب حق، والجنة حق، والنار حق، وإن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور.

ثم شرج عليه اللبن، والميرزا محمد يقول: اللهم صلْ وحدته وآنس وحْشته وارحم غربته وأسكن إليه من رحمتك رحمة يستغني بها عن رحمة من سواك، واحشره مع من كان يتولاه من الأئمة الطاهرين.

ثم خرج الدفان من القبر من قبل رجلي الجنازة، وطمّ القبر، وقمنا بإهالة التراب عليه بظهور أكفنا، ونحن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، اللهم زدنا إيمانًا وتسليمًا.

رفع الدفان من الأرض مقدار أربع أصابع، ثم صب الماء

على القبر، بدأ بالصبّ من عند الرأس، ثم دار من أربع جوانب القبر حتى عاد إلى موضع الرأس، وفضل من الماء شيء صبه على وسط القبر.

وضع الميرزا محمد يده على القبر والدموع تنهمر من عينيه، فرج أصابعه وغمرها في تراب القبر وهو يقول: اللهم آنس وحشته، وارحم غربته، وآمن روعته، وصل وحدته، وأسكن إليه من رحمتك رحمة يستغني بها عن رحمة من سواك، واحشره مع من كان يتولاه.

ثم فعل الحفارون مع جسد والدة السيد محمد مثل ما فعلوا مع جسد أبيه. وضع الميرزا محمد راحتيه على القبر وقرب فاه منه، وأعاد التلقين مرة أخرى.

في هذه اللحظات رأيت أن الميرزا محمد قد خارت قواه واحمرت عيناه، وكاد يسقط، فأخذت بيديه وأجلسته على الأرض، وهو يقول: اللهم بك نستعين وإنا إليك راجعون، اللهم ارحمنا وثبتنا على الإيمان. ثم لملم أطرف عباءته ونهض من جلسته.

صدفت عن القبر مكفهر الوجه مقطب الجبين، منتفخ الأوداج، مرتعد الأوصال، لا يرتاح لمرآي بال، صائحًا بصوت متهدج، سوف لا تغريني أيتها الدنيا مهما أوتيت من بهجة وجمال، ورنوت إلى المدينة مصخيًا إليها سمعي، وقلت شتان بين صمتكم أيها الموتى وعجيج وضجيج المدينة. لا شك أنكم ملأتموها قبلنا.

وبينما أنا في أرجوحة الأفكار، لاح لعيني شعاع القبة الذهبية المشرفة الذي سرعان ما أفاض بنوره على الوادي وكأنها تضيء لمن لاذ بصاحبها، وفي هذه اللحظات الغامرة بدأ الأمل يدب

في من جديد وتعود السكينة إلى روحي، فرحتُ أتمتم مهنئًا هؤلاء الراقدين حول إمامهم إمام المسلمين علي عليه السلام.

في أعماق تلك الأرض الرملية، رجعنا إلى العائلة، والغبار يعلو رؤوسنا. الحزن اكتنف الميرزا محمد من كل جانب، برفعه راية الوداع الأخيرة لوالديه.

كان يفكر في كيفية تخطي هذا الفقدان والمضي قدمًا في حياته، وكيف يمكن لروح وذكرى والديه أن تظل حاضرة دائمًا في قلبه.

رجعنا إلى مرقد الإمام علي عليه السلام لإتمام الزيارة، عندما تخطو خطواتك بتأدب نحو هذا الضريح، تشعر بالقرب من الله والمجد. تحيط بك رائحة العود والورد، وتتجلى أمامك أبجدية الصمود والتضحية. إنه مكانٌ يشع بالروحانية ويذكرك بالقيم النبيلة التي عاش ومات من أجلها الإمام علي. تشعر بوجود الإمام، وكأنه إلى جنبك كل الوقت. ذلك الرجل العظيم الذي عاش وتنفس عبق الإسلام الأصيل.

طاف الصمت الساحر حولي وكأنه تاريخ حيّ ينبض بالحكايات والمغامرات. قمت بالتقدم ببطء نحو الضريح، وقلبي ينبض بالاحترام والتقدير لهذا المكان. كأن الجدران تحتفظ بأسرار لا تُكشف إلا على القلوب النقية والعقول المتفتحة. في تلك اللحظة، أحسست بالاتصال مع الماضي والحاضر، تنسجم روحانية المكان مع وجودي في هذا الزمان. زيارة هذا الضريح ليست مجرد رحلة زمنية، بل هي تجربة روحية تجمع بين التاريخ والإيمان والجمال الفني.

يمشي الزوار على السجاد الفاخر الذي يغطي أرضية الضريح، يشعرون بروحانية خاصة تحيط بهم. يتردد همس

الزوار والمصلين في الهواء بقراءة القرآن الكريم والدعاء بتضرع وخشوع. تشعر بالتأمل عندما تلتف حولك وترى الزخارف الفنية والخطوط الإسلامية تعانق الجدران. تروي هذه الزخارف قصصًا من الماضي، تحكي عن مرور العصور والأجيال، وكيف احتفظت هذه الأماكن القديمة بجاذبيتها وقوتها عبر الزمن.

عتبة الباب من الفضة وكذلك العضادتان، الحضرة مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، يوجد أربعة شمعدانات مضاءة، وقناديل من الذهب والفضة، منها الكبار والصغار، مدلاة من السقف ومضاءة بنور خافت من الشموع الزيتية. رائحة عطرة للعود والبخور تعبق بالهواء، تمزج بين العبقرية الفنية والروحانية العميقة. تحت وسط القبة شباك مربع، مكسو بخشب الساج الهندي المطعَّم بالصدف، والعاج والأَبنوس، وأنواع أخرى من الأخشاب المتعددة الألوان، عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسمّرة بمسامير الفضة، قد غلبت على الخشب، لا يظهر منه شيء، ارتفاعه دون القامة، وتحته ثلاثة من القبور، أحدها قبر آدم عليه السلام، والثاني قبر نوح عليه السلام، والثالث قبر الإمام علي عليه السلام. قربها طشوت ذهب وفضة، فيها ماء الورد والمسك، وأنواع الطيب، يغمس الزائر يده في ذلك، ويدهن بها وجهه تبركًا، وللحضرة باب آخر، عتبته أيضًا من الفضّة، وعليه ستور الحرير الملوّن، يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب عتبتها فضة، وعليها ستور الحرير.

من جهة شرق الروضة الشريفة يقع الإيوان الذهبي الكبير، وسقفه وجدرانه مكسوّة بالذهب الإبريز الخالص، كُتب في وسطه على جانبي الباب قصيدة فارسية بحروف ذهبية بارزة،

وفي أعلاه كلمات عربية وحروفها ذهبية بارزة، وفيها تاريخ تذهيب القبة والمئذنتين والإيوان بأمر السلطان نادر شاه، وقد دفن في هذا الإيوان كثير من العلماء والأعيان. وفي ركنيه المئذنتان الذهبيتان، محيط كل منها ست عشرة ذراعًا، وارتفاع كل واحدة منها سبعون ذراعًا، وقطرها ثلاث أذرع، يقال: إن على كل واحدة منهما أربعة آلاف صفحة من الذهب الخالص. وعلى ارتفاع خمس وخمسين ذراعًا، يحيط بالمئذنتين شريط عرضه ذراعان من الكتابة العربية، فيه آيات من سورة الجمعة، ويعلو الكتابة صفّان من المقرنصات، ترتكز عليهما شرفة المؤذّن، التي قطرها ثلاث أذرع، وارتفاعها ست أذرع، فوقها أسطوانة ضيقة، يبلغ قطرها ثلاث أذرع، وارتفاعها اثني عشر ذراعًا، ويتوّج الأسطوانة طاقية مصفقة يعلوها هلال.

في غرفة تقع على يمين الداخل إلى الرواق، يوجد قبر العلامة الحلي، وفي أخرى على يسار الداخل يقع قبر المقدس الأردبيلي.

حيط بهذا المشهد الشريف سور مربع الشكل، بارتفاع سبعة عشر مترًا، وهو مؤلّف من طابقين.

الأول منهما: مؤلف من أربعة وخمسين إيوانًا مقببًا، يتقدم حجرة هي مقبرة لأحد المشاهير، ويسكنها عادة طلاب العلم.

أما الطابق الثاني: فهو عبارة عن إيوان معقود بعقود فارسية مدببة، يتقدم مجموعة من الغرف المقبّبة يسكنها عادة الطلبة والمنقطعون للعبادة، ويحتوي الطابق الأعلى على ثمان وسبعين غرفة، وجميع جدران السور مكسوة بالقاشاني البديع النقش، وعلى حواشي جدرانه العليا مكتوب بعض السور القرآنية بأحرف عربية جلية.

أرض الصحن وعرة لكثرة ما فيها من القبور ومحاريب ظاهرة. وفي الأواوين أيضًا قبور حفرت في أرضيتها لدفن المشايخ والأعلام والفقهاء. أشهر المدفونين في الأواوين آل بويه، ومنهم عضد الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة. وأيضًا الجلائريون، منهم أويس الجلائري، والشيخ حسن الجلائري، والأمير قاسم الجلائري. بالإضافة إلى الصفويين والقاجاريين.

سمعت لاحقًا أن هذه التوسعة في الصحن والبناء تمت من قبل الشاه صفي حفيد الشاه عباس الأول الصفوي حينما جاء لزيارة الإمام علي بن أبي طالب عام (1042هـ/ 1621م) وقد خص هذا الطابق بطلاب العلوم الدينية، وقد سمعت من بعض العلماء بأن المقدس الأردبيلي كان يعيش في الضلع الغربي من جهة الباب السلطاني، الغرفة الأخيرة أو ما قبلها من جهة الساباط.

بعض الطلاب الأفغانيين والباكستانيين يسكنون بعض الغرف من الطابق الأعلى. والطابق الأسفل قد بني لاستضافة الزوار، وتحول بعضها إلى مقابر للأعيان والأشراف والعلماء.

شمال حرم أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى مقربة منه، يقع باب الطوسي، ويسمى أيضًا الشارع الذي وقع فيها المسجد بشارع الطوسي. وقد جدد بناء المسجد سنة (1198 هـ).

وفي الجهة الشمالية من سور الصحن الشريف على يمين الداخل من باب الطوسي، يقع مسجد عمران بن شاهين، هو أقدم مساجد النجف، وينسب إلى أمير البطائح عمران بن شاهين الخفاجي المتوفى (369هـ/ 979م)، كان تشييده مواكبًا لعمارة السلطان عضد الدولة البويهي للمرقد العلوي التي اكتملت في عام (371هـ/ 981م). كان رواقًا من أروقة الصحن الشريف ثم حُوّل إلى مسجد في بداية العهد الصفوي.

وعلى يسار الداخل من باب الطوسي، تقع المدرسة الغروية، لطلبة العلوم الدينية، اختطها الشاه عباس الأول الصفوي عندما أمر بتشييد العمارة الجديدة لمرقد أمير المؤمنين عليه السلام في عام (1023هـ/ 1614م). تتكون من طابقين، مجموع الغرف فيهما حوالي العشر، ينفتح بابها وسط الصحن، وهي إما أن تكون قد بُنيت مع بناء الصحن، أو أن تكون خانًا من الخانات التي كان الزوار يقيمون فيها ثم حولت بعد ذلك على العهد الصفوي إلى مدرسة.

في الجهة الغربية من السور الحيدري يقع مسجد الرأس، مسجدٌ واسعٌ كثيرُ الأسطوانات، والمشهور أن تسميته بهذا الاسم لكونه قد بُني إلى جانب رأس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أو هو موضع رأس الحسين عليه السلام على بعض الروايات، يعود تاريخ بنائه إلى عهد الإيلخانيين كما يقال، باني مسجد الرأس غازان بن هولاكو خان سنة (ت 730هـ/ 1330م). وتم تأهيله عدة مرات من قبل الشاه عباس الأول الصفوي والسلطان نادر شاه.

في المسجد إيوان صغير مربع في الجدار القبلي، بين محراب المسجد، والساباط فيه قبر، على القبر قطعة ستار خضراء، وعليه شباك فولاذ ثمين، وله باب صغير وفيه قفل، وهو موضع رأس الحسين عليه السلام، كما عليه الروايات. وإلى جانب هذا الإيوان صخرة مربعة مكتوب عليها بالخط الكوفي. بعض الزوار بعد أن يقوموا بواجب الزيارة، يأوون إلى زاوية من زواياه، ويقرؤون مرثية في الحسين عليه السلام وكلامًا في مناقبه. ورأينا الهنود الإسماعيلية يزورون هذا القبر.

بجانب مسجد الرأس بناء فخم في غاية الإحكام، معقود بالأحجار الكبيرة، ويشبه بناؤها بناء الصحن الشريف وعلى طرزه يسمى (تكية البكتاشية)، بابها بالقرب من الساباط في

الإيوان الثاني من جهة الغرب في سور الصحن الشريف، ويزعم البعض أنها كانت قديمًا المخزن لكتب الحضرة العلوية، ويرجح أنها بنيت في عهد الحاج بكتاش في القرن الثامن الهجري، وتتكون من قسمين، الأول: خاص بالصلاة والدروس والجماعة، وهو مكون من أربعة أواوين متعامدة يتوسطها صحن صغير مكشوف.

والقسم الثاني: يسكن فيه المنقطعون للعبادة، وهو مربع الشكل، يتكون من طابقين فيهما العديد من الغرف، وما يلزمها.

عند الخروج من الحضرة الشريفة، يواجهنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين، ثم سوق العطارين.

وبإزاء ضريح الإمام علي عليه السلام مدارس وزوايا، معمورة بأحسن عمارة، مزينة حيطانها بالقاشاني، كل لوح مزجج بالأزرق بصورة عامة ومطعم بألوان مختلفة، مرتب من عدة قطع لإظهار تصميم أو زخرفة موحدة، كما في الفسيفساء، وعادة ما تكون هذه الزخارف نباتية أو هندسية متكررة في أنماط مختلفة.



مدينة النجف تقع في منطقة مجدبة، خالية من النبت مثل جدة، لا تتوافر المياه فيها، فالمياه التي تستخدم للطبخ والاغتسال تصل عبر قنوات تمتد تحت الأرض، أما الماء الصالح للشرب فيجلب من مسافة ثلاث ساعات محملًا على ظهور الحمير. البيوت فيها مشيدة من الطابوق المفخور والكلس، والخشب المستورد من الهند، إلا أنها بيوت صغيرة المساحة، وتتميز بعض البيوت بارتفاعها وابتعادها عن المياه الجوفية ففيها سراديب تحت الأرض، حيث يكون المكان باردًا

جدًا في الصيف، ودافئًا في الشتاء. وفيها نوافذ للتهوية. وتقع هذه البيوت في أزقة ضيقة جدًا.

شناشيل بعض البيوت تطل على الزقاق وتكون مظلة تقي المارة حرارة الصيف، فالبيت النجفي مصمم بطريقة يكون فيها السلّم مجاورًا للباب الخارجي، ومنه يتم الصعود إلى الطابق الأعلى للبيت، يستخدم للضيوف عادة، والشناشيل جميلة مليئة بالنقوش، وتحتوي هذه الشناشيل على مساحة تخرج خارج البناء للبيت وغالبًا ما يكون بمسافة متر، تسمى (طلعات)، يضع عليها النجفيون أواني الشرب الفخارية للتهوية حتى تبرد، إذ توضع على جزء حديدي من الشناشيل تطل على الزقاق عادة.

يمتاز البيت النجفي بخصائص تكاد تكون منفردة عن بيوت المدن الأخرى من حيث البناء والتصميم، مما أعطى مدينة النجف خصائص معمارية وتخطيطية وفنية متميزة، يتصدر مدخل البيت باب خشب كبير ذو مصراعين تعلوه وتحف به من الجانبين زخارف هندسية آية في الدقة والجمال، وتزين الباب زخارف بنائية تزيد من جمالية واجهة البيت النجفي المتميز. ويؤدي الباب إلى مجاز يطلق عليه لفظ (الدولان) يختلف في تصميمه من بيت إلى آخر، منه المدخل المنكسر، وهو الأكثر شيوعًا والمدخل ذو المحور المستقيم، ومنه إلى ساحة البيت المكشوفة في الغالب، ومبلطة بالطابوق الفرشي تطل عليه عدة غرف، وغرفة البراني معزولة عن الدخلاني، وسقوف هذه الغرف تكون على شكل القباب (طاق معقود من الجص والآجر) أو مسقفة بجذوع النخل أو جذوع الأشجار الأخرى، وفوقها كميات من السبوس وهو قشور الرز أو الرماد والأتربة وقاية من مياه الأمطار والحرارة والبرودة.

يحتل باحة البيت النجفي في الغالب حوض للماء وبئر ينصب فوق فوهته بكرة خشبية يمر فوقها حبل طويل مصنوع من سعف النخيل يسمى (العدة) ينتهي بدلوين في كل طرف دلو مصنوع من الجلد يغترفون بهما من ماء البئر، ويجمع الماء في حوض يقع في وسط الدار[1].

وتقع البالوعة في باحة البيت، وفي كثير من البيوت بالوعات، إحداها للماء الطاهر، وأخرى للماء النجس، فقد كانت الأسر النجفية تمنع ربط مجرى الكنيف ومجرى مياه الغسيل ببالوعة واحدة لموانع دينية واجتماعية.

صار استقرارنا في أحد هذه البيوت، في رحاب النجف، حيث تمتد أروقة العلم كأنها شرايين تغذي العقول بنور الحكمة، بدأ الميرزا محمد رحلته العلمية. كانت خطواته الأولى نحو الحوزة تحمل ثقل الفقد، لكنها كانت تحمل أيضًا وعدًا بغدٍ أكثر إشراقًا.

وقف عند بوابة أحد المجالس العلمية، عيناه تنبضان بالشوق، وقلبه يضج بحنين المعرفة. لم يكن غريبًا عن العلم، لكنه الآن يواجهه في أعمق صوره، بين أعمدة تمتد جذورها في قرونٍ من الفكر، وبين رجالٍ حفرت أعمارهم على صفحات الكتب.

ذهب إلى إحدى المدارس الدينية، قدم نفسه بكل تواضع، وفتح له باب الحكمة على مصراعيه. هنا، لم يكن العلم مجرد كلمات، بل كان حياة، ولم تكن مجرد دروس، بل كان لقاءً بين العقول والقلوب.

---

(1) هذه الأحواض قد منعتها الرقابة الصحية عام (1936م) بعد وصول ماء الإسالة الحديثة إلى النجف.

وهكذا، بدأت مغامرته في عالم الفكر، حيث الأيام ليست مجرد ساعات تمضي، بل مدادًا يُسكب، وصفحات تُملأ، وعقلًا يشتعل بنورٍ لا ينطفئ.

كان الميرزا محمد يعيش في إيقاع منضبط، تبدأ أنفاسه الأولى مع الفجر، حين ينهض من فراشه ليغسل وجهه بنور الوضوء، ثم يقف خاشعًا للصلاة، لا يسمع إلا همسه المتضرع بين يدي ربه. كانت هذه اللحظات هي زاده الروحي، الذي يعينه على رحلة طويلة في أروقة العلم والمعرفة.

ثم يأخذ طريقه إلى المدارس العلمية، حيث تتردد أصوات العلماء في الأروقة العتيقة، وتعلو أصوات النقاش حول مسائل الفقه والحديث. كان يجلس بخشوع، منصتًا لكل كلمة، يحلل كل عبارة، ويتتبع أدق التفاصيل، كأنما يبحث عن جوهرة المعرفة في بحرٍ واسعٍ من الفكر.

في زوايا المكتبات، حيث تصطف الكتب الضخمة كأنها جدران تحمي أسرار الماضيْ، كان يغوص في النصوص، يتنقل بين صفحات التراث، يدوّن أفكاره، يسأل، يناقش، ويعيد التفكير. كان الليل رفيقه في هذه الرحلة، يمد يده إلى الورق والقلم، يسجل ملاحظاته على ما قرأ، يضع تساؤلاته، يحاول فكّ الألغاز التي تحيط ببعض المفاهيم.

لم يكن مجرد طالب علم، بل كان عاشقًا للمعرفة، يرى في الكلمات أبوابًا تفتح له عوالم لم يكن ليصلها بغير الفكر والتأمل. كان يبحث عن الحقيقة لا لمجرد امتلاكها، بل ليحيا بها، ويجعلها دليلًا ينير له الطريق في مسيرة الحياة..

انهمك الميرزا في الأيام والليالي، تعلم واجتهد، ومشى في

دروب العلم العتيق. أصبح أحد الطلاب المجدين، وعلى جبينه يسمو الإصرار والعزيمة. تنويره لعقله بالعلم والفهم، يتفرد بمسيرة طويلة من البحث والتفكير. بات رمزًا للتحصيل والجد كوسيلة للبحث عن الحقيقة والعلم.

في كثير من الأحيان أراه جالسًا وبين يديه صفحات الكتب أمامه، والأوراق متناثرة حوله كأنها زهرات الورد المبعثرة في حديقة الحكمة. كأنه يحاول أن ينتشل الجواهر المخفية فيها. ينبعث من عينيه الفضول والشغف. في هذا الجو المفعم بالهدوء والتأمل، ترتسم على وجهه ابتسامة خفيفة، فهو يعلم أن كل صفحة تحمل مفاجآت لا تنتهي، وأن كل كتاب يعيد رسم معنى الحياة بألوان جديدة ومتنوعة.

- أراك منهمكًا في التدقيق بهذه الكتب؟ قلت له.

- من تسلى بالكتب لم تفته سلوة، فكيف لمن طلبه للعلم والمعرفة. الكتاب وسيلة يأوي إليها العالم والمتعلم، وما حفظ نتاج العلماء ولا انتقل إلينا تراثهم الفكري إلا من خلال الكتاب، ولا نستطع معرفة قيمة أي شخص أو أمة إلا بعد أن نقف على ما سطروه في مدوناتهم وما صدر عنهم من مؤلفات..

ثم قال باهتمام:

- أنت تتذكر النقاش الذي دار بيني وبين الشيخ الأشعري في الهند؟

- نعم، بالتأكيد أتذكره.

- منذ ذلك الوقت لم يهدأ لي بال، وأنا في تأمل وفكر، أبحث في الكتب وأراجع أقوال العلماء.

انعكست ملامح التركيز والهمة على وجهه، كمن ينغمس في رحلة استكشافية لعوالم جديدة وغامضة. وفي تلك اللحظات، تعانقت أنفاس السكون مع صخب الأفكار.

- وهل وصلت إلى نتيجة ما؟ قلت له مستفسرًا.
- نعم، لقد مَن الله عليّ بما منّ، وخرجت من ظلمات الوهم إلى نور العقل، فرأيت أن كل شبهة يوردها أهل السنة على أخبار الشيعة الواردة في الإمامة، وكل أساس أسسوه للاستغناء عن الإمام المعصوم هي بعينها ما يورده الاجتهاديون الشيعة الظانون على أصحاب الحديث - كالكليني وابن بابويه - والأصوليون الشيعة المتعبدون بالقطع - كالمفيد والمرتضى وابن البراج وابن زهرة والحلبي وابن إدريس وسلار، ونظائرهم - ، ورأيت جواب محققي الطائفة الشيعية لأهل السنة في شبهاتها جواب المحدثين والأصوليين القاطعين للاجتهاديين الظانين بلا تفاوت نقير ولا قطمير. وهذا ما ظهر لي بعد التتبع في الكتب الكلامية والأصولية والفقه الاستدلالي من أهل السنة، وكتب أصحاب الاجتهاد الظني الشيعة، فقطعت القول بطريقة القدماء ورفضت ملة قوم يتبعون الأهواء.

بدأت أحوال الميرزا محمد رغدة العيش بين زملائه والأهالي، مُلهى بنيل الأمالي، مغترفًا من زلال بحر المعان والمعالي، مقتبسًا من شجر الطور، متلمذًا على العلماء (قراءة وسماعًا ورواية) الذين وصفهم هو بقوله:

أولًا: أفضل المجتهدين وقدوة الفاضلين، البحر الطمطام مولانا العلم المفضّل، وقبلة الخاص والعام، الفقيه المحقق المدقق، الثقة الورع، نادرة العصر: السيد مهدي الطباطبائي.

والثاني: سيد المباني وزين المعاني، اليمّ الخِضم القمقام الميرزا محمد مهدي الحسيني الموسوي.

والثالث: سيدنا الورع الزاهد الفهام العالم الرباني السيد محمد الحسيني البحراني.

قرأ عليهم في العلوم ما قد صار بضاعة له من المنقول والمعقول، وربحت بهم تجارته في محافل الفحول. وغيرهم ممن عاصرهم وتتلمّذ عندهم من مشايخ العرب والعجم والهند.

وكان الميرزا محمد يؤم المصلين صلاة العشاءين، في مقام الإمام الصادق عليه السلام[1] وهو جنب جدار الصحن الغروي الغربي، على يسار الداخل إلى الصحن من (باب الفرج)، غرفة قديمة البناء، كالصفّة، فوقها قبّة بيضاء بُنيَت بالجص والآجر القديم، طولها ثلاثون قدمًا وعرضها كذلك.



زعيم الحوزة الدينية هو محمد باقر بن محمد أكمل البهبهاني، إلا أنه انتقل إلى كربلاء من النجف بعد مدة قليلة، لمواجهة المدرسة الأخبارية في كربلاء، وخلال فترة إقامته فيها عمل على أن يربي عددًا كبيرًا من الفقهاء والمجتهدين، ونتيجة ذلك أنه قد تخرج في مدرسته المئات من كبار العلماء حتى أطلق عليه (أستاذ الكل) أو (الأستاذ الأكبر).

حينما بلغ التسعين من عمره، واستولى عليه الضعف، وترك البحث، أمر أبرز تلامذته وهو السيد محمد مهدي الطباطبائي، الذي لقب لاحقًا (بحر العلوم)، للذهاب إلى النجف والتصدي للتدريس لزعامة الشيعة فيها.

---

(1) لم يبق منه أثر، وأدخل ضمن مشروع التوسعة الكبير.

وله كرسي التدريس في النجف، ويحضر درسه مئات العلماء. وهو ذو عقلية قيادية فذة، وقادر على تنظيم الأمور وتوزيع المسؤوليات، والمشكلات التي تقتضيها طبيعة المجتمع.

وهذا كله مما تقتضيه سير الزعامة الدينية. فركز الشيخ جعفر النجفي الذي لقب لاحقًا (كاشف الغطاء)، للتقليد والفتوى، وأجاز السيد محمد بحر العلوم لأهله وذويه الرجوع في التقليد للشيخ جعفر تماشيًا مع التنظيم الذي اتبعه. وعين بحر العلوم الشيخ حسين نجف لإمامة الصلاة، فكان هو من يقيم الجماعة ويؤم الناس على اختلاف طبقاتهم.

وخصّ الشيخ شريف محي الدين للقضاء والخصومات، وكان يرشد الناس إليه. وبقي هو للتدريس والزعامة الكبرى وإدارة الشؤون العامة والخاصة.

بقي الميرزا محمد بمدرسة النجف، وتتلمذ على أيدي الأعلام فيها، وخصوصًا على تلامذة الشيخ يوسف البحراني (توفي 1186هـ/ 1772م)، الذي كان يمثل المدرسة الأخبارية في وقته.

بقينا في النجف الأشرف إلى سنة (1207هـ/ 1792م)، وفي أحضان هذه المدينة في ظل أجواء العلم والفضيلة التي تميزت بها مدينة النجف، ولد للعائلة الكريمة ابنهم الأكبر، الميرزا أحمد. كانت هذه اللحظة منعطفًا مهمًا في تاريخ العائلة، حيث أضاف قدومه نسمة من الفرح والأمل إلى قلوبهم.

خلال هذه السنوات، بقي الميرزا محمد مثابرًا ومنغمسًا في الدراسة، في غمرة الأوراق المتراصة والمعلومات الضخمة، سائرًا في رحلة طويلة ومتعبة لاستكشاف آفاق العلوم الواسعة، متعثرًا بأكوام الأوراق الكثيرة، ليلتقط فكره التفاصيل الأساسية

التي كانت مخفية في بحور النص الطويل. جمع المعقول والمنقول في الفروع والأصول. وأصبحت له يد طولى في الكلام، والإلهيات، والحديث، والفقه، والأصول، وعلم التطبيق، والمعارف، واللطائف. متكلم مُفوه، لا يباريه أحد في الحجة والجدل ولا يباريه ذو عزم ثاقب وهمة عالية، جسور لا تأخذه في الله وفي قول الحق لومة لائم.

في أحد الأيام حضر الميرزا محمد مجلس زعيم الشيعة السيد محمد مهدي الطباطبائي (بحر العلوم)، وهو مجلس شريف ومحفل منيف غاص بأهله الحاضرين. كان الميرزا محمد يجهد على أن يكون أول الحضور، فذهب إلى المسجد، وكان الطلبة والعلماء يتوافدون بالحضور. جاء السيد وحوله بعض طلبته ومريديه، على مشيته هيبة ووقار، لا يلتفت إلى ورائه أو بين يديه إلا لأمر ضروري، قصير الخطوات، متزن النقل، كأنما يريد أن يربط خطواته بسلسلة تفكيره العميق. له هالة عظيمة، وهيبة وجلالة. جلس بين الناس كهيئة المتشهد للصلاة، واضعًا يديه على فخذيه، مطرقًا، أشار إلى أحد خواصه، أن يفتح للناس باب الكلام والمسألة، فكان الناس يسألونه بواسطة أحد الملازمين لخدمته. وبين آونة وأخرى يرفع بصره إلى الملأ ليجيبهم عن الأسئلة الموجهة إليه، أو ليقول لهم أمرًا يريد تنفيذه.

ذكر السيد الطباطبائي في مجلسه الاجتهاديين والأخباريين، فقال:

- إن أول الأخباريين هو المولى محمد أمين، وقبله كانت الطائفة منحصرة في الاجتهاديين.
- أيدكم الله سيدنا، لو سمحت لي؟ قال الميرزا محمد.
- نعم تفضل.

- إن المحدّث المولى محمد أمين الذي ذكرته كان من علماء المائة الحادية عشرة وهو معاصر للشيخ البهائي رحمه الله المتوفى سنة (1030هـ/ 1620م)، وعلماء الشيعة وأهل السنة قد صرحوا في ترجمة بعض الرجال بأن الأخباريين أسبق بمئات السنين منهم.

فالعلامة الحلي يذكر أن الأخباريين من الشيعة الإمامية لم يعولوا في أصول الدين وفروعه إلا على أخبار الآحاد المروية عن الأئمة عليهم السلام، وقد وافق الشيخ الطوسي من الأصوليين على قبول خبر الواحد.

وذكر العلامة الحلي في كتابه (الخلاصة) أن علي بن عطية الأضخم كان أخباريًا. وأن شيخ الطائفة الطوسي ذكر في كتابه (الفهرست) جماعة من الأخباريين.

كما تجد يا سيدنا أن كل من ذكر المؤرخ (لوط بن يحيى أبو مخنف) يذكر بأنه أخباري شيعي.

قال السيد الطباطبائي موضحًا:

- إن الأخباري في كلام السلف بمعنى كثير التوسع في الأخبار. لا بمعنى المتمذهب بها، وذلك باعتبار اللغة لا الاصطلاح.

فبيّن له الميرزا محمد:

- أيدكم الله يا سيدنا، لكن لو كان المعنى في إطلاق السلف اللغة فقط دون الاصطلاح لما كان يصح قول العلامة الحلي بأن الشيخ الطوسي من الأصوليين ويخرجه من الأخباريين، مع كون الطوسي أفضل المتوسعين في الأخبار والمصنفين في آثار الأئمة الأطهار. ولما صح جعل الطائفة الشيعية الإمامية مقسمة قسمين، ثم تقسيمها إلى قسمين.

ضج المجلس، وعلا صوت بعض الحاضرين بإنكار هذا الكلام، وأطرق البعض. فأعاد الميرزا قول العلامة الحلي الذي سبق وأن ذكره.

- هذا من مما انفرد به العلامة الحلي، ولا يوجد أحد يذكره غيره!. قال السيد الطباطبائي.

- هذا لا يضرني ولا ينفعك، فقد ثبت وجود الأخباريين بالمعنى مع تصريح القاضي الجرجاني المتوفى سنة (816هـ/ 1413م) في شرحه لكتاب المواقف بقوله: كانت الإمامية أولًا على مذهب أئمتهم، حتى تمادى بهم الزمان، فاختلفوا وتشعب متأخروهم إلى المعتزلة وإلى الأخبارية. وكذلك ما قاله الشهرستاني المتوفى سنة (ت 548هـ/ 1153م) في كتابه (الملل والنحل) بأن الإمامية كانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول، ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان اختارت كل فرقة منهم طريقة، فصارت الإمامية بعضها معتزلة إما وعيدية وإما تفضيلية، وبعضها أخبارية.

قال السيد الطباطبائي مستدركًا على ما قاله في صدر المجلس:

- إن المولى محمد أمين هو الذي فتح باب التشنيع على المجتهدين.

- ليس الأمر كذلك، بل جماعة من أصحاب الأئمة عليهم السلام قد ردوا على مسلك الاجتهاد، مثل الفضل بن شاذان، وهو من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام.

- هم قصدوا رد العامة لا الخاصة. قال السيد الطباطبائي.

- قد رد المفيد (طاب ثراه) على ابن الجنيد في نقض اجتهاد الرأي. أجابه الميرزا.
- لكن الرد لا يستلزم التشنيع.
- شنع المفيد على الشيخ الصدوق رحمه الله ونسبه إلى قلة الفطنة، ورد السيد المرتضى عليه وشنع عليه غاية التشنيع. وشنع ابن إدريس على شيخ الطائفة الطوسي، والشهيد الثاني أيضًا في رسالة له باسم (نقض الإجماعات)، وشنع على ابن إدريس وعلى المحقق الثاني فخر الدين محمد بن إدريس العجلي. وذكر الشيخ يوسف البحراني في كتابه (لؤلؤة البحرين) بعض ما شنع به على ابن إدريس والمحقق الثاني، وكل هؤلاء متقدمون على المحدث الأمين الإسترآبادي (طاب ثراه).

ثم قرب الزوال، فقام الناس وقمنا. خرجنا من المسجد، والناس يراقبوننا، وكل خطوة خارج الباب كانت مثل فتح صفحة جديدة في حياة الميرزا.

أثناء الطريق، وإذا بمنادي ينادي السيد محمد: يا ميرزا محمد!

توقفنا، التفت إليه الميرزا محمد، قال بعد أن ألقى السلام علينا:

- أستميحك العذر، أنا كنت حاضرًا في الحوار الذي دار بينك وبين السيد الطباطبائي، وبدر في ذهني سؤال.
- نعم تفضل، أجابه الميرزا.
- بودي أن تحدثني أكثر عما أثرته في مجلس السيد بحر العلوم.

فذهبنا إلى إحدى المدارس، وجلسنا فيها وبدأ الميرزا يحدثه باقتضاب:

افترق أصحابنا بعد غيبة باب الأبواب، الإمام المهدي، إلى فرقتين:

فرقة اعتمدوا على أصول أربعمائة، كانت مدونة في زمن حضور الأئمة ﷺ، ومعروضة عليهم، أمروا بأخذها وكتابتها وروايتها وتوريثها، جُمعت منها مما قد اجتمعت الطائفة الشيعية على تصديقها، وأجمع الشيعة على قطعية انتسابها.

وكانوا مسلّمة، يعملون بكل ما صح عن الطائفة الشيعية، وسموا (مسلّمة المحدثين)، لأن الأصل في الإسلام هو التسليم.

ثم صار يبين له اختلاف الحديث، وكيفية الترجيح بين الأحاديث المتعارضة، وكيف يمكن العمل بها، وعلاقة التسليم بالترجيح. ثم قال:

الفرقة الثانية: وهم الأصوليون، نسبة إلى الأصول، وهي جمع الأصل. وله معان أربعة، والمقصود بها: القاعدة التي تتفرع منها أحكام جزئية مناسبة، ولم يكن قبل المعاصر الأصمّ من الإسلاميين فضلًا عن الإمامية المُحقّين من يقول بجواز مظنونِيتها فضلًا عن جوازِ مظنونية الأصول الدينية.

اعتمدوا على الكليات المروية عن أهل البيت ﷺ، المقطوع بها؛ لإشاعتها وإذاعتها، أو ضرورة المذهب والدين، أو إجماعِ الطائفة المُحقة، أو المسلمين، وعرضوا كل ما خالفها عليها، فإن وافقها أخذوا به، وأعرضوا عن الأخبار التي حسبوها أخبار آحاد، فسمو بـ(الأصوليين).

فكل اجتهادي أصولي، وليس كل أصولي باجتهادي، لأن كل من جوز التعبد الاجتهادي والظن من الأصوليين فهو مجتهد

متعبد بظنه، وكل من منع من ذلك من الأصوليين على مصطلح الخاصة فهو فقيه متعبّد بعلمه كالمفيد والمرتضى.

فإن الأصوليين غير المجوزين للاجتهاد موافقون مع الأخباريين في كثير من أصولهم؛ ولا خلاف بينهم وبين الأخباريين إلا في ما شذ وندر. وقد خفي هذا الفرق على الأكثر.

وأقدم نص شيعي ذكر تقسيم الإمامية المتقدمين إلى أصوليين وأخباريين هو ما ذكره العلامة الحلي (المتوفى 726هـ). وقد اعترف بأنهم كانوا هم غالبية الإمامية؛ وأنهم لا معول لهم في أصول الدين وفروعه إلا على أخبار الأئمة. وأن الأصوليين المتقدمين وافقوهم في العمل بخبر الآحاد؛ إلا المرتضى ومن تبعه.

ثم قال له الشيخ بحماسة:

- لو تكتب شيئًا عن جماعة من القدماء والمتأخرين من علماء الإمامية الذين صرحوا بنفي طريقة المجتهدين وأخذوا مسلك الاقتصار على الكتاب والسنة، فسموا تارة بالأخباريين، وتارة بالمتوسطين، وأخرى بالمحتاطين وأخرى بالأصوليين، وأخرى بالمحدثين.

فبادر الميرزا بالقبول: نعم، إن شاء الله سوف يكون ذلك.

عكف الميرزا محمد بعد ذلك على كتابة مؤلف في هذا الخصوص وسماه: (منية المرتاد في ذكر نفاة الاجتهاد) وذكر فيه مئة علم من الأعلام.

كما انه ذكر جماعة منهم في كتاب آخر سماه: (ميزان التميُّز) وكتبه باللغة الفارسية، وناقش معنى الاجتهاد، وذكر جملة من القائلين بعدم جوازه في كتابه: (مصادر الأنوار)، الذي قال في

مقدمته: (الحمد لله الذي عمر محافل القدس بالموقنين، وزين مجالس الأُنس بالمؤمنين، والصلاة والسلام على من ابتعثه أسوة للعالمين، وأمرنا باتباعه من بين العالمين، وعلى آله وصحبِهِ السابقين، أما بعد: فيقول الجاني أبو أحمد محمد بن عبد النبي بن عبد الصانع النيسابوري الخراساني، من الله عليه بنيل الأمان: إنه قد جرى بيني وبين أفضل المجتهدين قدوة الفاضلين متع الله ببقائه الطّالبين والطالبيّين عند حضوري في مجلسه الشريف ومحفله المنيف ذكر الاجتهاديين والأخباريين...) الخ.



بقي الميرزا يدافع وينافح عن فكر آل محمد بقلمه ولسانه، متمسكًا بالكتاب والعترة كمصدري تشريع وحيدين، ورفض غيرها من المصادر التي اعتبرها دخيلة، متحملًا في ذلك شتى المحن من خصومه سبًا، وقذفًا.. وأشيع عنه أنه يريد أن يعيد الفكر الأخباري، وصاروا يطلقون عليه محمد الأخباري حتى اشتهر به. مع أنه كان يعتبر هذا اللقب هو من باب التنابز في الألقاب. وأنه لا يصح أن يطلق على حاملي حديث أهل البيت عليهم السلام. فإن الله عمَّ بنهيه المؤمنين حينما قال: (وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) عن أن يسخر بعضهم من بعض بجميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، وإطلاق المجتهدين على غيرهم بالأخباريين هو من باب التشنيع والاحتقار. لهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن التنابز ليحفظ للمسلم كرامته وسمعته وشرفه ومعالم شخصيته، لأن للاسم عمومًا، لقبًا كان أو علمًا، تأثيرًا في حياة حامله سلبًا أو إيجابًا، فمن ألحق به لقب أو صفة عن طريق التنابز سرعان ما تغدو لصيقة بسلوكه وشخصيته.

- ما الفرق بين الأخباري والمحدث؟ سألته، قال:

إن الخبر الاصطلاحي علم لعلم التاريخ والسير والملاحم والأنساب والوقائع والحوادث الماضية، وصاحبه أخباري، وهو يستعمل لهذا المعنى. أما الحديث فهو قول الحجة المعصوم أو حكاية قوله أو فعله أو تقريره. وحامله محدث. وبين الأخباري والمحدث عموم وخصوص، فرب أخباري لا نصيب له من علم الحديث، ورب محدث لا معرفة له بالأخبار، ورب جامع للوصفين، أو فاقد لهما.

إلا أن المبدعة سموا المحدثين الذين سماهم النبي ﷺ خلفاء له بقوله (اللهم ارحم خلفائي) وترحم عليهم ثلاثًا، بالأخباريين من باب النبز بالألقاب، وإطلاقًا لاسم الخبر على حديث سيد البشر.

الأصوليون شديدو التعصب على جماعة الأخباريين خصوصًا المتأخرين، مثل الشيخ جعفر كاشف الغطاء، تبعًا لأستاذهم الآقا البهبهاني.

الأخباريون قبل ظهور الآقا البهبهاني وانتشار أمره قد ملأوا الأقطار والأنحاء، وصار مذهب الأصولية في جنبهم كالعدم. حينما ظهر الأمين الإسترآبادي وألف كتاب (الفوائد المدنية) في سنة (1031هـ/ 1621م) في مكة المكرمة، وكان قبل ذلك مجازًا بالاجتهاد. فشيد طريقة المحدثين، وفنّد طريقة المجتهدين، وانتشر كتابه في الأقطار، استطاع من خلال هذا الكتاب، وهو كتاب واحد، أن يوجه صفعة قوية للمدرسة الأصولية جعلتها تترنّح؛ ولا تتعافى منها، وهذه الصفعة أحدثت انقلابًا في الفكر الشيعي، فبزغ نجم الأخبارية وشاع في مذهب الإمامية وتضاءلت الأصولية.

ومنذ تأليف هذا الكتاب (الفوائد المدنية) بدأ يظهر الصراع

بين المدرستين بشكل جلي، ونتيجة لذلك أراد أتباع المدرسة الأصولية الدفاع عن فكرهم واستعادة مكانتهم، ونشبت بين الطرفين حرب كلامية، انبرى فيها كل طرف للرد على الطرف الآخر، وتصدى جماعة من الأصوليين للرد على الأمين الإسترآبادي، حتى بلغ الأمر إلى اتهامه بشرب الأشربة الرّدية المغيرة للعقل الخارجة عن الحد المشهور، واتهمه الشيخ علي حفيد الشهيد الثاني في (السهام المارقة) بشرب الأفيون.

وبعد انتقال الشيخ يوسف آل عصفور البحراني صاحب كتاب (الحدائق الناضرة) إلى كربلاء صارت مركز نشاط للأخباريين؛ فقصدها أيضًا الشيخ محمد باقر البهبهاني، ورأى أن أنجع الطرق للقضاء على الأخباريين هو البدء برأسهم، فلجأ أولًا في هجوم استباقي إلى إنزال الشيخ يوسف من منبر التدريس، ثم منع حضور درسه، وأفتى بعدم جواز الصلاة خلفه بهدف عزله دينيًا واجتماعيًا، ثم كنوع من الحرب الإعلامية أشيع أن تلامذته عدلوا عن الأخبارية، والتحقوا بالبهبهاني، وفي الحقيقة هم في الأصل كانوا مجتهدين كالمير علي صاحب الرياض، والنراقي صاحب معتمد الشيعة، والحائري صاحب منتهى المقال، والميرزا القمي صاحب القوانين، والسيد محمد مهدي بحر العلوم.

ثم أشاعوا أن الشيخ يوسف عدل أيضًا بعد مباحثاته مع البهبهاني إلى الأصولية، مع أن الشيخ يوسف ذكر في مقدمات كتاب (الحدائق) أنه كان ينتصر للأخبارية، وأودع بحوثه المؤيدة لذلك مع بعض مشايخه المجتهدين في كتابه (المسائل الشيرازية) لكنه بعد التأمل رأى أن الأليق غض الطرف، لاستلزام ذلك القدح في علماء الفريقين وتشنيع المخالفين على الشيعة انقسامهم، وذكر أن الإسترآبادي أصاب في جلة من المسائل،

إلا أنها لا تثمر فرقًا يوجب هذا الشقاق. وما كان ذلك منه إلا إرخاءً للستر وإصلاحًا للفرقة. وإن كانوا لم يوافقوه في طريقته؛ لكنه رحمه الله تعالى عالم رباني يجل العلماء ويعظمهم ويحامي عنهم. ولم يكن من متعصبي الأخباريين، بل كان برزخًا بين الطرفين، لكن البهبهاني لما رأى أن الشريعة الغراء لا تستقيم إلا بمحو اسم هذه الفرقة العمياء!؛ لأن العوام اتبعوهم، فضلوا وأضلوا أجمعين!

بعد وفاة الشيخ يوسف لم يكن في كربلاء من العلماء الأخباريين من يخلفه في مقامه؛ فأعلن الأصوليون الانتصار؛ وسمي البهبهاني بالوحيد والمجدد، وصفى لهم الجوّ، وضعفت شوكة الأخباريين.

لهذا لم يستطع الميرزا محمد من البقاء في النجف الأشرف، وصار قراره أن نذهب إلى الكهف المنيع والطور الرفيع مشهد مولانا ومولى الثقلين أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

المحطة السادسة

العراق - كربلاء (1205هـ - 1790م)

شددنا الرحال من النجف الأشرف، بعد أن ودعنا المرقد الطاهر والمآذن التي طالما صدحت بصوت الحق. كانت القافلة تتحرك ببطء تحت سماء صافية، والغبار يتراقص مع خطوات الجمال وهي تشق طريقها عبر الصحراء الممتدة. كان الميرزا محمد صامتًا أغلب الطريق، غارقًا في أفكاره.

لم يكن هذا مجرد سفر، بل رحلة توديع لمرحلة من عمره، واستقبال لمرحلة أخرى لا يعلم ما تخبئه له..

في الليالي الباردة، حين تتوقف القافلة للراحة، كان الميرزا محمد يبتعد قليلًا عن ضوضاء المسافرين، يرفع بصره إلى السماء، حيث النجوم تحرس سكون الصحراء، ويتلو آيات القرآن بخشوع، كأنما يناجي وحدته، أو يبحث عن يقين يضيء له الطريق فيما هو قادم.

عبر طريقنا مررنا بمرقد النبي ذي الكفل (حزقيل)، ليس في بنائه شيء مميز، فهو قبر محاط بأربعة جدران، وله منارة صغيرة، وبجانبه بعض المساكن البسيطة يحيط بها وبالمرقد سور يرتفع إلى حوالي ثلاثين قدمًا، يقال إن هذا السور مشيد من قبل رجل يهودي، وسمعنا أن مئات اليهود سنويًا يأتون لزيارة المرقد.

ثم وصلنا مدينة الحلة، تقع على الساحل الغربي للفرات،

مدينة واسعة، تعج بالبساتين، القليل من البيوت مشيد بالطين المفخور، وأما البيوت الأخرى فمشيدة من الطين المجفف بالشمس، في المدينة جامع ذو منارة، وخارج المدينة مساجد أخرى، منها مسجد (رد الشمس)، وهو المكان الذي ردت فيه الشمس للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

بجوار الحلة مررنا على أطلال مدينة قديمة، قيل إنها أرض بابل، وجميعها عبارة عن تلال كبيرة متآكلة، جدرانها البارزة فوق الأرض نقلت منذ زمن بعيد، أما الجدران الأساسية فما زالت باقية، وقد شوهد بعض الناس أنهم يستخرجون الأحجار منها لنقلها إلى الحلة.

طريق كربلاء، مشهد الحسين، طريق زاهر، تحفه البساتين والحدائق، تكتظ في جانبيه أشجار النخيل والليمون، حركة المارة نشطة في هذا الطريق، الكثير من المارة نسوة يمتطين الدواب أو يقطعن الطريق سيرًا على الأقدام. شاهدنا أيضًا مجموعة قوافل قادمة إلى كربلاء من بغداد، لا يقل عدد المسافرين فيها عن مائة شخص، قسم منهم يمتطي الخيول وقسم آخر يمتطي الإبل، وكانت النساء يُحملن في (التختروان) شبيه بالمحمل، أو السرير، له ذراعان من الأمام والخلف، تحمله دابتان، من البغال أو الجمال أو الخيل، ويكون في الوسط، وفي داخلها فرش مناسب لشخصين، وهي مريحة أثناء السير على الرغم من تمايلها الكثير. وقسم كبير منهم كان يخوض هذه السفرة الطويلة المتعبة راجلًا.

وصلنا إلى بلدة مشهد الحسين عليه السلام، بلدة قديمة واقعة في جنوب غربي بغداد، تبعد عن الفرات عشرين ميلًا، مسورة بسور من اللبن المجفف، وسعف النخيل، ولها خمسة أبواب. تأخذ

المدينة شكلًا دائريًا يحيط بمرقد الإمام الحسين وأخيه أبي الفضل العباس عليهما السلام، تحيط بهما البساتين والآلاف من البيوت، مبنية بناءً محكمًا باللبن المجفف بالشمس، كما هي الحال في البصرة والحلة، لكنها غير مرتبة، جادتها ضيقة وملتوية، فيها خانات وأسواق، ومليئة بالبضائع والسلع، يزدحم فيها السكان، وهي أوسع من بلدة النجف، وعدد سكانها أكثر من سكان النجف، هواؤها رطب لأنها محاطة بمستنقع[1]. وجدنا فيها الكثير من الزوار الهنود والإيرانيين، لدرجة شيوع اللغة الفارسية فيها، فيستطيع من يجهل العربية أن يتفاهم مع كل سكان المدينة تقريبًا دون عناء.

تحتوي المدينة على ثلاثة أطراف (محلات)، تعرف بأسماء منسوبة للعشائر الذين سكنوها من قبل.

تتلاطم أصداء أصوات الحياة فيها وتنبعث الروح البسيطة للناس، ترتسم لوحة مؤثرة لأصحاب القلوب الطيبة والأيادي الجارية. ينطلقون وسط الساحة بين الإمامين، يعبرون عن رمزية البذل والعطاء في أجمل صورها.

ترتسم وجوههم المجتهدة بأثر التعب والجهد، ولكن البهجة والسرور يشعان من أعماقهم، فهم يعلمون أن ما يقومون به ليس مجرد عمل يومي بل هو بذرة صغيرة من الخير تزرع في أرواح البشر. يدورون بقربهم الجلدية الملأى بالماء، وبين أيديهم أواني ماء نحاسية جميلة، وكأنها تحمل معها ليس فقط الماء بل الأمل والراحة لزوار المدينة. تنثني أعناقهم تحت وطأة

(1) تم إصلاحه من قبل الحكومة بواسطة دائرة الري، وفتح له بزل سنة 1929 م ليجفف مياهه.

حمولتهم، ولكنهم يسيرون بخطوات ثابتة وصامتة، كمن يتوشحون بمهمة إلهية. يمر السقاة كالأرواح النقية بين الناس. يسقون الماء للناس طلبًا للأجر الأعلى، لا في الدنيا بل في الحياة الآخرة، حيث تكون الثمرة الحقيقية لعملهم الصالح تنتظرهم بفرح وبهجة لا تُضاهى، إحياءً لذكرى الإمام الحسين عليه السلام الذي قتل في هذه البقعة عطشانًا.

تتناغم أصواتهم مع صوت الآنية النحاسية التي يحملونها، يضربون بعضها ببعض، وينادون: (في سبيل الله يا حسين).

في كربلاء يكثر صنع (الترب) والمسبحات المصنوعة من طين كربلاء، وعليها إقبال واسع من المؤمنين، وهي بأشكال وأحجام مختلفة، ومنحوت عليها أشكال جميلة، تصنع في مكان خاص لأسرة من سادات كربلاء[1].

وصلنا إلى سور الإمام الحسين عليه السلام، تعلوه قبة رفيعة السماك متصلة بالأفلاك، مذهبة حديثًا، تم تذهيبها من الخارج وتجصيصها من الداخل، من قبل الدولة القاجارية في إيران في سنة (1206هـ). وله مئذنتان مذهبتان حد الحوض. وفي مؤخرة الحائر الحسيني، وسط الجانب الشرقي من الصحن،

---

(1) من اجتهادات الشيخ علي بن الحسين الكركي العاملي المعروف بالمحقق الثاني (ت 993هـ)، تخصيص السجود على (التربة) الحسينية، من باب الاستحباب، وهي قطعة من الطين الأملس المفخور من طين كربلاء، يتبرك به وتوضع عليه الجباه حين السجود في الصلاة. وقبل الشيخ الكركي لم يكن معروفًا السجود على التربة وإنما كانوا يسجدون على الأرض وما أنبتت بشرط أن يكون غير مأكول أو ملبوس، وكتب عنها: (رسالة في السجود على التربة المشوية) سنة (933هـ/ 1526م).

منارة متينة البنيان، تسمى (منارة العبد) قطر قاعدتها عشرون مترًا وترتفع إلى ما يناهز الأربعين مترًا، مزينة بالفسيفساء النادر والقاشاني البديع[1].

للسور الحسيني ستة أبواب، مصنوعة كلها من الأخشاب الفاخرة، تعلو كل منها عقدة من القاشاني البديع المزخرف، تزوقها آيات قرآنية أو أبيات شعرية، في الباب الرئيسي لسور الإمام شمعدان كبير، الضريح من الداخل يأخذ مجامع القلوب، وتلابيب الأفهام، فيه مجموعة قناديل من الفضة والذهب، فيه زخاريف بديعة ومرايا متلألئة، وعلى القبر الشريف صندوق من الخشب مطعم بالعاج، مزخرف بأشكال هندسية، وعليه شبكة فضية.

ويتفرع من وسط الجانب الشرقي منه مشبك صغير من الفضة وهو على ضريح ابنه علي الأكبر الذي دفن بقربه، ومن داخل الرواق إلى الجهة اليسرى منه قبر لحبيب بن مظاهر الأسدي، عليه مشبك من النحاس، وفي الزاوية الجنوبية من الإمام ضريح واحد جمع فيه الشهداء الذين استشهدوا مع الإمام الحسين عليه السلام في معركة الطف.

في الصحن الشريف خارج الرواق يقع ضريح، هو للسيد إبراهيم المجاب.

وفي الجهة الأخرى ضريح الإمام العباس عليه السلام، وبناؤه يشبه كثيرًا بناء حضرة الإمام الحسين عليه السلام، وبينهما ساحة فارغة بمسافة ألف قدم تقريبًا.

توجد عدة مساجد أقيمت للصلاة والدراسة، أحد أقدم مساجد مدينة كربلاء، مسجد شيده عمران بن شاهين أمير

(1) هدمت هذه المنارة في عام (1937م)، بحجة ميلانها إلى الانهدام.

البطائح في القرن الثامن الهجري، ملحق بمبنى الحرم الحسيني. ومن جهة رأس الإمام الحسين عليه السلام، بالقرب من باب السدرة، مسجد باسم (رأس الحسين)، شيد بأمر عضد الدولة البويهي، ملاصقًا للحرم، عندما أعاد بناء مرقد الإمام الحسين عليه السلام سنة (369هـ/ 980م)، وهو المكان الذي وضع عمر بن سعد رأس الإمام عليه السلام يوم العاشر من شهر محرم الحرام سنة (61هـ/ 680م)، ثم حمله في اليوم نفسه إلى الكوفة.

ومدرسة (السردار) حسن خان القزويني، شيدها سنة (1180هـ/ 1767م)، أكبر مدرسة في كربلاء، تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من صحن الإمام الحسين عليه السلام، مدرسة واسعة وكبيرة، تحتوي على سبعين غرفة، فيها مكتبة ضخمة، جدران المدرسة مكسوة ببلاطات مزخرفة بدقة ومنقوشة بأشكال هندسية متقنة وبديعة، تعلوها آيات قرآنية منقوشة بروعة وجمال[1].

وفي أحد الأزقة مسجد أقامه الآغا باقر البهبهاني، وفي الجهة المقابلة منه مسجد شيده الشيخ يوسف البحراني. وقرب أحد أبواب الحرم الحسيني مسجد قام ببنائه السيد الميرزا مهدي الموسوي الشهرستاني[2].

(1) هدمت كل هذه المساجد في عام (16 محرم 1368هـ - 18/ 12/ 1948م)، في مشروع إيجاد الشارع الدائري حول الحضرة الحسينية الشريفة، وأزيلت بعض المدارس والمساجد في آذار (1991م) بعد الانتفاضة الشعبانية، لتحولها دائرة الأوقاف الدينية آنذاك إلى عمارات سكنية!.)

(2) هدم هذا المسجد في سنة (1399هـ/ 1978م) ضمن أعمال توسيع الشوارع والساحات حول الحائر الحسيني.

أقمنا في جوار سيد الشهداء، حيث تمتزج رائحة التربة العابقة بالذكرى، وتحيط بنا جدران تحكي حكايات الفداء والبطولة. كان الميرزا محمد يمضي أيامه بين الزيارة والتعبد، مستشعرًا سكينة المكان وروحانيته، كأنما يجد في كربلاء ملاذًا لنفسه المثقلة بأسفار العلم والترحال.

وفي أثناء إقامتنا هناك، منَّ الله عليه برزق كريم، إذ وضعت زوجته مولودة جديدة، فتاة صغيرة بعينيها الواسعتين وملامحها الهادئة، كأنها تحمل في نظرتها سر هذا المكان المقدس. امتلأ قلب الميرزا محمد فرحًا، وكيف لا؟ وقد وهب له الله نعمة الحياة في رحاب من استشهد من أجلها.

نظر إليها بحنو، وعندما سُئل عن اسمها، لم يتردد لحظة: زينب... تيمنًا بسيدة الصبر، زينب بنت علي عليها السلام.

همس باسمها وكأنما يحمّل الحروف عهدًا، أن تكبر ابنته على خطى من سُميت باسمها، أن تحمل في قلبها الإيمان، وفي روحها العزيمة، وفي صوتها الحق الذي لا يخشى ظالمًا.

بقي الميرزا محمد سائرًا على النهج الذي اختطه، فاستضاء بأخبار حكم أئمة الهدى، واستفاد من علماء ذريتهم، وفاز بلطف الله ومنه لما خصه ببعض الإشارات والبشارات، فخلع ربقة التقليد السحيق، ورتع في مرابع التسديد ومراتع التوفيق، وورد مشارع التدقيق ومناهل التحقيق، فألهمه الله تعالى اتباع النور المبين وحكم الأئمة الطاهرين الهادين المهديين عليهم السلام.

وبيّن لي بأنه الآن قد خرج من ظلمات الأوهام والظنون والتخمين، إلى جنات أنوار البرهان واليقين، وصنف وألف، وشرح وعلق، مع تخلل الأسفار المبعدة، وجري الأقدار المشرّدة المطردة.

صاغ مبادئ فكره بصيغة عقلية تصمد أمام نقد المجتهدين الأصوليين المعتمدين على العقل في تفنيد حجج خصومهم، واستخدم أساليب الإلزام الكلامي، لأنه استقرأ استقراء تامًا مناظرات الأئمة عليهم السلام، مشكاة الأولياء المتكلمين، ومصباح العرفاء الصادقين، وأصحابهم مع خصومهم واحتجاجاتهم؛ وسخّر ذلك واستفاد منه في مناظراته وردوده. واستلهم منها زخمًا كبيرًا من مهارات التعاطي مع الطرف المناظر أو المردود عليه ودفع إيراداته وحججه.

فذهب ذات يوم إلى مجلس الآقا محمد باقر البهبهاني، حيث كان المجلس يعجُّ بالعلماء وطلبة الفقه، يتدارسون المسائل ويبحثون في أعماق النصوص. جلس الميرزا محمد بخشوع بين الحاضرين، ينصت إلى النقاشات، وقلبه يمتلئ بالرهبة والتقدير لهذا المجلس العامر بالعلم.

وبعد أن خفتت الأصوات قليلًا، استجمع شجاعته، ثم توجّه بسؤاله إلى الآقا البهبهاني، بنبرة ملؤها الاحترام والتوقير:

- أي دليل أدل وأي برهان أقطع على جواز التعبد بما حسبه الفقيه ظنًّا؟، وما الميزان في نفسه الذي يفرق له به بين عجزه عن الدليل العلمي حتى يجوز له الأخذ بظنه؟، وما الميزان الذي بين الظن والاعتقاد المبتدأ والجهل المركب؟، أثبت علي على سبيل التعليم والتفهيم.
- قال: التكليف باق والعلم مُنسد، والتكليف بما لا يطاق قبيح من الله تعالى فتعين العمل بالظن، لأنه أقرب مفهوم إليه.
- قولك (التّكليف) تفعيل من كلّف متعد إلى المفعول لا محالة، فلا بد له من فاعل وقابل؛ فبين لي هذا التكليف

ممن؟، من حكيم أو سفيه؟ مقتدر أو عاجز؟؛ منتفع أو نافع؟، ذي وحي أم لا؟، ناصح أم غاشّ؟، مصلح أم مفسد؟، إلى عاقل أو سفيه؟، قادر أو عاجز؟.

- قال: من حكيم مقتدر نافع ناصح مصلح، إلى عبده العاقل القادر.
- بشرط عقلي أم لا بشرط؟
- قال: بشرط.
- ذلك الشرط بيان واصل، وإزاحة علّة العبد من إقرار ومهلة في وقت أم لا؟.
- قال: لابدّ من بيانٍ واصل وإلا لزم التكليف بما لا يعلم؛ وهو قبيح من باب التكليف بما لا يطاق.

فسأله الميرزا محمد أكثر:

- فالبيان واجب عقلي على الفاعل شرط فعله وهو التكليف أم على القابل شرط قبوله وهو العمل والامتثال؟
- قال: شرطُ فعل الفاعل وهو المكلِّفُ (تعالى شأنه).
- بيانه نفسُ بقاء البيان إلى آخر الدنيا لسائر المكلّفين، أم لابد من قيّم لبيانه، حافظ إياه من زيادته ونقصانه؛ مظهرًا إياه عند كتمانه، وإلا لبطل نصب الحجّة وبقاؤه؟.
- قال: لابدّ من قيّم لبيانه حافظ إياه من زيادته ونقصانه؛ مظهرًا إياه عند كتمانه.
- هل يُشترط عصمة القيّم وعلمه بالبيان؛ وقدرته على الإيضاح بالتبيان لمن أخلص واستخلص أم لا؟
- قال: نعم، لابدّ من ذلك، وإلا لانتفتْ علة نصب الإمام المعصوم؛ ولفسد مذهب الإمامية في امتناع خلوّ الأرض من الحجة.

- فغرض سدّ باب العلم بالبيان الذي هو شرط عقلي لصحة التكليف من الحكيم تعالى؛ الغني المطلق المصلح اللطيف لعبده الذي أقدره عليه؛ وأزاح علته؛ ليبلغه دارًا خلقه لأجلها من الفاعل الحكيم تعالى أم الواسطة المعصوم أم القابل؟.

فإن كان من الفاعل فهو إخلال بالواجب عليه بما أوجبه على نفسه وهو نقص ينافي الواجب الذّاتيّ، أم من الواسطة المعصومة، فينافي عصمته، وينقض الغرض من نصبه.

- قال: كلا، ثم كلا؛ بل من القابل؛ كما صرح به أستاذ محققي الطائفة المحقّة نصير الدين محمد الطوسي في رسالة (تجريد العقائد) وتصرفه لطف آخر وعدمه منّا.

قال الميرزا:

- فالامتناع من القبول من الممتنع اختياري أم طبيعي أم قسريّ؟

- بل اختياري؛ لأن الفعل القسري والطبيعي لا يتعلق به فعل الحكيم أبدًا.

- فالامتناع من الاهتداء من قصور أم تقصير؟.

- قال: من تقصير وإلّا لم يكن مُكلّفًا.

- المقصّر آثم مستحقّ للعقاب أم معذور عند الخطاب.

- قال: بل آثم مستحقّ للعقاب في تركه للفرائض والواجبات، ومستأهل للعتاب وحرمان الثواب عند تركه للمستحبات.

- هل يجوز في العقل أن يرمى المستحق لإدراك الحكمة ونيل الثمرة من فعل الأصلح وحيازة الغرض؛ مع كونه مستحقًّا غير مستخفّ بجناية غرضه من الأعداء والشّاكين.

- قال: لا يجوز ذلك.
- فسدّ باب البيان المحفوظ إلى يوم الدين المزاح به علّة المخلصين يجوز سدّه على المخلصين بفعل المرتابين؛ وتصبح غلبة مشيئتهم مشيئة ربّ العالمين في نيل الغرض للمُخلصين؟
- قال: لا يصح حرمان البريء من المصلحة والغرض الذي تحت المأمور بفعل الجاني.
- فما معنى سدّ باب العلم بالبيان على المخلصِين في ولاية أمناء الرحمن؟
- قال: إن الله قَبِل منهم العمل بالظّن وأثابهم على المظنون إثابة العامل بالمتيقن المعلوم فضلًا منه وكرمًا؛ وإن الله لذو فضل على العالمين.
- هل يصح التساوي في الكمال بين الثواب المستحق فاعله بنيل مصلحة وغرض ذاتٍ في ذلك الفعل الخاص؛ المبعوث لتبليغه الرسول النازل بحكمه جبرئيل؛ المنصوب لحفظه عن التغيير والتحريف السادة الأمناء المعصومين وبين الثواب التفضّلي لا الاستحقاق من فاعله بنيل الغرض من ذلك الفعل الخاص؟
- قال: لا؛ لأنه حينئذ يتساوى البعثة والتنزيل ونصب الوصي لبيان التأويل وعدم كل ذلك؛ ويرجع المذهب إلى القول بسقوط الحكمة في أفعاله تعالى أولًا، وفي نفي الغرض في أوامره ونواهيه المعلوم ثبوتها بضرورة مذهب العدلية؛ وأئمة أهل البيت الطاهرِين سلام الله عليهم أجمعينَ ثانيًا، ومنع المخلص المستحق للثواب الاستحقاقي لأحد بالأحكام

الحقيقية بتقصير غيره من غير المخلصين ثالثًا، والله تعالى يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، ثم يقول: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فكيف جاز سد باب الأدلة الواقعية على شيعته المخلصين مع تصرف الإمام في بواطن المؤمنين واحتجابه الظاهر عن المنافقين.

- فالمعاند المقصّر إن مَنَعَ اللطف وإمضاء الأصلح عن نفسه فلا حجة له عند ربه في عمله بالظن عوضًا عن العلم، وليس بمعذور ولا مثاب على ضوابط أصول الإمامية، وأما القاصر عن الشيء؛ فليس بمكلّف به، والمقصّر غير المخلص ولا المقصّر لا يتصور في حقه سد باب العلم؛ فلا يلزم له التكليف بما لا يطاق، ولا يصح التعبد بالظن بدلًا عن العلم عند المبرهنين بالاتفاق.

- قال: إذا امتنع حفظ البيان سقط التكليف بذلك بعينه عند الإمعان.

- هل كان امتناعه ذاتيًا؛ وهو شرط التّكليف عقلًا؛ فليزمه امتناع التكليف ذاتًا؛ وهو غير مذهب الملاحدة.

- قال: لا؛ بل امتنع بالعرض.

- الامتناع بالعرض إما لنقص في العلة الفاعلة؛ وهو إرادة الله تعالى التي قد تعلقت بوجوب حفظه بإنزال الملائكة المعصومين أوّلًا، على الأنبياءِ المعصومِين ثانيًا؛ ببيانهم مفصلًا أو مجملًا للنواب المنصوص عليهم بين الرعية الثقات العدول أجمعين ثالثًا؛ وفرض النقص في هذه المذكورات محال عقلًا، أم لنقص في العلة المادية؛ وهي استطاعة المخلصين المزاح علتهم بالأخذ عن المعصومين

ونوابهم وخلفائهم النّافين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين مع كون الإمام المعصوم من ورائهم حملًا وتحمّلًا وتحميلًا في كل حين بالسّماع عنهم أوّلًا، والقراءة عليهم ثانيًا، والضبط بعد السماع والقراءة ثالثًا، والعرض بعد الضبط على الشيخ رابعًا، والإذن وهو الإجازة للرواية بما أخذه خامسًا، والعمل سادسًا، والرواية سابعًا.

وكل ذلك ممكن بالذات؛ واجب حفظه، على القيّم عليه أفاضل الصلوات أوّلًا، وعلى المتعلّم ثانيًا. والقيّم معصوم بالبرهان، والمتعلّم غير قاصر ولا مقصّر بالغرض والتّبيان؛ فالثابت من الكتاب والسنة والحكم والأحكام في الأصول المخرجة بالأدلة الموجودة في الأصول المجمع عليها من زمن الحضور إلى يومِنا هذا سماعًا وقراءةً وضبطًا وعرضًا وإجازةً وتحمّلًا وروايةً؛ وكذا في الكتب المصنّفة منها وهو دليل التّكليف ونفس البيان ونفس حكم واقعي ببرهان الحصر؛ وإلا للزم تخلّف العلّة التامة عن معلوله؛ وهو حينئذ فإن كان تعيينًا فتعيين؛ وإلا ترتيبًا فترتيب؛ وإلا فإن كان ترتيبًا فترتيب؛ وإلا فتخيير، وإلا فترتيب وتخيير؛ إن عزيمة فعزيمة، وإن رخصة فرخصة، أعمّ من أن يكون حكم دار مطلق أم دار إيمان أم دار هدنة أم دار الحرب.

فسأل الآقا البهبهاني الميرزا:

- فما فائدة الترجيح؟.

- إن كان في تشخيص الصدور؛ فإلحاق المجهول بالمعلوم، والتّمييز بين المتعدّد وبين غير المتعدّد، وبين القوي ليؤخذ به، وبين الضعيف ليترك.

وإن كان في العمل فتعيين الأفضل من الفاضل، والأوسع من

الأخصر، وبه تتبين درجة العوام؛ فيختارون الأوسع، ودرجات الخواص فيختارون الأخصر، والتقية نوع من الحكم الواقعي مختصة بدار الهدنة.

وهذه الجملة كافية في إثبات قطعية الصدور للأحاديث، وحجية المحكم القرآني ـ من نص صريح أو ظاهر، ومجمل ومؤوّل ـ ؛ ثبت بيانه من الأمناء الصادقين سلام الله عليهم.

- قال: كيف السبيل إلى صحة الثبوت وسدّ الاحتمالات؟

- وجوه كثيرة؛ بلغت آلافًا؛ منها على سبيل النقض؛ وبه تحصل التخلية من النقوش الباطلة في لوح الضمير؛ ومنها على سبيلِ الحلّ وبه تحصل التخلية من النقوش الحقّة لصحائف القلوب والصدور كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

- قال: فما تقول في اختلاف نفاة الاجتهاد؟

- إن كان من الكتاب والسنة فاختلاف في الحق مأمور به أخذًا بأحد أفراد التسليم قال عليه السلام: (بأيهم أخذت من باب التسلم وسعك)؛ ومظنونية الرُجحان مع قطعية الحكم وأنه أحد أفراد التسليم لا ينافي القطع بالحكم أولًا، وبموضوعه ثانيًا، وبالنسبة الحكمية ثالثًا، وبالتعبد بالعلم رابعًا إذ هي أركان الدين، وإن كان من غير ذلك؛ فليس كل مدّع للحق صادقًا في دعواه، ولا معصومًا في مدّعاه؛ فحاله حال من سواه، والميزان قول الإمام الصادق عليه السلام الموجود في كتاب دعائم الإسلام: (القُضاة ثلاثة: هالكان وناج. فأما الهالكان؛ فجائر جار متعمدًا أو متهد أخطأ، والناجي من عمل بم أمره الله به). وقول أمير المؤمنين عليه السلام الموجود في

رسالة المحكم والمتشابه للسيد المرتضى طاب ثراه برواية الصادق، عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم: (والصحيح إن اللهَ لم يُكلّف العباد اجتهادًا)، وقال عليه السلام: (المتكلف ملعون)، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وقد ثبت التباين الكلي - وإن توافق الظاهر - بين الحكم الإسلامي والحكم الاجتهادي ببراهين قاطعة منها: الحكم الاجتهادي متغير بتغير ظن المجتهدين لا محالة، وكل متغير بتغير ظن المجتهدين مباين للحكم الإسلامي المحمدي الذي لا يتغير بتغير ظن المجتهدين؛ بل حلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ينتج فكل حكم اجتهادي مباين لحكم إسلامي محمدي أبد الآبدين، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

هذا ما أدى إليه اجتهادي وجَدّي وجهدي فيما بيني وبين ربي، وكل ما أدى إليه اجتهادي فهو حكم الله في حقي وحق من صدّق بي؛ فوجب عليكم القول بأني ذو أجر فيما أخطأت، وذو أجرين فيما أصبت، فتكفيركم وتفسيقكم إياي خروج لكم عن مذهبكم عملًا وكفر اعتقادًا، أو سكوتي عنكم كذلك؛ فانظروا أي الفريقين أقرب إلى الإنصاف وأبعد من الاعتساف.



بينما كنا جلوسًا بعد الدرس، جاء رجل يتخطى الناس، طويل القامة، حاد الملامح، يرتدي زيًا حوزويًا، على رأسه عمة كبيرة، ألقى علينا السلام قال:

- أريد أن أتباحث معك!

- في الفروع أو الأصول؟.
- في الفروع.
- لا يصح البحث في فروع رجل مع تسليم أصوله؛ لأن الفروع تتبع الأصول وتناسبُها وتُبنى عليها.

ثم استدرك الميرزا قائلًا:

- هل أنت ممن ينفي الاجتهاد أو ممن يثبته، حتى أُجيبك بما يناسب مذهبك؟.
- أجبني عن كل التقديرين.
- إن كنت ممن ينفي الاجتهاد الظني؛ فلا معنى لنزاعك معي وبحثك علي، لأننا متوافقان في ذلك، وإن كنت ممن يثبتونه؛ فإن المجتهدين الظانين يقولون إن نفاة الاجتهاد الظني هم المجتهدون الظانون من حيث لا يشعرون؛ فعلى هذا الغرض نحن وأنتم سواء في أصل الاجتهاد بزعمكم.
- أنا من مُثبتي الاجتهاد الظني وقائل به.
- من المصوبة أو المخطئة، حتى أُجيبك بما يوافقك؟
- أجبني بكلا الوجهين.
- إن كنت من المصوبة؛ فكل ما اخترته هو صواب على مذهبك، وإن كان القول بخطاك مع كوني مجتهدًا من حيث لا أشعر أو أشعر عندك، وإن كنت من المخطّئة فلا يخلو الأمر من وجهين من المُعذِّرة أو المُؤَثِّمة، بين لي حتى أجيبك.
- أجبني عن التقديرين.
- إن كنت من المُعذِّرة؛ فأنا على ذلك من المجتهدين

المخطِّئين من حيث لا يشعرون؛ فيلزمك أن تعذرني؛ وتفسيقك إياي يلزم فسقك بالإجماع؛ لفسقك بخروجك عن مذهبك عند طائفتك؛ لعدم إعذارِك المجتهد المخطئ، وعندي لخروجك عن طائفتي، وإن كنت من المُؤثِّمة؛ فأنا مثلك في التَّأثيم كما ذَهب إليه المفيد والمرتضى وشيخ الطائفة الطوسي وابن قبةَ الرازي وجميع قدماء المتكلمين.

- أين حقيقةُ ما نسبت إليهم؟
- في عدة الأصول في مبحث الاجتهاد.

عكف السائل حاجبيه، وتجهم وجهه، وقال:

- إني أعذر القاصرين عن الحق لا المقصرين.
- أثبت بأن من تعذره ممن مضى وشهد ليس بمقصر أو أني لست بقاصرٍ.
- ثبوت العدالة يسد باب التقصير.
- العدالة عند أتباعه أو عند الخصم.
- عند الخصم.
- فتلك غير مسلّمة في الجميعِ.
- عند الأتباع.
- محقق فينا وعند طائفتنا أيضًا.

ثمّ قال له الميرزا:

إنك متوهم في القول بالقصور بالنسبة إلى المكلف به بعد استفراغ الوسع من الفقيه؛ لتحصيل العلم أو الظن به؛ لأن القصور يرجع إلى الفطرة. وكيف يصح عن الحكيم أن يكلف أحدًا بما خلقَهُ قاصرًا عن فهمه، ومع عدم التكليف به كيف

يكون مكلفًا بإصابته والاجتهاد فيه حتى يقال له إنه صار مخطئًا في إصابته.

علا صوت من جانب آخر، وإذا به شيخ قاطب الوجه، يرتدي عباءة السنين الثقيلة، وعلى وجهه تجاعيد الزمن، تعبر عن تجارب العمر ودروس المجتهدين، خاطب الميرزا قائلًا:

- أنك تفردت في المذهب أولًا؛ ثم قلت بأن الحق واحد في طرف واحد؛ فيلزم إما هلاكك ونجاة الكل، أو نجاتك وهلاك الكل.

تبسم الميرزا، وأجابه:

- إني لستُ متفردًا، هذا أولًا؛ وهذا كتابي (الحجَّةِ البالغةِ) ذكرت فيه جميع المسائل الأصولية، وذكرتُ الأقوال والأدلة، واخترتُ ما اخترتُ مشاركًا في كل مسألة مع جماعةٍ من أجلاء الأصحاب من أهل الأصول والكلام المرضيين عند جميعِ الأعلام.

معَ أن مذهب التحقيق هو أخذ الطريق بمذهب البرهان لم يكن ثمة شريك أو كان؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وفي الحديث: (إن المؤمنَ هو الجماعة).

وجميع علماء الإمامية أصوليهم وأخباريهم ومتوسطيهم إنما يسلكون مسلك التحقيق وافقهم موافق أم لا، بل توقف البعض على المتوافق أيضًا ناشئ من دليل عنده لا لأجل الاتفاق.

والجواب عن هلاكي أو هلاك الكل من وجوه:

الأول: إن الاختلاف في غير الضروريات مع كون الحق في طرف واحد لا يستلزم هلاك الآخذ بطرف النقيض؛ لأنه لم

يأخذه عالمًا ببطلانه، ولا أنكر ضروريًا، ولا خالف معلومًا من المذهب، ولَو كان الهلاك في المذهب هلاكًا؛ لَهلك الناس أجمعون.

وثانيًا: ليست مسألة من المسائل الأصلية والفرعية إلا وقد يشاركني فيها جمٌّ غفير.

وثالثًا: إن الواجب موافقةُ الدليل، وليس مطلق الكثرة دليلًا؛ حتى نتبعها؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

وأما اعتراضك علي بترك العرض على أفهام المعاصرين؛ فالجواب: إن المسائل إما اتفاقية؛ فلا حاجة للعرض فيها، وإما خلافية فالعرض فيها على المؤالفين لا يجدي نفعًا، وعلى المخالفين كذلك إذ ليس من مخالف يصوب رأي مخالفه. ألا ترى أن الرجل إذا كان من القائلين بالتوسعة يخطئه أهل المضايقة بلا مضايقة؛ لأن تصويبهم إياه يستلزم خروجهم عن مذهبهم، وإن كان من أصحاب المضايقة فبالعكس. وإذا كان أخباريًا ـ وهو في تبحر المحدِّث العاملي، وتقدّس المُحدّث القُميِّ، وتدقيق المحقق القزويني، وتحقيق المحقق الإسترآبادي ـ يخطّئه كل اجتهادي محققًا كان أم مقلدًا، وإن كان اجتهاديًا ـ وهو في فضل العلامة الحلي، وتحقيق الشيخ علي بن عبد العالي، وورع المقدس الأردبيلي ـ، يخطّئه كل أخباري كائنًا من كان ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾.

وأما تعرّضي للفتيا فيما أعلمه؛ فلا يخلو من وجهين:

إما أنا فاسق جريء على الله ورسوله وأمنائه (صلوات الله عليهم) والعياذ بالله؛ فكيف أَمتنعُ؟؛ لأن المفروض أن لست أخاف الله وبطشه الشديد.

وإمّا عادل عارف؛ فلا يخلو من وجهين: إما عالم في كل ما أفتي به ولي عليه دليل؛ فلا بحث لأحد؛ إذ يجب على كل عالم إرشاد المتعلم في غير محل التقية، لقول النبي ﷺ: (إن الله لم يأخذ على الجهال عهدًا بطلب العلم؛ حتى أخذ على العلماء عهدًا ببذل العلم للجهال). وإما غافل؛ وكيف أكون غافلًا عن وزر الفتيا من غير علم؛ وقد ملأت الدفاتر وصنفت الدواوين في هذه المسألة وعظم خطر الفتيا؟!. قال الله تعالى في صورة الخطاب الموجه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾.

وأما قابلية الفتيا فطريق الوحي منسد بعد ختم الأنبياء، وشاهد الفضل آثار الرجل من تحقيقه وتدقيقه وتقريره وتحريره؛ وهذا بين عند أهله، وليس من لا يعلم حجة على من يعلم.

وهذه جماعة المحدثين يعرفني منهم كل عارف معروف؛ وما ينكرون علي بل يعترفون، وأما الذين خالفونا في الطريق فهم ينكروننا، ونحن لهم منكرون ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وليس إنكار من يخالفني علي من أدنى من أحد إلا وينكر عليه من يخالفه؛ فما كان جوابكم فهو جوابنا، والله الهادي.

لم يحرّ الشيخ السائل جوابًا، بل خرج كما جاء، تاركًا وراءه صدى أحاديثه المتقطعة، يتمايل في فضاء الصمت.



توفي الوحيد البهبهاني في هذه السنة (1206هـ/ 1791م)، ودفن بجوار الشيخ يوسف البحراني، في رواق الحضرة الحسينية الشريفة.

وفي هذه السنة توفي السيد الميرزا محمد علي اللّاري؛ وكان بينه وبين الميرزا محمد مؤاخاة وعلاقة وطيدة؛ أثرت وفاته في الميرزا محمد تأثيرًا بالغًا، فألف كتاب (تسلية القلوب الحزينة) تسلية، وأهدى ثوابه له. كتب بعد البسملة:

الحمد لله الذي جعل القلوب دنانا[1]
وأذابها، فجرت عين العيون عيانا،
سالت بأودية الجنان ماؤها ودموعها،
فقد أصبحت ذاك الجنان من الجنان جنانا

نشكرك يا من جعل القلوب أوعية وجعل خيرها أوعاها، ونستزيدك يا من صيّر الأذان واعية لمن دعاها، ونصلي ونسلم على مصطفى البرية ومرتضاها، وأزهار رياض الذرية الطاهرة وزهراها. فيقول العبد المتمسك بعروة الثقلين محمد بن عبد النبي بن عبد الصانع، حشرهم الله تعالى مع المصطفين: إني لم أتاني الزمان الخوان برزية خير الإخوان.

وبان عرى صبري وهاجت صبابتي
رسُوم ديار قد عفت وعرات

زاد الوجد وضاق المخرج اخترت الأسفار على الاستقرار؛ ملتمسًا للسّلو بصحبة الأخيار، وأنّى ومتى وكيف ولمَ؟!. وقد ألمّ بي من الألم ما ألمّ.

لقد زعموا أن المحبّ إذا دنا
يملُّ وإن النأي يشفي من الوجدِ
بكل تداوينا فلم يشفى ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعدِ

(1) أي أوعية، فالدِّنانُ (الِحباب)؛ جمع دنٍّ (الِحبُّ) وهي جرار الماءِ.

فأنضيت دكاني، وفارقت أصحابي، وألفتُ كتابي، وجعلته دواءً لما بي، وسميته (تسلية القلوب الحزينة الجاري مجرى الكشكول والسفينة). لعل الله يجعله تسلية للأحزان، وجعلت ثواب تأليفه لروح خير الأخذان والخلّان؛ جمعني الله وإياه في رياض الرضوان بجاه النبي التهامي وآله أمناء الرحمن.

وقد جرى كتابه هذا في الحكم والأحكام، وبدائع النُكت والكلام، والأشعار الرائقة، والأخبار الصادقة، والآثار الفائقة، والحديث والتفسير، والنقير والقطمير، ما لا يوجد في أمثاله، ولا يجد المتقلّب في العلوم مثيله إلا بمثاله.

وصار تمام ما في هذا الكأس الأوفى (ماءً ختامه مسك - 1208هـ/ 1793م). وفرغ من الجزء الثاني والثالث في السنة نفسها، وفرغ من الجزء الرابع في سنة (1211هـ/ 1796م)، وفرغ من الجزء الخامس في سنة (1216هـ/ 1801م)، إلى أن انتهى من كتابة الجزء الأخير وهو الجزء الثاني عشر في سنة (1231هـ/ 1815م). وكل جزء منها يراوح ما بين (600 - 800) صفحة.

تضمنت هذه الموسوعة الكثير من الأحاديث وبيان معانيها المبهمة وتبيان المسائل المشكلة، والبراهين والأدلة، ورواية الأشعار الرائقة والحكايات السابقة، والمواعظ والعبر، ونوادر الحكم والأدب، وشوارد الفلسفة، والعلوم الغريبة كعلم الحروف والجفر. وحوت بين طياتها رسائل كثيرة مدرجة بكمالها، له أو لغيره، كرسائل للفيض الكاشاني، والعلامة المجلسي، والسيد نعمة الله الجزائري.. والكثير من الرسائل له في إثبات مطالب الأخباريين والرد على المجتهدين؛ محتويًا على زواهر التدقيقات اللطيفة، منطويًا على جواهر التحقيقات

الشريفة، بعبارات رائقة أبهى من أيام الشباب، وإشارات فائقة أشهى من وصال الأحباب.

أصبح الكتاب همسات أنامله وأفكاره المتدفقة. في غرفته الصغيرة المليئة بالكتب القديمة والأوراق المبعثرة، ويبدو أن الزمن قد يتوقف على عتبة بابه، فلا أزمنة ولا أوقات. امتلك عقلًا مليئًا بالفكر، وقلبًا ينبض بشغف لا ينضب، ويطرح آراء تنبض بقوة. معتكفًا على تأليف كتبه، مغمورًا بعالمه الخاص.

رغم التحديات والصعوبات التي يواجهها، إلا أنه يواصل العمل بشغف وإصرار. كل مساء، كان يجلس أمام طاولة خشبية بالية، بجانبه فانوس متلألئ، واضع محبرته وأوراقه بين يديه، ويدخل عالمه الخاص. تتلاطم الأفكار في عقله كأمواج البحر، تتدفق من داخله، كما يتدفق الماء من السماء في يوم عاصف. كأني أراه والأفكار تجلس على أعتاب عقله كالفراشات الجاهزة للانطلاق نحو الزهور للارتشاف منها، لتنتج رحيقًا مختومًا. فتنساب منه بكلمات دقيقة، يبدأ بتشكيل الجمل وربطها ببراعة، يضعها بدقة فائقة فوق الورق، مثل لوحات فنية. يعيش لحظات إبداع وتأمل، يتفاعل مع ما يكتبه باندفاع وتفرغ. ومع مرور الأيام، تأتي صفحة جديدة من الكتاب الآخر، ويكبر العالم الذي خلقه حتى أطول مدى. وعندما ينتهي كتابه، يشعر ببعض الإنجازات والرضا، ويعلم أنه قد يخلق شيئًا جديدًا يعيش فيه للأبد. وأن لديه رسالة يجب أن يشاركها مع العالم.

كتب قبل عام (1204هـ/ 1789م) رسالة (الحجة البالغة) و(الحكمة البالغة) و(الوصية) التي كتبها لأخيه بالمؤاخاة الإيمانية الميرزا السيد محمد علي الدشتي اللّاري حينما أراد

المسير إلى فارس في سنة (1204هـ/ 1789م)، وكل هذه الكتب والرسائل هي في الرد على الأصوليين.

وقام بكتابة ملخّص ومنتخب لكتاب (لؤلؤة البحرين) للمحدث الشيخ يوسف آل عصفور البحراني، وسماه (صفاء اللؤلؤة) وتم تأليفه في كربلاء سنة (1207هـ/ 1792م).

وفي سنة (1208هـ/ 1793م) كتب الرسالة الاعتقادية، بعد أن طلب منه أحد الإخوة أن يسطر له كلمات وجيزة في بيان (أقل ما يجب على المكلفين في سائر الأحايين) وأن يكتفي فيها بإيراد روايات المعصومين.

وكتب أيضًا (الرسالة التنباكية)، وأورد فيها الأحاديث والروايات الدالة على حرمة التنباك من دون ذكر الأسانيد، ألفها بطلب أحد الإخوة منه. وكتب (حديقة الأزهار في تلخيص البحار)، وهو تلخيص وتصحيح للمجلد الخامس عشر من بحار الأنوار للعلامة المجلسي.

وفي عام (1209هـ/ 1794م) كتب الرسالة البرهانية، وكتب في العام نفسه (1209هـ) رسالة قصيرة في تحقيق الخطاب الإلهي وتحقق التكليف بخبر الثقة، وسماها (القذفة الوازدة) وكتب أيضًا (رسالة الكشف الإلهي)، وكتب (الكتاب المبين والنهج المستبين في إثبات إمامة الطاهرين)، في إثبات إمامة الأئمة من طريق القرآن والحديث والعقل من كتب العامة، وذكر فضائل المعصومين ومثالب أعدائهم ونُبَذًا من أحوالهم وأحوال شيعتهم، والأدلة على غيبة الحجة، وتتمة في أحوال بني هاشم، وشرح أحوال الفقهاء السبعة ومذاهب العامة الأربعة، وبحث فيه حديث العشرة المبشرين بالجنة وختمه بذكر نبذة من ترجمته ومؤلفاته.

وكتب أيضًا كتاب (مصادر الأنوار في تحقيق الاجتهاد والأخبار) وهو في الرد على الأصوليين، ألفه لبعض الإخوان لبيان معنى الاجتهاد الذي شاع بين المتأخرين.

وكتب أيضًا (رسالة في بيان بعض مطالب المحدثين) المعروفين بـ(الأخباريين) كتبها بطلب من أحد الإخوة منه.

فكان المدافع الأول عن نهج المحدثين (الأخباريين) بلا منازع، ولا له في منافحته عنه مثيل ولا نظير، ووقف فريدًا في حلبة الميدان أمام فطاحل الفكر الأصولي وأساطين المجتهدين في عصره؛ فما راعه جمعهم، ولا نكص عن مقارعة حججهم، ولا كلّ عن نقض مبانيهم.

وأخذ يباحث العلماء ويدعو إلى طريقته على الملأ حتى شاعت وذاعت، واشتهرت في البقاع مباحثه ودلائله وفهمه وفضائله، وكان كذلك ردحًا من الزمن يردّ عليهم وهم يردون عليه؛ كأمواج البحر في عاصفة هائجة. كانت الردود تتدافع بينهما كالسيوف المتقاطعة، والنظرات تلتقي بعنف وحدة، مع كل محاولة لفرض الرأي وتحقيق الفوز. كل واحد منهما يعلو صوته، محاولًا إثبات نقاطه وتفنيد حجج الآخر، فكلما اشتد الجدال، ازدادت حدة التوتر بينهما، حتى بدأت الكلمات تفقد رقتها وتتحول إلى أسلحة موجعة.

وسط هذا الصراع، لم يفقد كل منهما الأمل في الوصول إلى فهم مشترك، فرغم شدة الجدال، كانت هناك لمحات من الانسجام تتلألأ بين فترات، تشير إلى إمكانية التوصل إلى حل وسط يُنهي هذه الخلافات الحادة. لكن دون جدوى.

الميرزا محمد سجل رقمًا قياسيًا في عدد الكتب المؤلّفة في الرد عليهم؛ بحيث لم يسبقه في ذلك سابق، ولا لحقه لاحق.

جاءنا زائرًا أحد تلامذته المقربين، المسمى عبد الحسين. فدخل إلى البيت، رحب الميرزا به:

- أهلًا بقرة عيني الفريحة، ومهجة فؤادي، وأقصى غايتي ومرادي، الصافي عن كل شين ومين، المتمسك بعروة الثقلين، الألمعي اللوذعي الزكي، نوّر الله تعالى بصر بصيرتك، وأصلح سيرتك وسريرتك.

- إن شاء الله أكون عند حسن ظنك بي سيدنا.

بعد أن تجاذبا أطراف الحديث، قال له التلميذ:

نحن نعلم مشاغلك بالدرس والتدريس والتأليف، لكن هناك ما يشغلنا في مسألة (انسداد باب العلم) فيا حبذا لو تفضلتم بذكر أدلّة القائلين بانسداد باب العلم إلى مراد الله تعالى في التكاليف الشرعية والأحكام الوضعية، وما صار سبب حصول الشبهة لهم، وبين ما يجاب به عن أدلتهم ويدفع به عن شبهاتهم.

- إنك ولدي الروحاني، بل صنوي العقلاني، نسأل الله أن يمن عليك بنيل الآمال والأماني. ومع شدة بلبال البال، وزلزال الحال، فسوف أكتب لكم كتابًا للاستفادة منه والاسترشاد.

وبالفعل قام الميرزا بتأليف كتاب سماه (فتح الباب إلى الحق والصواب) فرغ من تأليفه يوم السبت، 1 محرم (1210هـ/ 1795م)، في مشهد أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

والمولى عبد الحسين كان أرشد تلاميذ أفضل المجتهدين في

عصره السيد علي الطباطبائي، وابنه رضاعيًا، ثم رجع من طريقة المجتهدين إلى طريقة الأخباريين وصحب الميرزا محمد. فكفروه وفسّقوه؛ وقد بعث إلى مجتهدي حوزات النجف وكربلاء، رسالة جاء فيها:

(هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ويقطع الأعذار لمن استحل غيبتنا في المجالس والإحضار، لئلا يكون على الله حجة بعد البلاغ والأخبار، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما أخمد على الذين يبدلونه، عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، إلا فاشهدوا شهادة أسألكم بها عند الحاجة، إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه عبده ورسوله، وأن الحجج الاثني عشر أولهم أمير المؤمنين وآخرهم المهدي المنتظر عليه السلام أعلام الله في أرضه وخلفاؤه وأوصياء رسوله وأولياؤه، وأن اليوم الآخر والحشر والنشر والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وكل ما جاء به الرسول حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، واعلموا أيضًا أني أسلك مسلك المتقدمين من الأصحاب والمتأخرين السالكين مسلكهم، متمسك بالعروة الوثقى كتاب الله والعترة الطاهرة المصطفين، لا أعمل إلا بالعلم واليقين، ولا أتعدى من النصوص ولا أقصد محاولة الظن والتخمين، فإن كان هذا هو الداعي إلى التفسيق أو التكفير فالحمد لله رب العالمين).

وفي هذه الأيام قدم علينا سيد العلماء والمحققين وسند الفقهاء والمدققين جناب السيد محمد مهدي الطباطبائي (رفع الله درجته في بحبوحة جنانه). بحسن أخلاقه ولطفه سأل عن سبب اختيار هذه الطريقة؟ فأحاله السيد الميرزا على رسائله التي كتبها مثل (البرهان، وفتح الباب، ومصادر الأنوار).

اعتذر السيد عن مطالعة المطولات، لكثرة مشاغله. وقال له:

- أطلب منك أن تلخص المدعى في السؤال بأخصر مقال.

امتثل الميرزا محمد لهذا الأمر بعجالة لتحرير أخصر مقال وسماه (قبسة العَجول ومنية الفحول)، وجعلها في صورة أسئلة بعنوان: (إن سأل سائل) أو (إن قيل) وجعل الجواب بعنوان (أجيب). وبعثها إلى السيد الطباطبائي. إلا أنه لم يصل أي جواب عنها من السيد الطباطبائي.

كثر أتباع الميرزا ومريدوه، وكثرت رسائله وكتبه، فعلم الفقهاء والمجتهدون في كربلاء والنجف أنه يريد أن يعيد مجد الأخباريين، لاسيّما الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

ضاقت به الأرض التي كان يظنها وطنًا آمنًا، فلم يكن له في كربلاء، ومن قبلها النجف، سوى جدران تصدّ عنه، وأعين ترمقه بالريبة، وألسنة تقسو عليه دون هوادة. في كل زاوية كان يشعر بأنفاس الرفض تحيط به، والقيود التي حاولت أن تكبل فكره قبل أن تكبل خطاه. لم يكن في قلبه حقدٌ أو ضغينة، لكنه أدرك أن البقاء لم يعد خيارًا، وأن الرحيل صار ضرورة، لا مجرد اختيار.

حاول أن يصبر، أن يجد فسحةً للبقاء، لكن الأرض أضحت حجرًا تحت قدميه، والسماء من فوقه ثقيلة، حتى باتت النجف وكربلاء، رغم قدسيتهما، كالسجن الذي لا باب له سوى الرحيل.

لم يجد غير السفر خيارًا، بل كان خلاصًا. لم يكن يريد أن يترك هذه البقاع التي أحبها، التي نهل من علمها،

وتشبّعت روحه برائحة مساجدها ومدارسها، لكن البقاء أصبح ضربًا من العذاب.

في ليلة صامتة، والريح تهمس بحكايات الغابرين، جمعنا أمتعتنا القليلة، ودّعنا الأماكن بنظرات أخيرة، ثم شددنا الرحال، عازمين على السفر إلى بلاد فارس، سالكين طريق البر مصطحبين العائلة، متوكلين على الله، فهو وحده الملجأ حين تضيق الأرض بما رحبت.

المحطة السابعة

بلاد فارس - لار (1211هـ/1796م)

في طريق بلاد فارس خانات معدة لمبيت القوافل، هذه الخانات قائمة منذ زمن الشاه عباس الصفوي، الخانات مشيدة من الآجر أو الحجر في شكل مستطيل، ومصممة على أساس وجود فناء واسع مفتوح من وسطها، وفي وسط الفناء بئر، حول الفناء حجرات للرجال، واصطبلات للحيوانات. الغرف عارية، فلا توجد أثاث فيها. عمدنا إلى الراحة في وسط ضوضاء أجراس الحمالين وصهيل الخيول ونهيق الحمير، وغناء الخدم.

الطرق تخترق السهول، وهي ليست معبدة تمامًا، أما الممرات الجبلية فكانت تنحت درجات عريضة أشبه بدرجات السلم في الصخور الجرداء، وجدنا طريقًا يسمى (سنك فرش) أي البساط الحجري وهو رصيف من الحجر يقام على الأرض.

تخرج القوافل هنا في رحلة طويلة، ويبدأ مسير الجمال وقت الغروب وطوال الليل، ويحمل كل من الجمل الذي في مقدمة القافلة والذي في المؤخرة جرسًا ضخمًا معلقًا في رقبته، وتظل القافلة تسير ما دامت الأجراس تدق، وعند كل خان من الخانات نحط رحالنا للاستراحة. أثناء النهار تطلق الجمال للرعي، بينما يذهب الرجال للنوم.

في إحدى غرف الخان، أثناء استراحتنا فيه، بهدوء الليل

الساكن، علا صراخ من إحدى غرف الخان المجاورة، التي تئن أبوابها الخشبية من وطأة الزمن، خرج الميرزا وتبعته، نتفقد ما يحدث. كان الصراخ صادرًا من إحدى الغرف في نهاية الرواق، بابها نصف مفتوح، يتأرجح على مفاصله صوت خافت.

عندما دخلنا، كانت الغرفة غارقة في ظلام ثقيل، لا يبدده سوى ضوء قنديل يتراقص على الجدار، عاكسًا ظلالًا مشوهة لبعض المسافرين المجتمعين عند عتبة الغرفة. في الزاوية، فراش متواضع مغطى ببطانية خشنة، وعلى طرفه شاب مسجى بلا حراك، وجهه شاحب أنياب الموت مرتسمة عليه. امرأة، بثوبها المتسخ من أثر السفر، تجلس بجانبه، تعصر يديه بين كفيها المرتجفتين، وتبكي بحرقة. بجانبها طفلان، وجهاهما شاحبان، وملابس رثة، متشبثان بأطراف ردائها، يراقبان المشهد بعيون مذعورة، عالقين بين الصدمة والرعب.

بينما الميرزا محمد يخطو إلى داخل الغرفة، يتفحص الموقف بعين العالم الذي اعتاد أن يقرأ في الوجوه أسرارها المخفية.. المرأة ما زالت تصرخ، تمسك بجسد الشاب المسجى على الفراش، تهزه يائسة، والدموع تغسل وجهها المضني. بينما أصوات المسافرين تهمس بينهم، بعضهم يسترجع، وآخرون يتساءلون. علموا أن هذا الشاب قد فارق الحياة.

اقترب الميرزا ببطء، تلمّس نبض الشاب بأنامله المتوضئة، كانت يد الشاب باردة، وكأن الحياة تسللت منها خلسة. تنفس الميرزا بعمق، ثم التفت إلى المرأة وسألها:

- منذ متى وهو على هذا الحال؟

أجابته بصوت متهدج:

- كان معنا قبل قليل، تناول عشاءه، ثم قال إنه يشعر بثقل في صدره. . . وبعدها صمت!

بيد ثابتة وعيون متأملة، كأنها تمتلك أسرار الكون الخفية، بدأ الميرزا محمد يتفحص الشاب، أغمض عينيه لحظة، كمن يتواصل مع أبعاد أخرى لا يدركها أحد سواه. انبعثت طاقة من يديه المسترخيتين، وبدأت تملأ الغرفة بنسمات دافئة. وهو يتمتم بكلمات لم أتمكن من سماعها، بدأت الحياة تعود تدريجًا إلى أوردة الشاب، كأن الحياة تتسلل بحذر إلى داخله من جديد، عاد النفس إلى رئتيه والنبض إلى قلبه، عادت الروح لجسده البارد، وانعكست الحياة على وجهه، فتح عينيه وكأنه قد استفاق من كابوس عميق. تحولت دموع المرأة إلى بهجة وسرور. وهي مندهشة كدهشة الحاضرين التي لا توصف.

أثار عمل الميرزا محمد، الغريب والغامض، الفرح والبهجة الممزوجة باستغراب الحاضرين بأسرهم، فلم يكن هناك تفسير واضح لما حدث.

صارت قصة الشاب الذي عاد من الموت همسًا يتردد في المجالس، وأحاديث يتناقلها المسافرون، وسرت بين القوافل، وكأنها أسطورة خرجت من بين دفاتر الزمن. كيف عاد من الموت؟ كيف نبضت الحياة في عروقه بعد أن أُعلن رحيله؟

كان كل من يسمع القصة يقف لحظة، يتأمل، ثم يرويها لمن بعده بدهشة لا تخبو. في الأسواق، عند أبواب الخانات، وبين خيام القوافل، امتدت القصة كالنار في الهشيم، تكسوها رهبة المجهول، وتحيطها هالة من الغموض، حتى صار اسم الميرزا يُذكر بخشوع. . حتى وصلت أصداؤها إلى قصر الشاه القاجاري.

وفي كل مرة تُروى الحكاية، كانت تتخذ شكلًا جديدًا، تفاصيل تُضاف، وأخرى تُحذف، لكن جوهرها ظل واحدًا، تاركًا وراءه أثرًا لا يُمحى، وسحرًا يرفض أن يتلاشى.

وصلنا إلى مدينة كبيرة تقع في جنوب غربي إيران تسمى (لار)، تتبع محافظة فارس. وتتبع المدينة لمقاطعة (لارستان). من أسمائها القديمة: إيراهستان، وكذلك كانت تسمى قبل الإسلام (لاد) وهي مدينة يرجع تاريخها إلى عهد الملك كيخسرو بن سياوش بن الملك كيكاووس، أحد ملوك الفرس القدماء. يتكلمون الفارسية باللهجة (اللارية) المشتقة من اللغة البهلوية.

أقمنا فيها، فعرفه الناس وتناقلوا حكايته. قام رجال الدين وطلبة العلم وعامة الناس يتوافدون عليه، احتفاءً به، وللاستزادة من علمه ومعرفته. وصار له أتباع ومريدون فيها.

من ضمن من أتاه محمد علي اللاري، وقد سأله عدة أسئلة فيما يخص تفسير بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمسائل الفقهية، واللغوية..

وسأله الميرزا حسن علي الطبيب الشيرازي عن أسئلة تتعلق ببعض الآيات القرآنية، وأحاديث الأئمة. وأيضًا حضر عنده قاضي العامة، كان يسأله عن تفسير بعض الآيات القرآنية.

ولكي تعم الفائدة، قام الميرزا بجمع هذه الأسئلة وأجوبتها في رسالة سماها (الشُعلة النارية في أجوبة المسائل الّلارية). وبعض الإجابات في هذه الرسالة كتبها باللغة العربية والفارسية.

وطلب منه بعض الطلاب ومن تبعه في رأيه، أن يكتب لهم رسالة مختصرة في أصول الدين وفروعه باللغة الفارسية، وبالفعل استجاب الميرزا لهذا الطلب، لأنه يعتقد أن الطلب حجة قائمة عليه، فقام الميرزا بكتابة رسالة عن أصول الدين،

وعن الفروع من أول الطهارة إلى الديات، باللغة الفارسية وسماها (التحفة اللّارية) فرغ من كتابتها في (19 شوال 1212هـ/ 1797م)، فنسخوا منها ما ينوف على مئة نسخة ونشروها بينهم.

في بلاد فارس وجود للصوفية، كتب الميرزا في الرد عليهم رسالة باسم (نفثة الصدور).. وفي مقابل ذلك كتب كتاب (ومضة النور من شاهق الطور)، في الحكمة والعرفان، كتبه ملمع عربي وفارسي، يضم مقدمة ومقتطفات من التجليات، في اثني عشر تجليًا، وخاتمة. في ما يقارب ثلاثمائة صفحة. شرع بكتابتها في مدينة (بافق قرب مدينة يزد)، من هذه السنة (1212هـ/ 1797م).

وصلتنا أخبار من العراق بأن السيد محمد مهدي بحر العلوم قد فارق الحياة، في شهر رجب من عام (1212هـ)، وقد تولى الزعامة بعده الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

وبلغ بالشيخ جعفر الحال في أمر الإخبارية أنه إذا أجاز رجلًا من تلاميذه ونصبه علمًا لقوم نائين جعل أهم وصاياه له عدم المراودة مع هذه النبعة الخبيثة على الإطلاق!، وعدم التكلم معهم والجلوس بمجالسهم إلى غير ذلك من الانقطاع عنهم، والتباغض معهم كي يذلوا وتكسر شوكتهم عند العوام؛ الذين هم كالأنعام من تبعة تلك الأقوام.

وفي شهر (ذي القعدة) من السنة نفسها قتل الشاه محمد القاجاري، واعتلى العرش بعده ابن أخيه الشاه فتح علي القاجاري.

بقينا نجوب البلاد، وزرنا خلال إقامتنا في بلاد فارس مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ثلاث مرات.

في إحدى زياراتنا، ورد الميرزا محمد أمر السيد الجليل والمولى النبيل، العالم السيد محمد رضا بن السيد شبر، أن يكتب له عن (مسألة الطينة، والاختيار، والفرق بين الأصول والأخبار)، بأوجز المباني.

حاول الميرزا الكتابة عن هذه المسائل الثلاث، بالاقتباس من مشكاة الرسالة، وزيتونة الطهارة، إلا أن الأمر كأنه التبس عليه.

وقف وسط الغرفة، وفي عينيه لمعة الحيرة تتلألأ كالنجوم في ليلة صافية. كانت الأفكار تتلاطم في ذهنه كأمواج البحر المضطرب، وكل محاولة لتفسير المسائل تبدو كيدين فارغتين، تحاولان أن تمسكا برياح الفضاء، كلما حاول التفكير في أمر تباعدت الأفكار وتشتتت مثل السحب في السماء.

في لحظات الشفق المتلاشية، حيث تتشابك أشعة الشمس الأخيرة مع أطراف الظلام، خطا الميرزا خطواتٍ ثابتة نحو باب الحكمة، الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، كان وجهه مزيجًا من التساؤلات واليقين، طلب من الإمام، بعد أن أتم الدعاء والزيارة أن يلهم قلبه وينير فكره، بإجابة هذه المسائل الموجهة إليه.

عاد إلى الدار، وكأنه بانتظار إجابة. في صبيحة اليوم التالي رأيته وهو ضاحك مستبشر. وقد انكب على أوراقه بالكتابة.

- من يراك يوم أمس لا يراك اليوم؟ قلت له وأنا أدلف إلى غرفته.

- وكيف لا، وقد تشرفت برؤية إمامي محمد الجواد عليه السلام، في فجر هذا اليوم، وأنا بين أطياف النوم وسواد الليل، كأن رحلةً خفيةً للروح إلى أبعادٍ أخرى من الوعي، جاءني الإمام

الجواد عليه السلام، بوجهٍ مشرقٍ مليء بالسلام والرحمة، معبّرًا عن الحكمة الخالدة التي تنبعث منه. وعلى وجهه ابتسامةٌ، قائلًا بصوتٍ هادئ ومؤثر: أرسلني أبي إليك لكشف ما التبس من أمر هذه المسائل.

في تلك اللحظة، شعرت بقشعريرة غامضة تتسلل ببطء إلى عمق وجداني، مثل نغم لحن لا يُنسى يرتسم في أعماق الذاكرة. كانت كل خلية في جسدي تترنح على وقع أسرار الحكمة، عرفت أن الحياة ليست مجرد سلسلة من الأحداث، بل هي أيضًا رحلة عميقة روحانية، مليئة بالمعاني الخفية والأسرار الغامضة التي تنتظر لتكتشف، التي تبحث دائمًا عن الإلهام والتواصل مع ما هو أعمق وأجمل في هذا الوجود.

بقي الميرزا عاكفًا على كتابة أجوبة المسائل وقد أتمها، بعنوان (حرز الحواس عن وسواس الخناس).

بحلول عام (1214هـ/ 1799م) عزم الميرزا على الذهاب للحج، وبالفعل ذهبنا إلى الحج، وأدينا المناسك، إلا أن الذكرى في هذه البلاد مؤلمة، لفقد الميرزا محمد والديه فيها.

من هناك عزمنا على الذهاب إلى العراق، لكن وجهتنا الآن لا إلى النجف أو كربلاء، بل إلى الكاظمية المقدسة.

المحطة الثامنة

العراق - الكاظمية (1215هـ/1800م)

نفدت مؤننا، خلال الرحلة، وما أن وصلنا إلى البصرة، حتى قدموا لنا خبزًا ولبنًا وتمرًا. وبعد أن أكلنا وشبعنا طلبنا منهم المزيد على سبيل الشراء، فأعدوا لنا كل ما طلبناه، ورفضوا رفضًا باتًا استيفاء ثمن ما قدموه لنا وقالوا باعتزاز: إن الضيافة لكل عابر سبيل أيًا كان واجبة. أراد لميرزا محمد أن يقدم شيئًا لقاء ذلك، فعند خروجه أعطى مقدارًا من المال بيد الأولاد الصغار.

السفر من البصرة إلى بغداد يكون بواسطة المراكب الشراعية التي تنتقل في نهر دجلة، مصنوعة بمقدمة متينة.. بطن القارب مغطى بطبقة كثيفة من القار.. انتظرنا أعداد قوافل المراكب التي تتوجه إلى بغداد في البصرة، إذ لا يذهب قاربان أو ثلاثة، بل يجب أن يتجمع عدد كبير منها، ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين. لأن المراكب لا تسير في الليل بل عليها أن ترسو عند الشاطئ، فيجب حراستها حراسة شديدة خوفًا من اللصوص الذين يتسللون لسرقة التجار. المسافة بين بغداد والبصرة تستغرق خمسة عشر يومًا عندما يكون النهر عاليًا. أما إذا كانت المياه هابطة فقد تستغرق الرحلة مدة أكبر. تسير المراكب في أول انطلاقها بقوة الأشرعة، ومن ثم بواسطة الحبال المربوطة إلى السارية. فإذا هبت الريح تنشر الأشرعة، وإلا فأنهم يضطرون إلى استعمال المجاديف.

وصلنا إلى مدينة بغداد، وهي محاطة بسور معزز بالأبراج، له ثقوب في ثلاثة صفوف لرمي البنادق، يحيط به خندق كبير من الخارج، قيل إنهم يملؤونه بماء دجلة الفائض وينتهي بالنهر. ولهذا السور أربعة أبواب، في الشمال (باب المعظم)، أو باب الميدان، وفي الشرق (باب الوسطاني)، والثالث في الجنوب يسمى (باب الوراني)، أو باب البصرة، والرابع على ساحل دجلة أمام الجسر ويدعى (باب الجسر). ويوجد في الجنوب الشرقي باب خامس ولكنه مسدود بالحجارة يدعى (باب الطلسم) ويسمى أيضًا الباب المقفل.

المدينة تتألف من جانبين، الجانب الأيسر منها تقوم عليه أحياء معمورة، أما جانب النهر الأيمن فيسكنه أبناء العشائر على الأكثر، ويرتبط الجانبان بجسر قائم على عوامات خشب مربوطة بعضها إلى بعض بسلاسل غليظة.

دخلنا المدينة، وهي تعج بالناس، فيها مقاهٍ وحوانيت للحلوى والسكريات، وباعة الفواكه والخضر وسائر الأطعمة. الأسواق مختلفة البنيان، تتميز بأعمدة متينة مزينة بنقوش وأقواس ضخمة مرتفعة، ومنها ما يتألف من أروقة بسيطة ذات سقوف من الخشب وسعف النخيل، دكاكينها حافلة بالبضائع والمؤن المحلية، وتلك المستوردة من الشام وحلب وبلاد فارس والهند وانكلترا، عبر النهر الذي يحيط بأسوارها. تأتي هذه البضائع محملة على (أكلاك ـ جمع كلك) عائمة فوق قُرب منفوخة ومربوطة إلى بعضها، ويطرحون فوق القُرب ألواحًا يضعون الأحمال عليها وهكذا ترسل إلى بغداد، ثم تحمل على الجمال.

التجار فيها تختلف سحنتهم وألبستهم، من عرب وعجم وكرد وهنود وكرج وأرمن. .

خاناتها كثيرة، مشرفة على السوق، تضم هذه الخانات مواضع لإيواء المسافرين وخزن البضائع والإسطبلات، وأهمها خان المصبغة وخان الصياغ وخان الميوه (الفاكهة). والعشرات من الخانات الأخرى. في المدينة أيضًا حمامات عديدة للرجال، وللنساء، وهي نظيفة ومريحة، وكثيرة الزحام. إلا أن طرق المدينة وعرة وضيقة، يملؤها الغبار صيفًا والطين شتاءً.

ومع هذا فهي أصغر حجمًا من البصرة. تتمتع المدينة بجو هادئ ونسيم عليل، ويمتاز البغداديون بالنظافة ودماثة الخلق، والملابس النضرة.

رأيت فيها بناء يبهر الأبصار، هو جامع ومرقد أبو حنيفة النعمان، ترتفع منائره لتشرف على بغداد ويمكن رؤيتها من مسافة بعيدة. وقربه مائة بيت تقريبًا، يسكنها أتباع المذهب الحنفي. وإلى جانب المرقد سوق يمتد إلى أقصى المدينة تقريبًا وحتى الجنوب. يسير بمحاذاة النهر على طول نحو ثلاثين قدمًا، وينتهي السوق بشارع يتجه الاتجاه نفسه، تقوم عليه القنصلية الفرنسية التي قيل إنها تأسست في عام (1155هـ/ 1742م)، ثم يبدأ شارع آخر يعرف بشارع الانكليز، جانبه الأيسر خرب قفر، أما الجانب الأيمن فيحتوي على دوُر للانكليز تمتد حتى شاطئ النهر، وهنا في جنوب البلدة تقوم دار القنصلية العامة البريطانية التي تأسست عام (1212هـ/ 1797م)، غير بعيدة عن باب البصرة.

الناحية الشرقية تؤلف زاوية كبيرة متجهة صوب بلاد فارس، بين الباب الوسطاني والباب المسدود، فتكاد تكون خالية من السكان. فيها أرض مكشوفة تجري فيها ألعاب الخيل والفروسية، ووسطها بستان ملتف الأشجار، وفيها مرقد الشيخ عمر السهروردي، ذو قبة هرمية الشكل.

يسكن هذه المدينة أغلبية مسلمة، من الشيعة والسنة، وفيها الكثير من اليهود، وأقل منهم المسيح. .

بيوتها حسنة البناء، يتألف أكثرها من طابقين، مبنية بطريقة واحدة ومواد مماثلة، كالطابوق الذي يستعمل في تشييد الحيطان وتطبيق الأرض، جدران البيوت من الداخل مبيضة بالجص، وأسس الدور متينة، والجدران مقواة بين مسافة وأخرى بأعمدة خشبية لحمل السقوف الثقيلة عليها. أسفل الجدران مكسو بالنورة المجبولة بالرماد، وأرض الحمامات وسائر الأماكن المعرضة للرطوبة مكسوة بالمادة نفسها أيضًا.

البيوت الكبيرة يكون فيها فناءان الأول خارجي للضيافة، والثاني يفضي إلى الحرم. أما دور العامة فلها فناء واحد، وليس ثمة اختلاف في طراز البيوت إلا بعدد الغرف. وتقوم مساحة الدخول رواق [طارمة] تستند إلى أعمدة من الخشب، منقوشة، وعلى هذا الرواق تنفتح الغرف، منها المقوس المعقود البناء، ومنها المنخفض ذو الأبواب. والدور التي على الشاطئ تطل بغرف عالية ذات نوافذ جميلة واسعة مزينة بالزجاج الملون.

وفي بعض البيوت سراديب، يلجأ الناس إليها من الحر. وتكون مفروشة بالحصير، وهي خالية من الأثاث، ويسيطر عليها جو كئيب، ينزل إليها الناس في النهار، أما في الليل فينامون على الأسطح.

بقينا فيها يومين نتفقد معالمها، إلا أن وجهتنا كانت مقابر قريش، وسبب تسميتها بهذا الاسم أن أبا جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد فوجئ بوفاة ولده الأكبر جعفر سنة (150هـ/ 767م) فاتخذ المنصور مقبرة إلى شمال المدينة المدورة وأطلق عليها اسم مقابر قريش وصار يدفن في هذا المكان كل من

يتوفى من العباسيين والعلويين. ولما توفي الإمام الكاظم عليه السلام سنة (183هـ/ 835م) دفن فيها. فسميت لاحقًا، مدينة الكاظمية، وهي على بعد فرسخ من البلدة على الجانب الأيسر.

خرجنا من السوق الكبير مصعدين على الجانب الأيمن من نهر دجلة، حتى وصلنا منحنى يصنعه النهر ويطل على منظر جميل لبغداد، واصلنا السير على الضفة نصف ساعة، فبلغنا غابة صغيرة من النخل بالغة الجمال. الطريق مليء بالناس من العرب والفرس والهنود، وهو في حركة دائمة. يمتطي هؤلاء الناس ظهور الحمير التي تكرى من مكان مخصص لها. وما أن تركنا الغابة الصغيرة حتى أدرنا ظهورنا إلى دجلة ورأينا في الأفق البعيد القبتين المذهبتين لضريح الإمامين الكاظمين عليهما السلام. يزينه في كل زاوية من زواياه الأربع بمنارة جميلة، وفيه ملحقات واسعة من مدارس وحجر للملالي وتلامذتهم. وقريب منه مدفون الفقيه أبو يوسف القاضي الأنصاري، وهو لم يكن من العباسيين أو العلويين، بل لم يكن قرشيًا، فالظاهر أن مكانته العلمية بصفة قاضي القضاة في العصر العباسي منحته ذلك التشريف بمواراته في مقابر قريش.

بلدة الكاظمية، بلدة صغيرة، حسنة البناء، فيها سوق وافر المؤمن. وجدنا فيها آلاف البيوت يسكنها العرب والعجم، وأغلبهم من الشيعة الأخبارية.

صار استقرارنا في مقابر قريش، قرب الإمامين الكاظمين. واشتغل الميرزا محمد بهمه، عيناه مشرقتان بحماسة لا تنضب، ويده لا تكف عن الكتابة، كأنه يسابق الزمن ليخط الكلمات قبل أن تتلاشى من ذاكرته. كتبه تحيط به من كل جانب، كأصدقاء مخلصين يشاركونه في كل لحظة، بينما كان يغرق في عالمه

الخاص، كان يشعر بالتأجج داخل قلبه كلما وصلت كلمة جديدة إلى الورقة، وكأنه يروي قصة حياة جديدة لكل حرف يكتبه. وتفانيه في نقل العلم والمعرفة إلى أذهان طلابه ومريديه، من خلال المباحثة والمدارسة. .

رغم انغماسه العميق في عمله، إلا أنه كان يعي أنه ليس وحده في هذا العالم، بل كان يشعر بوجود آلاف الأصوات تهمس إليه من خلال كلماته، تطلب منه أن يبقى مشغولًا بالكتابة، فالكون بأسره كان ينتظر ولادة روح جديدة من فكر أهل البيت، بمرجعية الكتاب والسنة.

وفي هذه السنة (3 جمادى الثانية 1215هـ/ 1800م) أتم كتابة (النور المقذوف في القلب المشغوف). ذكر فيه مئة وستين حديثًا قد نصت على أن الإسلام أعم من الإيمان، وأن العمل جزء من الإيمان، وذكر فيه ما اختلف فيه أفهام المتكلمين وأقاويلهم الناشئة من قلة تتبع الأخبار وعدم الاعتناء بها.

في أحد أيام الربيع من شهر آذار / ذي القعدة من هذه السنة (1216هـ/ 1801م)، اجتاحت السماء بظل مظلم لم يكن ينبئ بخير. الرياح تهمس بلغة مجهولة، وكأنها تحمل بين نسماتها الأولى رسائل من عالم آخر. الأزهار الجميلة في حديقة الحياة تتراقص تحت أشعة الشمس، غير عابئة بما كان يحدث خلف الستار الرفيع للطبيعة.

جاء الطاعون، كاللص الصامت الذي يختبئ في الظلمة. بدأت الأمور بشكل بسيط، رغم أنه كان يحمل في طياته الدمار. ظهرت الأعراض الأولى كأمواج خفيفة على سطح الماء، لتتسارع تدريجًا كالعاصفة القادمة. الحمى تنتاب الأجساد، والتقيؤ يصطحب الأمل الضائع.

أثار الطاعون في الناس خوفًا وهلعًا ورعبًا، وللمحاولة من حد انتشار الطاعون حاول الناس الابتعاد عن المصابين وعن الأماكن الموبوءة، والانعزال داخل البيوت.

خلت شوارع مدينة بغداد، انقلبت حياة الناس رأسًا على عقب. الأزقة الضيقة مليئة بالصمت والخوف. النوافذ المغلقة كتحف تخفي وراءها ألوان الحياة الباهرة. الأصوات المبتهجة تختفي تدريجًا، السوق النابض بالحياة يتحول إلى مكان خالٍ من الحركة. الأنوار الساطعة في الشوارع الضيقة تتلاشى تحت وطأة الوباء، والحياة المعتادة تتلاشى كقطعة من الضباب الممل.

توسعت ظلال الطاعون وامتدت لتغطي أسرار الأرواح. يموت كل يوم من ثلاثين إلى سبعين شخصًا. الشوارع مليئة بالهمس المكتوم والأنفاس المتقطعة للذين فقدوا ذويهم. كل صرخة تتصاعد في الهواء كانت تحمل أثر الفاجعة والموت، وكأن الحزن يتسلل في كل زاوية، يحاول أن يلمس كل قلب مكلومٍ. العيون الملتهبة تلتقط صورًا للموت في كل مكان، والنفوس كانت تحمل أثقال الفقدان والخسارة. الحكماء يواجهون هذا العدو الصامت بفارغ الصبر، يحاولون إيقاف الزمن ولكنه يمر بلا رحمة. اندلعت نيران اليأس في قلوب البشر، وكأنهم يسبحون في بحيرة من الحزن. كل يوم كان معركة مع الموت، والأمل كان يبتعد كلما اقترب الطاعون.

لجأ البعض من الناس إلى وصفات شعبية وطقوس دينية لمحاولة التخلص من هذا الوباء. في هذا السياق المظلم، تنبعث قصص الشجب والبسمة الأخيرة. تظهر قوة الروح في مقاومة اليأس، حيث يحاول البشر البقاء على قيد الحياة.

من الناس من هرب عن المدينة، ومنهم من بقي. حتى والي

بغداد سليمان باشا عزم على أن يترك المدينة ويذهب إلى مدينة (الخالص)، ذهب بأهله وخدمه، وكان قبل هذا معتلًا (بوجع المفاصل) وقد اشتد مرضه، واختلت راحته.

أما عائلة الميرزا فبقيت داخل المنزل، ولم تغادر المدينة، لا نخرج إلا لجلب الطعام أو لضرورة قصوى. وسط هذا الظلام، كانت هناك لحظات من البسمة، تلك البسمات التي تبرز في وجوه البشر رغم تحملهم لأعباء الطاعون. قد تجلب ضوءًا خافتًا من الأمل إلى عتمة اللحظة، كانت تلك اللحظات تحمل قوة التصدي للظروف الصعبة.

ونحن على هذه الحال، وبعد عدة أيام، وصلتنا أخبار مفجعة، وهي على قلوبنا أدهى وأمر من وباء الطاعون، انتشر الرعب والهلع بسببها ببغداد.

جاء أحد المريدين إلى بيت الميرزا، كان هذا الرجل في النجف الأشرف لزيارة المرقد العلوي بمناسبة عيد الغدير، مرورًا بكربلاء.

أتى وهو حامل عبء حادثة نقلها لنا من أرض كربلاء. عيناه انعكستا بلون البارود، تحمل مأساة تلك اللحظات المليئة بالدماء والدمار. ألم الحادثة مرتسم على ملامحه. لطم وجهه، وعلا صوته بنشيج:

ـ لقد هدم ضريح الحسين.. لقد نهبت كربلاء.

هدأه الميرزا وأجلسه، بعد أن طلب أن نحضر له الماء.. بدأت دموعه تنهمر على خديه. بعد أن سأله الميرزا ما الذي حدث؟ بدأ يتكلم، وكلامه كموجة عاصفة تجتاح الأفق. تتناثر كلماته كأوراق الخريف، تحمل معها شدة المعاناة

وصدى الصراخ والألم. في عباراته نغم محزن تعزفه أوتار الصوت باختناق:

- كان معظم أهالي كربلاء والمدن الأخرى ذاهبين إلى النجف الأشرف لزيارة مرقد أمير المؤمنين عليه السلام بمناسبة عيد الغدير، (18 ذي الحجة).

كان قد جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الوهابي النجدي جيشًا من أعراب نجد، ويقدر عددهم بخمسة وعشرين ألف فارس، كان منهم جماعة قد أتوا قبل ذلك إلى ضواحي كربلاء متنكرين بزي الزوار، لغزو مدينة كربلاء، نزلوا فيها فنصبوا خيامهم وقسموا قوتهم إلى ثلاث فرق، مغتنمين فرصة غياب الأهالي لزيارتهم النجف، ومن وراء أحد الخانات قاموا بالهجوم على أقرب باب من أبواب المدينة وتمكنوا من فتحه عنوة، وتسور الآخرون جدران البلدة، ثم تسللوا إلى داخل المدينة، وهم يقولون: اقتلوا المشركين! اندهش السكان وأخذتهم حالة من الذعر وأصبحوا يفرون على غير هدى، الوهابيون واصلوا طريقهم إلى الضرائح المقدسة وشرعوا في تخريبها، اقتلعوا القضبان المعدنية والأسيجة من أماكنها، ونهبوا المرايا الكبيرة والنفائس الثمينة التي بينها هدايا الباشاوات وأمراء وملوك الفرس، سلبوا زخارف الجدران، وقلعوا الذهب من السقوف، وأخذوا الشمعدانات والسجاجيد الفاخرة، والمعلقات القيمة والأبواب المزخرفة والمرصعة، وعشرين سيفًا محلّاة جميعها بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة، وأواني ذهبية وفضية وفيروزًا وألماسًا وغيرها من الذخائر النفيسة الجليلة القدر، وألفي سيف من الفضة، والكتب والمصاحف. ثم هدموا القبة المطهرة.

ولم يكتفوا بهذه الأعمال بل ربطوا خيولهم في الصحن المطهر ودقوا القهوة وعملوها في الحضرة الشريفة.. وقتلوا الآلاف من الناس في المدينة ممن كان خارج الضريح وداخله، عاثوا في المدينة فسادًا وتخريبًا، ونهبوا البيوت والأسواق، وقتلوا من دون رحمة كل من صادفوه، سرقوا كل دار ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل ولم يحترموا النساء ولا الرجال، لم يسلم الجميع من وحشيتهم.

أرادوا قتل جميع العلماء هناك، فقصدوا دار زعيم الحوزة العلمية في كربلاء السيد علي الطباطبائي لقتله، ولم يكن في البيت سواه وطفل رضيع، فلما أحس بهم حمل الطفل على صدره واختبأ في إحدى زوايا البيت المعدة لخزن الحطب والوقود ليختفي فيها عن عيونهم، ففتشوا كل البيت وصعدوا إلى تلك الزاوية، فما رأوا فيها غير حزمة من الحطب، موضوعة في ناحية منها، حيث أعمى الله أبصارهم ونجا السيد علي بأعجوبة..

ثم قصدوا دار السيد عبد الصمد الحسيني الهمداني الحائري وقتلوه، بعدما أخرجوه من داره بالحبل. وقتلوا سادن الروضة الحسينية مع إخوته وأبناء عمومته.

وقتلوا ممن عرفت من العلماء: الميرزا محمد طبيب الإيراني، والميرزا محمد اللكهنوري، وعلي نقي اللاهوري، وشقيقه الميرزا قمر علي.

إن المدينة التي أضاءتها شمس الإمام الحسين، أصبحت الآن مسرحًا للخراب والدمار.

ـ أي دين هذا الذي يدين به هؤلاء الوحوش! وأية

عقيدة فاسدة ينتمون إليها! أي منطق يبيح قتل الأطفال وقد ولدوا على الفطرة! أي شريعة تبيح سفك الدماء وانتهاك الأعراض والسلب والنهب والاعتداء على المقدسات!

- قلت والألم يعتصر قلبي: وأين حكومة كربلاء من كل هذا؟

قال الرجل:

- سمعنا أن عمر آغا، حاكم كربلاء، وهو سني متعصب، لم يفعل شيئًا لحماية المدينة. قد خرج في هذا اليوم وقبل الهجوم إلى قرية الهندية القريبة من كربلاء. واتُهم بأنه كان متواطئًا معهم، وكان قد جرى اتفاق سري بينه وبينهم على استباحة كربلاء.

لقد سمعنا أن شيخ المنتفق (حمود الثامر) بعث بخبر إلى سليمان باشا، وهو لا يزال في مدينة الخالص، بأن سعود بن عبد العزيز متوجه إلى كربلاء. فأرسل سليمان باشا الوزير (الكهية) علي باشا لصد الهجوم، إلا أنه بقي منتظرًا بعض القبائل لموافاته على مشارف بغداد، وبينما هم في هذه الحالة فوجئوا بأن الوهابيين قد نهبوا المدينة وذهبوا قبيل الظهر، وأن الأوان قد فات.

ليالي كربلاء دائمًا ما تكون هادئة، لكن في تلك الليلة الفاصلة بين الأمس واليوم، ارتعشت الأحياء بالفعل الآثم. كانت نسمات الرياح تحمل صرخات القهر والحسرة، وكأن السماء نفسها كانت تبكي دمًا. باجتياح زوابع الظلام كربلاء، تحولت الأزقة الضيقة والساحات الهادئة إلى ساحة ملتهبة بلظى الغضب ورائحة الدم. كان القمر يختفي وراء سحابة من الحزن، يشاهد الفاجعة تتكشف تحت زخات المطر، وكأن السماء نفسها تشترك في البكاء. باتت كربلاء كواحة من التراث المدمر بين الدم والتراب المقدس.

لتحكي للزوار قصة تاريخية مؤلمة حفرت في الحجر والزمن. مأساة كتبها الزمن بأحرف من دماء الأبرار.

في قلب هذه الكارثة، كانت قبة الإمام الحسين تحمل بين جدرانها الحكاية الأليمة لتلك اللحظة المظلمة. النجوم في السماء نظرت بحزن على الحادثة، مثل عيون شهداء كربلاء الذين استشهدوا قبل قرون.

في ظلام تلك الليلة، تعلو صرخات الأمهات والأطفال الذين فقدوا أحباءهم. كانت الكلمات تعجز عن وصف الألم الذي اندلع في قلوب الشيعة، الذين رفضوا الظلم والتدنيس لمقام الإمام الحسين.

هكذا كتبت كربلاء فصلًا جديدًا في تاريخها، ولكن بالرغم من الدمار والخراب، بقيت أرواح الشهداء ترقد في أرضها المقدسة، مزهرة بالأمل والصمود، في انتظار يوم يشرق فيه فجر العدالة والحرية.

بقى الميرزا تلك الليلة جالسًا أمام كتبه، تأثرت ملامح وجهه بظلال الأحزان، وعيناه كانتا تعكسان حكايات الألم التي تكتنف قلبه. جلس تحت ضوء خافت في زاوية صغيرة من مسكنه، الأرضية باردة والجدران متهالكة، لكن قلمه يحمله إلى عوالم لا يمكن أن يصل إليها أحد سواه. قرر أن يكون الصوت الذي يرفعه في وجه الهجمات الوهابية، قرر أن يكون صوت الحقيقة والرفض. لأنه لا يملك القوة والسلطة والسطوة، ولكنه يملك أداة بسيطة تكمن فيها قوة لا يستهان بها.. هي قلمه.

قدرته على فهم العالم عظيمة. آلاف الأفكار تتسلل إلى رأسه كل لحظة، تصارع لتجد مخرجًا، ولكنها تنحني أمام سيادة الصمت الذي يخيم على مشهد البياض.

في أعماق الليل، تختبئ أفكار الإنسان وتنبثق الكلمات كأحلام متشابكة، في عالمٍ مظلم من الصمت والكلمات المكتومة. وعيناه تحملانٍ ألوان الأفكار المفعمة داخله. ذهنه يتألق كالنجم في عتمة السماء، ليترجم أفكاره إلى جمل مفهومة للآخرين.

وقف أمام المرآة، وكأن في عينيه بحرًا من الأفكار المتلاطمة، يحاول تمهيد الطريق للكلمات الطافية في فضاء الورق.

رقص قلمه على الورق كأوراق الخريف المتطايرة. كان يواجه ذلك الحدث الأليم الذي هزَّ أركان المجتمع بطريقة تترك النفس معلقة بين فاصلة الحزن وصرخة الأمل.

كانت حروفه تنبثق كالشجرة الصامدة في عتمة الليل، بالرغم من العواصف التي تعصف بها. تعامل مع الأحداث كمصائر متشابكة، يحاول أن يفك رموزها ويبني حكاية تنسج خيوط التلاقي والتفاؤل.

هكذا كان يواجه الهجوم الإرهابي بسلاحه الوحيد، قلمه، الذي يحمل في طياته ليس فقط كلماتٍ وجملًا، بل رسالةً من أجل التوحيد والشمولية، في محاولة لنزع فتيل الكراهية وبناء جسور من التفاهم والسلام.

يقف في وجه العاصفة بكلماته التي تشبه الدروع السحرية، ويبني جدارًا من الحروف الصلبة ليحمي نفسه ومجتمعه وفكره من هجمات الجهل والعنف. قد تكون ريشته هي السيف، وحبره هو اللباس الواقي، ومع ذلك، تقوده تلك الأدوات إلى معركة لا تحمل في طياتها دماء، بل تحمل الفهم والعقلانية.

في نهاية اليوم، يظهر هذا الرجل بشموخه الهادئ ويشع بتألق أفكاره، مثل القمر الذي يبدي سطوعه في سماء مظلمة. يملك

القلم وحده، ولكنه يصنع به عالمًا من الحكمة والجمال، يقاوم به الظلام ويبني جسورًا نحو فهم أعمق وتواصل أفضل.

إلى أن أتم كتابه الموسوم (فصل الخطاب في نقض مقالة ابن عبد الوهاب)، ورفع نسخة منه إلى سليمان باشا والي العراق.

في مجلس غص بمحبيه ومريديه. سأله بعض أجلة الإخوان وسادة الخلان أن يحرر لهم أدلة فروع الإسلام، وما اتفق عليه الإمامية وما اختلفت فيه في هذه الأعصار والأيام.

فقبل الميرزا، وألف (رسالة في تحرير أدلة فروع الإسلام وما اتفقت عليه الإمامية وما اختلفت فيه) ووسمت باسم (أدلة الإسلام) و(الرسالة الاعتقادية)، وناقش فيها الأدلة الأربعة وحجيّتها وقد أتمها في أواخر سنة (1219هـ/ 1804م) بكربلاء.

وجهت للميرزا محمد دعوة من الشاه فتح علي شاه القاجاري، فلم يتردد الميرزا في قبول الدعوة، ورأى فيها فرصة للقاء رجال الدولة والعلماء، ربما لإيجاد بيئة أكثر استقرارًا لمتابعة مسيرته العلمية والفكرية.

تم الاستعداد للسفر بعزم، وشددنا الرحال صوب الري، تلك المدينة العريقة التي شهدت أمجاد التاريخ وتعاقب الحكام والعلماء.

سارت بنا القوافل ببطء، تجرّها الجمال المحملة بالمؤن والزاد، والطرق تمتد أمامنا وكأنها تقودنا إلى مصير جديد. في المساء، عندما نتوقف للاستراحة، يجلس الميرزا بجوار نار خافتة، يتلو بعض الآيات من القرآن، وكأنها أنيسه في هذه الرحلة التي قد تغيّر مسار حياته.

أثناء الطريق، كان الميرزا محمد غارقًا في أفكاره، يتأمل كيف ستكون هذه الرحلة، وماذا يخبئ له اللقاء مع الشاه؟

المحطة التاسعة

بلاد فارس - طهران (1219هـ/1804م)

ما أن وصلنا حتى دخلنا البوابة الرئيسية للقصر، الأشجار الضخمة تحيط به كحراس طبيعيين، حديقة مليئة بالزهور النادرة والنوافير الراقصة. أصوات المياه الهادئة تضفي على الجو أجواءً من السكون والرقة. الهواء يحمل عبير الزهور الفواحة من حدائق القصر، وكأنه يحمل رسالة من الطبيعة لتهنئتك بدخول هذا العالم الساحر. وكأننا في جنة من عالم الأحلام. واجهة القصر تتلألأ بألوان الرخام، الفن والزخارف الهندسية ترتسم على جدرانه، لتحكي قصة عظيمة من الأناقة والفخامة.

كل تفاصيل القصر تروي حكاية فخامة لا تُضاهى، السجاد الفاخر يمتد على طول الرواق كالأنهار الذهبية، والثريات اللؤلئية تلقي نورها الساحر على كل زاوية. وأنوار القصر الفخم كأنها نجوم متلألئة. أشعة الشمس تتسلل ببطء خلف الستائر.

الأثاث الفاخر يعانق جدران القاعات، وكأنه صمم خصوصًا ليرتاح في أحضان هذا الفضاء الفاخر. اللوحات الفنية تزين الحوائط، وكل لوحة تروي حكاية حضارية قديمة، حياة الأمجاد والأساطير، تبعث الحياة في هذا القصر البديع. منذ اللحظة التي تخطو فيها خطوتك الأولى على أرضيته الرخامية، تغمرك أمواج الدهشة والإعجاب، ليتشابك الفن بالفخر.

وقفنا أمام باب قاعة الاستقبال. انعكست صورنا في المرايا الكبيرة، وكأننا دخلنا عالمًا آخر، حيث الجمال يلتقي الرفاهية.

رأينا الشاه جالسًا على كرسي في طابع وهيئة رسمية. عيناه واسعتان يعلوهما حاجبان مقوسان أدكنان، وشارب متصل بلحية سوداء طويلة تصل إلى ركبتيه. وسطه نحيف مثل الدبور. يرتدي زيًا عسكريًا رسميًا بالغ الفخامة، رداء مصنوع من حرير باللون الأحمر، وبنطال بلون فاتح، زين رداء الملك في أعلى الرقبة وعلى الكتف، منتصف وأطراف الأكمام زينت بقطع من الأحجار الكريمة والألماس. على صدر ردائه ميدالية بيضوية الشكل مرصعة بالألماس والجواهر الثمينة. متمنطق بحزام مرصع بالزمرد والياقوت، معلق به خنجر مشغول بقطع من الأحجار الكريمة ومرصع بالألماس، مرتبط بسلسلة مع الحزام، ووشاح ملكي أزرق اللون، على رأسه قلنسوة حمراء، تحيط بها عمامة سوداء منسجمة مع لحيته السوداء، زينت العمامة من الطرف الأيمن بالذهب وحبات اللؤلؤ والجواهر، يعلوها ريش أسود.

على فخذه بشكل مائل سيف أسود طويل، ملون باللون الأخضر، زينت أطرافه بجواهر الزمرد والياقوت، بيده اليمنى صولجان مرصع بأكمله بالجواهر، مرصع باللؤلؤ وقطع الأحجار الكريمة.

تحته سجادة مصنوعة من الحرير الفاخر ملونة باللون الأحمر والأزرق الفاتح، منقوشة بزخارف، تتدلى أطرافها بحبات اللؤلؤ وقطع من الجواهر الكريمة، خلفه ستارة باللون الأصفر، وأطرافها باللون الأخضر. على الحائط بجانبه صورة يظهر فيها شريط من الزخارف الهندسية الإسلامية.

بمحضره مجموعة من الحاشية والقادة، كما يظهر من

ملبسهم، فمنهم من تزيا بالزي العسكري، ومنهم من كان يرتدي ثوبًا طويلًا ذا أكمام طويلة، مصنوعًا من الحرير الأزرق الأدكن، ومنقوش بزخارف من الزهور، ومزين صدر أثوابهم من الأعلى، كما زينت منتصف أكمام الرداء من الجهتين. ومنهم من ثوبه بدون زينة.

نهض الملك من عرشه، مدركًا أن الترحيب بالسيد الميرزا القادم إليه لا يكون فقط من خلال الكلمات والترحيب، بل بكل احترام وتقدير..

ارتسمت الابتسامة على وجه الملك، وعيونه تتلألأ بلمعان الأمل، دار الحديث فيما بينهما.. إلى أن وصل الحديث عن الحرب الدائرة بينهم وبين روسيا، قال الشاه وهو متكئ على عرشه:

- هناك سلسلة من الصراعات والحروب بين روسيا وبلاد فارس منذ عام (1651م). بسبب الحكم المتنازع عليه للأراضي والبلدان في منطقة القوقاز. ومن بين المناطق المتنازع عليها: أذربيجان وجورجيا وأرمينيا والكثير من مقاطعات داغستان (باسم جنوب القوقاز). هذه الأراضي كانت جزءًا من الدولة الصفوية قبل بداية الحروب الروسية على بلادنا. وعلى مدى سنوات الحرب، تناقلت الإمبراطوريتان حكم هذه المناطق بين الإمبراطورية الروسية وبلاد فارس.

أذربيجان وجنوب داغستان وأرمينيا وجورجيا خاضعة لحكمنا، وبعد مجيء ألكسندر الأول القيصر الروسي للحكم (1216هـ/ 1801م) طرأ تحول جديد في سياسة روسيا مع البلدان، وأصدر في هذا العام بيانًا يقضي بضم جورجيا إلى روسيا التي بدأت منذ ذلك الحين تولي تحصينها اهتمامًا خاصًا.

وقد اتصل زعماء جورجيا وشيروان وكنجه وأرمينيا وقره باغ وأذربيجان بالروس، وهو سبب من الأسباب التي أدت إلى الخلافات بين الدولتين.

بعض الزعماء والأعيان ثاروا على الدولة الفارسية، وطلبوا حماية قيصر روسيا وأتوا بقوات الروس إلى ولاياتهم وسلطوها على حياة المسلمين ونواميسهم في تلك الأقاليم، وعلى أثر المظالم التي ارتكبتها روسيا والأعمال المشينة للقوات الروسية بحق الأهالي في هذه المناطق ندم هؤلاء على فعلتهم باستقدام الروس إلى أوطانهم وتسليطهم على شعوبهم، وثاروا على الروس وحاولوا إخراجهم من أوطانهم، لكن مساعيهم هذه باءت بالفشل الذريع فلم يتمكنوا من طردهم من بلادهم، واضطر الكثيرون منهم إلى هجر ولاياتهم والالتجاء إلينا. فسعينا إلى استعادة أراضي جورجيا التي كانت تحت الحكم الروسي، لكن هذا السعي وللأسف تعرض لهزيمة قاصمة.

لدى الجيش الإمبراطوري الروسي جنرال بارز، هو المسؤول عن احتلال أجزاء كبيرة من أراضي القوقاز في بلاد فارس خلال هذه الحروب، وهو يشغل منصب القائد العام لروسيا في القوقاز من عام (1802م)، هو القائد بافيل ديميترييفيتش تسيتسيانوف، والمعروف أيضًا باسم بافل ديميتريس تسيتسشفيلي. والملقب عند عامة الفارسيين بلقب (اشبخدر)[1]، هذا القائد لديه مشاعر سلبية قوية تجاه المسلمين بشكل عام والفرس بشكل خاص، واحتقر كل ما يتعلق ببلاد فارس. ففي عام (1218هـ/

(1) بمعنى المفتش والمراقب، وهو تحريف للكلمة الانجليزية: (Inspector).

1803م)، شن هجومًا على غانجا واستولى على قلعتها. وفي عام (1219هـ/ 1804م). قتل حاكمها، جواد خان قاجار، وذبح عددًا كبيرًا من السكان. وفي صيف عام (1804م) تقدم في مواجهة القوات الفارسية في أرمينيا الفارسية، وحارب في غيومري وإيشمادين وعلى نهر زانغ، وأخيرًا في يريفان. مما أكسبته أفعاله وسام القديس فلاديمير من الدرجة الأولى.

مع احتلال هذه المدن تقدمت القوات الروسية حتى حدود ارس، وقد أرسلنا جيشًا بقيادة ولدنا وولي عهدنا عباس ميرزا إلى أذربيجان، وهاجم ايروان، التي كان حاكمها محمد خان القاجاري (اسمه يشابه مؤسس الدولة القاجارية) وكان قد سلم نفسه إلى الروس وقسّم تلك المدينة. وستيتسيانوف القائد الروسي كان قد هرع لمساعدة حاكم ايروان في حدود جمازين مركز خليفة الأرمن في ايروان فأمطر القائد الروسي جيش عباس ميرزا بوابل من الرصاص ثلاثة أيام، ولأنه لم يتمكن منهم أحجم عن استمرار الحرب المباشرة، في هذه الأثناء رأى محمد خان ضعف القائد الروسي أمام عباس ميرزا فهرع يطلب العفو والسماح من عباس ميرزا فعفا عنه.

بعدها انسحب ستيتسيانوف إلى الوراء وانتهت هذه الحرب بنصر الجيش الفارسي، وبقيت إدارة ايروان عند محمد خان، وسلمت حكومة نخجوان بحكمنا إلى كلب علي خان.

وصلتنا أخبار بأن القائد الروسي يفكر بتقسيم سواحل جيلان، ثم غزو طهران، وأن يجعل دولة بلاد فارس تحت الحكم الروسي، وفي هذا الوقت سلّم حكام مناطق شوشي وقره باغ أنفسهم إلى الحكم الروسي.

إن هذا التهديد الروسي، ليس مجرد مصدر لعدم الاستقرار على حدودنا الشمالية الغربية، وإنما أيضًا تحد مباشر لسلطتنا.

ثم قمنا نحن، بقيادتنا شخصيًا، بالهجوم على القوات الروسية ومعاقبة حكام قره باغ وشوشي، تزامنًا مع وصول الجيش الفارسي إلى سواحل نهر ارس. وهو الآن يعد العدة للهجوم على الجيش الفارسي، ليستولي على أراضينا.. وهو عقبة كأداء في طريقنا.

أردت أن أبين لك هذه التفاصيل لتسعفنا بما عندك من أفكار، فإن الحرب مشتعلة، وقد قررت هذه المرة، كما أشار علي بعض من نثق بهم، أن نلتفت إلى عقول العلماء. لطلب مساعدتهم في صياغة استراتيجيات جديدة، ليجتمع الحكم والعلم في محاولة لتحقيق التوازن بين قوة السيوف وحكم العقول، في رحلة ترسم لوحة من التحديات والأمل في ملحمة الصراع والحكم.

إن أحد الوزراء هو من أشار علي بأن تحضر للاستعانة بك، فقد وصل إلى مسامعي أنكم تتصرفون بالحروف الهوائية، والأسماء الحسنى بمقدرة واسعة. ولكم القدرة على تحريك الجمادات، وسمعت أيضًا بأنكم تخبرون بموت المريض أو شفائه من مرضه؛ بل وتعينون اليوم الذي يموت فيه.

أطرق السيد الميرزا محمد قليلًا، وكانت العيون كلها متجهة إليه، بصمت داهم أركان القصر، وهم ينتظرون منه الإجابة عن طلب الملك فتح علي شاه القاجاري. منهم من ينظر بعين الود، ومنهم من ينظر بعين الازدراء، وكأن عيونهم تقول ما الذي يمكن أن يقدمه هذا السيد أمام هذه الحرب الطاحنة.. وعمومًا

فالكل كان ينتظر الجواب. رفع السيد الميرزا رأسه، ثم قال وعيناه مليئتان بالحكمة:

- إنني ليست رجل حرب، لكن أظن أن التفاهم والتفاوض مع الطرف الآخر قد يجلب السلام. فرغم قوة السيوف والنار، إلا أن في القلوب رحمة أكبر، الحروب تنسجم مع أوتار الموت، لكن السلام يولد من بذر الحياة، فلنكن قادة للحياة وليس قادة للموت.

ارتفعت الأصوات الهامسة في القاعة، وكأنها كانت تتنبأ بالذي سيقوله السيد الميرزا. لكنها لم تتنبأ بما سيكمله الميرزا من حديث.. رفع الملك يده لينصت من في القاعة، وبيّن أن الذي قاله الميرزا كان قد عملوا به إلا أنه لم يفض إلى نتيجة. بل إن ما يفعله القائد الروسي هو كرهه للإسلام والمسلمين والقضاء عليهم هو ما جعله يعيث فسادًا في الأرض.

- أما والأمر كذلك، فإن لدي حلًا سوف يخلصك من هذا القائد الكافر.. فالقضاء على رأس الأفعى كفيل بموت جسدها.

- وكيف يمكن الوصول إليه؟ قال بعض الحاشية.

قال الميرزا بكل ثقة:

- بحول الله وقوته، في خلال أربعين يومًا سوف يكون رأس هذا القائد الروسي بين يدي الملك.

اشرأبت العيون والأعناق نحو السيد الميرزا، عشرات الأسئلة حامت فوق رؤوسهم، ماذا يقول؟ وكيف يمكن هذا؟... صار في القاعة دوي من الحاضرين.

- لكن لي طلب واحد أيها الملك. قال السيد الميرزا.

الملك جالس، وكأن فكره يتأرجح بين الحقيقة والوهم، وفي عينيه لهيب القرار والإصرار. يحمل عبء المسؤولية على كتفيه، ليس فقط البلاد التي يحكمها، بل عالمًا من الطموحات والآمال التي كانت تدور حول محور هدفه. قلبه ينبض بالطموح والهمم العالية. ليبني طموحه الشامخ بخطواتٍ واثقة على أرض الحقيقة. إلا أن ما أخبره به السيد الميرزا بعيد عن الحقيقة، بل هو من عالم الأوهام.

إن الشاه كان يبذل كل ما بوسعه من أجل تحقيق هدفه وتحقيق انتصاراته. حتى ولو كان بالغالي والنفيس، ولم يكن مستعدًا للتنازل عن أي شيء يقف في طريق تحقيق غايته. وما اقترحه السيد الميرزا سوف لن يكون فيه شيء من الجهد المادي والمعنوي للبلاد، بل إن تحقق فهو غنيمة كبرى، وانتصار ساحق. يحمل بين يديه فجرًا واعدًا بيوم جديد، فقال له دون تردد: لك ما تريد.

لم يكن السيد الميرزا يسعى للمصالح الشخصية أو السلطة الدنيوية، بالرغم من أنه كان في موقعٍ يمكنه من مطالبة الملك بأي شيء، بل كانت همته السامية موجهة نحو السماء، تتمحور حول نشر الدين وإيصال صيحة الإيمان إلى قلوب الناس بصورة عامة والتشيع بصورة خاصة، وخط المحدثين (الأخباريين) بصورة أخص، المتمثل بالدين المحمدي الأصيل عن طريق أهل البيت عليهم السلام. ففي قلبه وعي بأن رسالته تتجاوز حدود الزمان والمكان، تتناغم مع لحن الإيمان الذي ينير دروب البشر. فكما أن الملك يحمل على كتفيه عبء مسؤولية القيادة السياسية، كان الميرزا يحمل على كتفيه عبء مسؤولية القيادة الدينية والروحية.

طلب الميرزا من الملك أن يكون في مكان خالٍ أربعين يومًا، واختار مرقد الشاه عبد العظيم.

أحد الوزراء الحضور، طلب الاستئذان بالكلام، فيبدو على وجهه متاهات اللاوضوح، يحاول فك رموز الكلام الذي سمعه من الميرزا. وكأن شعورًا يجتاحه بأن هناك غموضًا خفيًا، وبابًا مغلقًا يفصله عن أسرار الكون. وفي داخله صوت يناديه بالكشف عن الخفايا ورؤية الحقائق المخفية.

أذن له الملك بالتحدث، فقال:

- ما فهمته من كلامك، أن العمل الذي تريد أن تفعله هو القتل عن بعد. ونحن نعلم كما يعلم البعض أن فعلًا كهذا يمارس في أوروبا من آلاف السنين، خصوصًا في فرنسا، لكن عندما يريدون أن يقتلوا شخصًا عن بعد لابد أن يعرفوه من قريب أو يروا صورته ويعرفوا لغته. فهل حضرتكم يعرف هذا القائد أو رآه؟

- أنا لا أعرفه قطعًا، ولم أره قط.

- فكيف لك أن تحقق ما تريد؟ قال بدهشة.

في صمت اللحظة، والعيون متوجهة نحو السيد الميرزا، قال بصوت هادئ:

- الحياة مليئة بالغموض والتساؤلات، أليس كذلك؟.

وكأنه يحاول أن يتفادى الرد بشكل مباشر. تأرجحت كلماته في الهواء مثل أوراق الخريف تحت نسمة هواء خفيفة.

السائل بقي ينتظر ردًا أوضح، لكن الميرزا بقي مستمرًا بكلماته الملتبسة:

- كل سؤال يحمل في طياته لغزًا، وربما لا يكون هناك إجابة واضحة لكل شيء في هذا العالم.

هكذا بقي الجواب يتدلى في الهواء كأوراق الشجر المتساقط، تاركًا السائل في حالة من الدهشة والاستغراب أمام تلك الإجابة البعيدة عن سؤاله. ورغم أن الكلمات كانت قليلة، إلا أنها خلفت طابعًا غامضًا يبعث على التفكير والتأمل. ثم أردف الميرزا:

ـ أنا لا أحتاج سوى إلى وصف له.

انفض المجلس، وذهبنا إلى مرقد السيد عبد العظيم الحسني، وهو ابن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، مرقده في الري، وعلو مقام السيد وجلالة شأنه أظهر من الشمس، فهو من سلالة خاتم النبيين، ومن أكابر المحدثين وأعاظم العلماء والزهاد والعباد وذوي الورع والتقوى، ومن أصحاب الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام، كان متوسلًا بهما أقصى درجات التوسل ومنقطعًا إليهما غاية الانقطاع. ولد رضي الله عنه في اليوم الرابع من شهر ربيع الثاني، عام (173هـ/ 789م) في عهد الإمام الكاظم عليه السلام، وعاش في مدينة سامراء، وخرج من سامراء هاربًا خوفًا من بطش السلطة العباسية في عهد المتوكل، الذي كان شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظًا على جماعتهم، شديد الغيظ والحقد عليهم وسوء الظن والتهمة لهم، فبلغ بهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله.

فبقي في الري إلى أن توفي في الخامس عشر من شوال سنة (252هـ/ 866م). وبني عليه ضريح له قبة سميكة الدعائم.

رأينا على القبر صندوقًا عتيقًا مؤرخًا سنة (725هـ/ 1325م) عليه آيات قرآنية، وكتب معها هذا النص: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بترتيب هذه التربة الشريفة والروضة المنيفة، والمشهد

المقدس والمرقد المنور للسيد الأعظم الأجل المعظم جلال آل طه ويس، حبل الله في الأرضين، سراج الملة والدين، عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، بإشارة المولى الصاحب الأعظم والمفتخر الحاج الحرمين، دستور العهد خواجة نجم الحق والدين محمد ابن المولى الصاحب الأعظم سلطان منصور الفومدي أعز الله أنصاره وطاب مثوى آياته العظام وأجداده الكرام، تحريرًا في سنة خمس وعشرين وسبعمائة). والخواجة هذا كان وزير المغول في سنة (716 ـ 736هـ/ 1316 ـ 1335م).

ويوجد باب عتيق كتب عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. . . تمت (كذا) هذا الباب لمشهد الإمام المقدس سيد عبد العظيم عليه السلام سنة ثمان وأربعين وثمان مائة، (848هـ/ 1444م) أي في حكومة السلطان شاهرخ الذي حكم (807 ـ 850هـ/ 1405 - 1446م).

ويقوم فوق القبر شباك فضي، قدمه الشاه القاجاري فتح علي هدية للحرم، وأهدى أيضًا في عام (1219هـ/ 1804م) مرايا منصوبة في أعلى الإيوان وجوانب الأروقة.

والشيعة تعظم مزاره، لورود حديث في المصادر الشيعية أن من زاره كمن زار الحسين بن علي عليه السلام.

اختلى السيد الميرزا في إيوان معزول من هذا المرقد المبارك، في غرفة مغلقة، مليئة بنسمات الهدوء، خافتة الأضواء. أذهب إليه كل ليلة لأجلب له طعام الإفطار لأنه كان صائمًا في كل هذه الفترة، أضع له الطعام عند الباب وأذهب، أسترق السمع أحيانًا، كل ما كان يحيط به كان هادئًا، حتى الطيور كانت تغني أناشيد السماء بلحن يلامس أوتار القلب،

- أخبر الشاه، بأن الأمر قد قضي في موعده، ورأس اشبختر محمول اليه، إلا أن حامل الرأس قد تعثر فرسه وأصيبت رجل الفرس، وخلال ساعات سوف يأتيكم.

بعد ساعات حصل ما أخبر به السيد الميرزا، وجاء حامل الرأس ووضعه بين يدي الملك القاجاري، وأخبرهم أن سبب تأخره أن الفرس قبل ستة فراسخ تعثر واصيب برجله.

ذهبنا إلى قصر الشاه، فاطلع رجال الدولة والبلاد والمملكة على هذه الكرامة، كل ذلك الانتظار والعناء قد تجسد في هذه اللحظة الفارقة المليئة بالتأثير، اتسعت عيون الملك ولامستها أشعة الضوء بشكل خاص، عمّ الخبر البلاد، أصبح الناس في فرح وسرور، استندوا إلى ركبهم ورفعوا الأيدي نحو السماء تعبيرًا عن فرحهم. الأصوات ترتفع بجماجم عالية في ترنيمة الانتصار، والهتافات تعلو كموج غير مكتمل. تكشف الابتسامات الساطعة عن حكاية النجاح والتحديات التي تجاوزوها. وكأن الفرح يرسم على وجوههم لوحة فنية، تحمل في طياتها زهو الانتصار.

وسط هذا البحر الفرحي، ظهرت لحظات من التأمل، حيث استوقف الحاضرون أنفسهم، ووجهوا نظراتهم إلى السيد الميرزا، الفارس الصامت، صاحب الكرامة الكبيرة، وهو يقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال أحد الوزراء: ما هذا السحر الغريب والعظيم؟

- معاذ الله أن أكون ساحرًا. قال السيد الميرزا بامتعاض.

- وماذا يكون غير ذاك؟

ـ يكون ما لا يمكن أن تدركه العقول..

ثم انبثق حديثه كنهرٍ هادر يجري بين الصخور. تتناغم كلماته مع صدى الأرواح:

ـ الكون كتاب الله المنشور، يقلب الإنسان صفحاته ليستكشف قوانينه، ويضع يده على مصادر القدرة الغامضة فيه.. التي يسعى الإنسان إلى استجلاء كنهها. الإنسان هو الكون الأصغر. لكنه جهل مقام نفسه حتى أهمل الطاقة الكامنة فيه. تلك التي تكمن في عقله فلم يستفد إلا بجزء بسيط منها، وبرغم أن الله ميزه، إذ نفخ فيه من روحه، إلا أنه غفل عن هذا السر العظيم.

الفكر الصادر من الإنسان يرسل دفقًا من الموجات إلى مادة العالم العقلي والحياة العقلية، ويربطه بالكون الأكبر بعدد ذاتي وآخر روحي. وأن في انعكاس الكون الأكبر في الكون الأصغر تكمن كل مفاتيح المعرفة، فمن خلال الجزء ربما يتاح معرفة الكل، ومن خلال الفرد يدرك الكون. قال الله سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

توقن الروح أنها إنما خلقت للخلود، وأنه في مقدورها اجتلاء بعض ما يحدث في المستقبل القريب، ولذلك فهي تحاول أن تنذر الجسد الذي تسكنه وتقوده خلال تأثيرات الحياة المختلفة لتجنبه ما قد يعترضه من ضلال أو شذوذ..

كل الأشياء في هذا الكون تجري في ترتيب معين وليس هناك في الحقيقة أي شيء يحدث بمجرد المصادفة أو الاتفاق، بل إن كل شيء يحدث لا بد أن يكون له سبب، وجميع ما يقع حولنا

إن هو إلا نتيجة مباشرة لبعض أشياء حصلت من قبل، فنستطيع قراءة المستقبل من الحاضر، لأن الحاضر وليد الماضي ولا مفر مطلقًا من أن يكون المستقبل وليد الحاضر.

الروح سر يملأ الفضاء ويفيض على الأكوان، بل يخترق سياج الأجسام الصلبة وينفذ إلى أقطار السماوات والأرض في لحظة واحدة، وإذا طارت إلى عالمها رأت هناك أرواحًا روحانية وملائكة سماوية، فيحصل التعارف والازدواج، فتأخذ أسرار الملكوت عنهم إما بالواسطة أو تطبع فيها صور تلك الهياكل ومعانيها. فإذا ما عادت بالجزر إلى هيكلها أفاضت عليه تلك المعارف، فيقول ما شاء ويخبر بما يريد مما ألقى إليه ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

إن العقول تتفاوت في النضج والإدراك والحكم على الأشياء، فالعقل الحكيم البالغ في نضجه وعلمه وإدراكه وحكمه يستطيع بنور الله أن يصل إلى معرفة رشيدة، تسمو به إلى معرفة ما يريده الله للبشر في مكنون علمه شهادة وغيبًا. ذلك أن النفس من عالم المجردات والمعقولات، ولذلك فهي تستطيع أن تدرك المدركات التي هي من جسمها إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن. فإذا قويت بالفضل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية عليها اتصلت النفس بغيرها وبالنفوس الفلكية وتلقف عنها المغيبات كما يقع لها في يقظتها.

وفي الحديث الشريف (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن لا يشعرون)، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس يحسبون وهمًا، أن المعرفة تقع لهم إبان اليقظة مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئًا من عالم الغيب... وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس، أن

النفس الصافية الراقية المتحررة من ضغط الأفكار الفاسدة تستطيع أن تدرك من عالم الملكوت يقظة ومنامًا، ويكون صاحبها وليًا يدرك في يقظته ما يدركه في منامه.

ثم توجه الميرزا بنظره نحو الملك وقرأ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

فقال الملك: لك ما وعدناك به.

استطاع الميرزا أن يترك بصمة لا تنسى، تداول الناس قصصه التي تمتزج بين الخيال والحقيقة، وحول نجاحاته الباهرة والكرامات الغريبة التي تحيط به. أنه قادر على تنبؤ المستقبل بدقة، وأنه يمتلك قوى خارقة تسمح له بالتفاعل مع عناصر الطبيعة بسهولة.

أما المغرضون له، فلم يستطيعوا إنكار ذلك، لكنهم حاولوا قلب الأمر باعتبار ذلك مثلبة لا منقبة، وأنها دليل شعوذته وسحره وخروجه من ربقة الإيمان! واشتهر في طهران أن للشاه ساحرًا، وصار السواد الأعظم يشيرون إليه بالبنان بأنه ساحر السلطان. وهذا ديدن السواد يعبّرون عما يجهلونه من العلوم بالسحر أو ما شاكله.

وكان دائمًا ما يتمثل بهذا البيت من الشعر:

كراماتي لديهم نوعُ سحرٍ

وديني دينُ ساداتٍ كرامِ

علت مكانة السيد الميرزا عند الشاه؛ وقربه وأغدق عليه الصلات الكثيرة والجوائز الوفيرة؛ ودعا خلال وجوده إلى فكر

آل البيت عليهم السلام حتى انتشر الفكر الأخباري في تلك الأرجاء.. وبقي مشتغلًا بالتدريس والتصنيف.

في هذه السنة (1220هـ/ 1805م) أتم كتابة رسالة (مجالي الأنوار) وهي رسالة في المبدأ والمعاد، لقّبها بـ (التُّحفة العلويَّة) قال في مقدمتها بعد البسملة: (فهذه وجيزة عزيزة في بيان ما سنح بالبال في المبدأ والمعاد وما بينهما من الشؤون والأحوال، سبق القضاء بإبرازها من قلم الإبداع على لوح التكوين والاختراع في تجليات تترى). رتبها على اثني عشر تجليًا.. وكان الانتهاء من كتابتها في مرقد السيد عبد العظيم الحسني.

وفي هذه السنة الخصبة والمليئة بالبركات، جاءت الفرحة بمولود جديد إلى بيت الميرزا، حيث رزقوا ابنهم الأصغر، الميرزا علي، كنجمٍ جديدٍ يضيء سماء الأسرة، كانت هذه اللحظة بمثابة هبةٍ من السماء، تجسدت فيها بركات الله وعطاؤه اللامحدود.

وفي عام (1221هـ/ 1806م) أتم كتابًا في أصول الدين وعقائد الشيعة وأحقية الطريقة الأخبارية، ألفه للشّاه محمد علي القاجاري، باللغة الفارسية وسماه (تحفة جهانباني).



الشمس تتسلل خجولة من بين سحب صباحات أحد أيام سنة (1221 هـ)، ترسل أشعتها الدافئة لتضيء وجه المدينة. في تلك اللحظات الهادئة، قرر السيد الميرزا الانطلاق إلى أصفهان، لزيارة الميرزا محمد الكلباسي، وهو من زملاء السيد الميرزا أيام الدراسة في النجف الأشرف، ومن تلامذة الشيخ جعفر كاشف الغطاء المبرزين، وهو من بعثه إلى أصفهان مجازًا منه ونائبًا عنه. حتى أصبحت له الرئاسة في أصفهان. ورغم أن السيد الميرزا كان يحمل في قلبه الرغبة في رؤيته منذ زمن،

إلا أن الشيخ طوال هذه الفترة لم يأت لزيارة السيد الميرزا. ولما سمع السيد الميرزا من بعض المعارف بأن الشيخ أصيب بوعكة صحية، شددنا الرحال للقيام بهذه الزيارة، رغم طول المسافة البعيدة بين طهران وأصفهان.

بعد عدة أيام وصلنا إلى أصفهان، حيث يسكن الميرزا الكلباسي. دخلنا إليه فيمن دخل، حيث أن الناس تتوافد عليه لزيارته، ورأينا ضمن الحضور السيد محمد باقر الرشتي، الذي تولى الزعامة مع الشيخ في أصفهان. اتسعت عيون الشيخ من الدهشة حينما رأى السيد الميرزا أمامه.

ألقينا عليه التحية، واستقر بنا الجلوس، ظهر أن الشيخ يحاول كبح جموح التوتر في صوته، ولم يبد أي فرح أو اهتمام.

صار السيد الميرزا يعاتب الشيخ على عدم مجيئه حين قدومه على مقتضى العادة، قائلًا:

- إن لي حقًا عليك قديمًا؛ لأنّا في أيام التحصيل كنا سواء، وفي طلب العلوم أصدقاء، وأراك لم تراع تلك الحرمة ولا أديت ما يوجب الحق؟!

لم يتكلم الشيخ الكلباسي، وأعرض عن السيد الميرزا! بعد برهة من الزمن، قال السيد الرشتي الذي كان حاضرًا:

- إن الشيخ الكلباسي مأمور من قبل أستاذه، ومن عليه بعد الله اعتماده، الشيخ جعفر النجفي، برفض جماعتكم الأخباريين، وعدم مراودتكم أجمعين، بل وقد أمر الشيخ النجفي جميع تلاميذه، ومن يحضر عليه ويوصيهم بعدم المراودة مع هذه النبعة الخبيثة على الإطلاق، وعدم التكلم معهم والجلوس بمجالسهم، والتباغض معهم كي يذلوا،

وتكسر شوكتهم عند العوام، الذين هم كالأنعام من تبعة تلك الأقوام. ومن خالطهم ومن جالسهم فهو عاق لأبوة الأستاذية؛ التي هي أعظم من الأبوة الحقيقية، فلهذا ترك الحاج القدوم عليك!.

- أما الآن، فقد آل الأمر إلى الحقوق والعقوق، فإن تعارضتا فأيهما المقدم؟ قال الميرزا.

- لا إشكال في تقديم العقوق على الحقوق، رد السيد الرشتي. ثم استشهد على ذلك بأحاديث..

صار السيد الميرزا يناقش أسانيد تلك الروايات؛ وأورد بعض الإيرادات في متنها وعربيتها، وهو في الجدل لا يدانيه أحد؛ فأثبت في ذلك المجلس تقديم الحقوق، وأتى بروايات من كتاب الكافي تدل على ما يقول. فسكت الحاضرون جميعًا، وكل ذلك والشيخ الكلباسي ساكت أيضًا.

عرف السيد الميرزا أن الطريق إلى قلب الصديق المتوعك قد يكون أطول وأصعب من أي رحلة في العالم. فهممنا بالخروج خشية أن يقتلنا أهل أصفهان بإشارة من رئيسيها الشيخ الكلباسي والسيد الرشتي، المتنفذين فيها.

عدنا إلى طهران. وفي هذا الوقت عرفنا أن الشيخ جعفر كاشف الغطاء جاء إلى طهران، وقد سمع عن المكانة التي تبوأها السيد الميرزا عند الشاه، فلم يرقه ما وصل إليه السيد الميرزا من مكانة، وكأنه رأى أنه قد سحب البساط من تحته؛ وراءه انتشار النهج الأخباري.

قصدنا قصر الشاه، ووجدنا الشيخ جعفر فيه، بعد أن استقر بنا المجلس كان الشيخ جعفر حانقًا جدًا على السيد الميرزا.

بدأ الشيخ جعفر بالكلام، طلب المحاجة مع السيد الميرزا. دار الحديث بينهما، ثم اشتد، زادت حدة الحديث وتسابقت الكلمات بينهما كأمواج متلاطمة تلتقي وتتشابك وتتلاعب بأشكالها. الحديث يلتف بعضه حول بعض، تحول إلى عاصفة من الحوار المتقاطع، كعواصف جارفة تحطم كل ما في طريقها. الكلمات الهادئة تتبدل بسرعة إلى أفكار متصارعة بجمل متشابكة بلا وداع. واندلعت نيران الجدل بينهما كأنها لهب يأتي من باطن الأرض.

فجأة، اشتد الصمت بشكل ملحوظ، وكأن الهواء نفد من الغرفة، تاركًا لهما فرصة لسماع تنهيدة عميقة تنبعث من أعماق قلب كل منهما.

تلاشت الكلمات في الهواء المشبع بالتوتر، وبدأت الأفكار تتصارع في عقليهما. كان الصمت يعصف بينهما كالزوبعة المدمرة. تلاقت عيونهما محاولين قراءة ما يدور في أعماق الآخر، ولكن الغموض الذي يكتنفهما كان يمنع أي محاولة للتفاهم. في تلكَ اللحظة الصامتة، شدت حواف الكلمات مثل السيوف البراقة في الظلام، جاهزة للانطلاق إلى حرب لا نهاية لها من الكلام، حيث يصبح الصمت مجرد همسة في زحام الحديث.

ولأن الجدل لا يفضي إلى نتيجة، دعا السيد الميرزا أن يضرموا نارًا فيدخل كل منهما فيها فمن كانت عليه بردًا وسلامًا فهو مع الحق، ومن اصطلى بها فهو مع الباطل.

قال له الشيخ: ذاك من مكر أولي السحر، وسحر أولي المكر، فلا يصلح لإثبات المطلوب، لكننا نجري في ميادين المسائل، حيث تبين بها فضيلة أولي الفضائل. فمن كان على حق نجا، ومن كان على الباطل هوى.

تصاعدت أصداء الكلمات والحجج كالأمواج في عرض البحر الهائج. المناظرة بينهما تتجلى وسط أجواء من التوتر والانتظار. أشعة الشمس تشع ضوءًا حادًا من خلال نوافذ القصر الضخمة على وجوه الحاضرين الذين يراقبون المشهد بفضول، يتبادلون الهمسات والتعليقات الخفيفة. بقي الطرفان يتبادلان النظرات والكلمات الحادة، وكأن كلًا منهما كان يحمل في قلبه أحقادًا وآراءً تتناقض في جدال لا هوادة فيه. ولم تفض إلى نتيجة. .

تكررت تلك المجالس بينهما غير مرة، وللسيد الميرزا له في الجدل يد طولى لا يغلبه أحد لكونه واقفًا على علوم كثيرة. ولكثرة هذه العلوم والمعارف المزدحمة في فكر السيد الميرزا يستطيع التحول من علم إلى آخر، ليظهر عجز الشيخ في المناظرة. . والشيخ جعفر يقول له: قف حتى نفرغ مما بأيدينا ثم انتقل إلى ما تقوله.

والسيد الميرزا يجيبه: بل عجزت وتوقفت. إلى أن غلب الشيخ جعفر في المناظرة.

فقال الشيخ جعفر وهو غضبان غضبًا شديدًا:

- يا ملعون أنت تريد أن تضل العوام، فزينت كلامك بالباطل بزينة الحق وأبرزت عقائدك المستهجنة بصورة حسنة، فَضَلَلْتَ وأَضْلَلْتَ، وتبعك بعض ممن ظنك على هدى وأنت منه ومن الدين سدى، ولئن بقيت على هذا ليذهبنّ الدين، وتنمحق الشريعة بتقنيعاتك يا لعين.

قال له السيد الميرزا:

- إن هذا جدال لا طائل منه، فمن غير حكم ثالث بيننا

لا يمكن، وهو محال غير ممكن، أما أدنى من الطرفين فلا يقبل منه، أو مساوٍ فيتّهم أو أعلى فلا يوجد.

توجه الشيخ جعفر بنظره إلى الملك وقال:

ـ لا حاسم لهذه المشاجرة إلا المباهلة، فليعين الشاه لنا يومًا نتباهل فيه ونرى الحق لمن، وعلى من، والفلج ممن وفيمن.

ثم رجع بنظره الغاضب صوب السيد الميرزا:

ـ وإلا فإنك فضلًا عن ضلالك في نفسك قد أضللت كثيرًا من الناس، فالواجب علي ردعك وزجرك، وإنقاذ الناس من غوايتك، وتبصيرهم من عمايتك، وحيث أن لا قادر علي وعليك، ولا عليم بأمري وأمرك إلا علام الغيوب، فاللازم علينا التحاكم إليه فهو أحكم الحاكمين.

غمر السكون القصر، وكأن الزمن توقف لحظة للاستماع إلى تلك الكلمات. . بعد لحظات من التأمل، تهامس أحد الوزراء مع الملك، ثم قال الوزير للسيد الميرزا:

ـ إن كان الحق معك فأجب الشيخ إلى ما يقول لتنقطع المشاجرة، ويمتاز الخبيث من الطيب، (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) والله أسرع الحاسبين.

أعلن السلطان موافقته على المباهلة، مظهرًا للجميع أن العدالة قلب حياة الإنسان يمكن أن ينقلب في لحظة عندما يكون هناك قلب صادق يبحث عن النجاة.

لم يمتنع السيد الميرزا من القبول، بل وافق على المباهلة. وانتهى المجلس إلى حين تعيين يوم للمباهلة.



تم تعيين يوم للخروج إلى الصحراء، جمع الوزير بأمر السلطان أركان الدولة وذكر لهم الواقعة، وأمرهم بالخروج ليكون يومًا مشهودًا. فخرج السلطان والوزراء وجميع الأعيان، ولم يتخلف منهم أحد.

وجاء الشيخ جعفر متعممًا بعمامة أرخى طرفها، وأسدل الآخر، والتحف ببردة يمانية، وتأزر بأخرى، وفي رجليه نعلان شراكهما من ليف. وجاء السيد الميرزا وهو متعمم بعمامة صغيرة، ولف رقبته ببعض الشَّول، وشدّ على وسطه البنود، وخرج معه جماعة من صحبه ومحبيه.

ضربت الأخبية والخيام في الصحراء، خارج البلد، وقد جن الليل ووقع القرار على أن تكون المباهلة في فجر اليوم اللاحق بعد صلاة الفجر، وتم إعلانها، فتفرق الناس كل في خيمته وخبائه.

بقي الوزير، وكان حانقًا على السيد الميرزا، ومقربًا من الشيخ جعفر، يتفكر في ما سوف يؤول الأمر إليه، وأخذه القلق والأرق والاضطراب والخوف من وقوع هذا الأمر وأن تكون الغلبة للسيد الميرزا على الشيخ جعفر. فلم يزل يفكر في نفسه بطلب الحيلة في تدبير الأمر، حتى عزم على نقض ما أبرم من قضية المباهلة، وبقي يتأمل في ذلك.

خشي الوزير أن ينام الشاه ويصبح الصباح ويقع المحذور، فأخذ يلهيه بذكر سياسات المملكة وتدبيرها في بعض أمورها، وجر الوزير الكلام إلى كثرة الجند والعسكر والقوة والشوكة، لعلمه أن السلطان لا يسهره ويؤنسه إلا مثل هذه الأمور.. إلى أن انتصف الليل وهجعت العيون، وهدأت الهواجس وركدت الأوهام والظنون. وهذه هي الفرصة لقول ما يريد:

- الحمد لله، بهمة مولانا الملك قد اشتد بأس المملكة، وكثر

الجند وانتشرت الرعية، ومما يدل على ذلك أن الخارجين معنا من طهران ليس إلا ربع من فيها، وهاهم لا يحصون.

وقد خرجت لتفقد الجند والعسكر، فرأيت خيمة صغيرة نائية عن الخيم، فأردت أن أرى من فيها، فلما وصلت قريبًا منها سمعت بكاء ونحيبًا وشكوى محب إلى حبيبه، فتأملتها وإذا بالشيخ جعفر واضع خده على التراب وهو يتململ على الأرض تململ السليم، ويئن أنين الفاقد، ويناجي ربه مناجاة الحزين الواله، ويتوسل بالنبي ﷺ، حتى فرغ من أطايب المناجات، وقام إلى إكمال صلاته، انصرفت عنه.

فأردت الذهاب إلى خيمة الميرزا وأرى حاله، لأميز بينه وبين ذلك الشيخ الأوّاه. فوصلت إلى خباء ميرزا محمد لأنظر بما هو مشغول وكيف مثواه، فرأيت العجب العجاب..

نظرت إلى الخيمة بين الستائر وإذا بولد أمرد، ورجلا ميرزا محمد في حضن الولد، وهو يمرغهما والرجل نائم.

تعجب الشاه من قول الوزير، اتسعت حدقتا عينيه. وارتفع حاجباه، معبرين عن التساؤل والاندهاش.

ثم أردف:

وحضرة الشاه المعظم أجل من أن يخفى عليه هذا الأمر ويشتبه، فإن كنّا نائمين فلننتبه، هذه آيات الله ظاهرة، وحجج الحق باهرة، وبينات الصدق قاهرة، ونهج الهدى مستقيم، وطود الباطل رميم، فعلام ومم المباهلة؟ وهي لا تكون إلا لأمر مشكل قد أوقع في الحيرة، وعَمِيَ لعدم التمييز فيه أولو البصيرة، وهذا الأمر واضح المناهج بين المسالك، ونحن لو تأملنا في عقولنا وراجعنا إدراكنا عرفنا أي هاتين الحالتين سيرة الأنبياء والأولياء، وأيهما جيلة الأشقياء.

وتعرف أيضًا الميرزا وسحره، فإني أخشى أن يسحر أعين الناس بما ظاهره الغلبة على الشيخ، فيتضعضع ركن الملة والدين بالسحر المبين. فإني أرى أن ننهي قضية المباهلة خوفًا من تزويرات هذا الرجل الباطلة.

بقي الشاه متحيرًا متفكرًا..

قبل أن ينبلج الفجر أرسل الشاه رسولًا من قبله إلى السيد الميرزا: أن يرتدع عن غيه من معارضة الشيخ ومناصبته، وإلا أخذ بأمّ ناصيته.

ثم نادى المنادي في الناس: إن الحق تبين عند الشاه لمن، والفلج فيمن، فليرجع كل منكم إلى محله.

استأنس الوزير بذلك، فقد نجت خطته.



كان يومًا مظلمًا في قصر الملك، حيث الخيانة تلتف حول أروقته كظلال الشر المتسللة. دخل الوزير على الملك، وظله يطوقه مثل الرداء الذي تمتطيه الظلال الليلية، علم أن اللحظة الحاسمة قد حانت. دخل القاعة الملكية بخطوات واهنة وعيناه تحملان وميض خوف مختلط بالمكر، حاملًا في أفكاره استكمالًا للخطة التي بدأها لإطاحة السيد الميرزا، لقربه من الملك، وثقته ومودته.

كما يلف الضباب الخفي الجبال، قاد وزير الظلام مؤامرته بحذر ودهاء. استغل كل لحظة وكل كلمة ليزرع بذور الشك في قلب الملك تجاه الميرز. بدأ ينمي في قلب الملك شكوكًا حول ولائه وصدقه. ليفقد الملك الثقة في الميرزا، بينما تشع نيران الغدر في عيون الوزير المخادع القادرة على التلاعب.

ـ أيها الملك: إن هذا الرجل يريد محق هذا الدين، وقتل المجتهدين، وأنا أخاف من أن يكثر عليك من الرعية والدول القال والقيل، ويقع التشويش في المملكة، ولعلهم يخلعون منك أمر السلطنة، لأن هذا دين الناس القديم، نشأت عليه الآباء، وورثته الأبناء. وكيف تترك الدولة القاجارية دينها الذي نشأت عليه ودانت به من قديم الزمان لساحر كذاب أو كافر مرتاب؟

دخل هذا البيان في ذهن السلطان، وقال: فما الرأي فيه؟

قال: إن بقاء هذا الرجل في بلادك من غير المصلحة لك، ولعله يتغير عليك، ويصنع بك كما صنع بعدوك الروسي.. فالرأي أن تنفيه إلى العراق فتنجو من شره، وتتخلص من مكره.

انعكس على وجه الملك تشوش الأفكار وخيوط الشك. فقال لهم الملك: ذاك إليكم.

بهذا تمكن الوزير من تحقيق هدفه، إذ ألقى بظلاله السوداء على العلاقة بين الملك والميرزا.

بعد ذلك، أرسلوا للسيد الميرزا وأخبروه بأن الشاه أمر لك بكذا مقدار من المال، ويسألك الدعاء عند العتبات العاليات، وهو يقضي بعدك ما أردت، ويسعى فيما أحببت قدر الجهد. وهو موكل بك رجلين من الجند حتى يوصلاك إلى حكومة العراق، وأوصاهما عن لسان الشاه بحفظه لديهم وعدم خروجه من تلك الآفاق.

المحطة العاشرة

العراق (1221هـ - 1821م)

انطلقت الخطوات عبر الصحارى والجبال، ترافقت مع صدى همس الرياح التي كانت تحمل بين جناحيها أسرار السيد الميرزا. حملت رحلته آثار الأحداث الجارية في إيران، حيث الضغوط الاجتماعية والسياسية التي أفضت إلى نفيه. ومزقت أوصاله بين الأوطان. طيور الغربان تحلق في السماء الزرقاء، كما لو أنها تشهد على رحيل السيد الميرزا الذي تم نفيه من بلاد فارس إلى العراق.

وصلنا العراق، الأيام الأولى مليئة بالألم والتحديات، لكن السيد الميرزا أدرك أن الحياة مستمرة وتتطلب منا تكييفًا مع متغيراتها. محاولًا ترسيخ قدميه في هذه التربة، وكأنما كان يحمل على كتفيه أملًا جديدًا.

بدأ يعمل على تكوين صلات جديدة، ليكتب قصته في صفحات الزمن، تجمعت الخيوط المتشابكة لتكوِّن لوحة حياة فريدة، تجسد رحلة النفي المستمر من بلد إلى آخر.

صرنا نتنقل مع الميرزا، بين النجف وكربلاء، وجد السيد نفسه مضطرًا للتنقل بين هاتين المدينتين بسبب مضايقات تعترض طريقه، وفي كل مدينة يترك خلفه أثرًا من بصمات العلم والتعليم، نترك النجف بأبوابها العريضة المزخرفة، وكأننا نخرج

من معبد للحكمة لنتوجه نحو كربلاء، حاملًا في جعبته حقائب الكتب وهموم الدين.

التنقل عبر هذه المدن نتيجة للاضطهاد أو المضايقات التي أصبحت عبئًا على روحه وعلى عائلته. يبدأ يومه بدفع نفسه خارج أسوار المدينة، يتجاوز أزقتها الضيقة وأصواتها المعتادة، يسعى إلى الهروب من محيط قديم قد يكون محبوسًا فيه.

في كربلاء، وبين أركان الحرم الشريف، يلتفت إلى الضريح الشامخ للإمام الحسين عليه السلام، يشعر بالسلام والأمان. يملك القدرة على التأمل والتفكير بعيدًا عن الضغوطات التي قد تطارده.

رغم أن هذا التنقل بين هاتين المدينتين يأتي نتيجة للمضايقات، إلا أنه أيضًا يفتح أمامه أبواب النمو الشخصي والروحي.

في زوايا المدارس الدينية، يجلس السيد الميرزا فيها، يمتلك وزنًا ثقيلًا من الحقائق والتحقيقات، مستمرًا في درسه وتدريسه، التف حوله جملة من الطلبة والمريدين، يدخل إلى باحة المدرسة، وصدى خطواته تحمل قوة السهام والبارود. انتشرت أنظار الطلاب والمعلمين حوله، يرصد في الكتب عيوبًا لا تظهر إلا للعيون المدربة على اكتشاف الخفايا. أطلق جدران الصمت وبدأ يكتب، يوثق بحرفية كل تفاصيل العيوب التي لاحظها، يلتقط اللحظات والمواقف بعناية. وبيان عيوب المدرسة الأصولية.

راوحت اللحظات بين الكشف عن عيوب المدرسة الأصولية، والصمت الذي يسيطر على حلقات النقاش العلمي. صمم على تحفيز التغيير وإيجاد مستقبل أفضل، حاملًا كشف الحقيقة على عاتقه.

إلا أن الرياح لا تأتي كما تشتهي السفن، وبدأ صدى التحدث بصوت مرتفع وشكاوى أساتذة المدرسة الأصولية منه، فشعروا بالتهميش، وكأنهم أشباح في بيوتهم.

في هذه الفترة كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء في طهران، وحين وصوله إلى النجف نقل إليه أن السيد الميرزا يطعن في العلماء، وقد انحاز إليه فرقة من الأشقياء الذين استغواهم بزبرج لسانه، وسحره وبهتانه. يقنع العوام بأن الحق لم يزل مخذولًا، وأنه مع الحق.

وجعل في بحثه الآغا المروج (الوحيد البهبهاني) غرضًا لسهامه، وعرضًا لتشنيعه بكلامه، وقد صيّر الردّ على مقالات الآغا عنوانًا لبحثه.

انزعج لذلك أصحاب الآغا وأقرباؤه كالسيد علي صاحب الرياض وولده الآغا محمد علي، فعزموا على إخراجه من العراق، فكتبوا صورة استفتاء للشيخ جعفر لأن العوام أطوع له وأسمع منه:

- ما يقول شيخنا في مبتدعٍ بالدين، يسعى بإتلاف شريعة سيد المرسلين، وما جزاء منْ سعى في الأرض الفساد، وحارب أولياء الله الأمجاد؟.

فكتب الشيخ جعفر:

- بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والقتل أرجح الأمرين، والنفي أحوط القولين، خصوصًا مع العجز.

ثم بعثوا بحكم الشيخ جعفر إلى حاكم البلد.

وصلت هذه الفتوى إلى السيد الميرزا، قرأها في صمت تام، رفع السيد الميرزا عينيه لينظر إلى مصيره الذي خطته هذه الفتوى. ثم قال:

أنَّ بـنـي مـروانَ قـامـوا بـأجـمـعٍ
عـلـى سُـوقِـهِـم فـي قَـتـلِ نـسـلِ الـكـرائـمِ
ولا غـرو أنْ لـو رامَ قَـتْـلَـي جـعـفـرٌ
فـقـدْ قَـتَـلَـتْ آبـاؤهُ ابـنُ فـاطـمِ

ثم قال:

زَهِـدْنَـا عـن الـدُّنـيـا وزيـنـتُـهَـا لَـهُـمْ
وشـأنُـهُـمُ ظـلـمٌ وديـدنُـهـم قَـتْـلُ
ولـسـتُ أخـافُ الـقـتـلَ ظـلـمًـا مـن الـعـدى
فـلـي أسـوةٌ بـالـمـرتـضـى وأنـا الـشِّـبـلُ
لـقـدْ رفـضـوا حـقًّـا ودانـوا بـبـاطـلٍ
وتـاهـوا طـريـقَ الـرُّشـدِ غـيًّـا وقـد زلَّـوا
دمـاءُ بـنـي الـزهـراءِ ظـلـمًـا كـبـيـرةٌ
وقـدْ قـصـدوا قـتـلـي وعـنـدَهُـمُ سـهـلُ
وإنِّـي لـقـدْ بـيَّـنـتُ مـا كـانَ خـافـيًـا
لـديـكـمْ ولَـم يـمـنـعـنـيَ الـسَّـبُّ والـعـذلُ

ـ ما العمل الآن يا سيدي؟ قلت له.

شع من عينيه بريق يروي قصة الشخص الذي أُجبر على عبء لم يكن يستحقه. نظر بعينه إلى سماء الليل المظلمة، كأنه يبحث عن إشارة من السماء تعينه على مواصلة الصمود. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه، ربما تكون ترجمة لاستعداده لمواجهة المصير.

ـ الخير فيما يختاره الله. أجابني

النفي أصبح مصيره، حياة السيد الميرزا كأنها ملحمة لا تنتهي، حيث جابت رحلاته أرجاء البلدان، كما لو أن القدر كتب عليه أن لا يستقر في أي مكان. كل رحيل يشكل فصلًا جديدًا في كتاب حياته، حيث يرسم خريطة الذكريات والتجارب بين كل محطة وأخرى.

رغم أن قدميه تخطوان خطوات ثابتة على وجه الأرض، إلا أن روحه كانت متجولة في فضاءات لا تنتهي. ولا يبقى في مكان واحد طويلًا كما لو كانت أحداثه تدور في رقعة لا نهائية.

كل مدينةٍ كانت تسمع به تستقبله كضيف لا يبقى طويلًا. اللغة التي يتقنها أهل السفر والترحال هي لغة التحية والوداع.

رغم أن الوجهات تبدو وكأنها نقاط متناثرة في خارطة حياته، إلا أن كل مكان كان يحمل بين جدرانه قطعة من روحه وقصة من حكاياته. هكذا كتب القدر قصته، حيث لم يكن له وطن ثابت، بل كان يحمل وطنه في قلبه ويتجول به حيثما شاءت الرياح أن تأخذه.

ليس لديه خيار سوى الرحيل المستمر، يستمر في ترحاله، مجبرًا ولكن مستعدًا لمواجهة الغربة التي تكتبها له الأقدار.

لنا أسوة بالأنبياء والأئمة عليهم السلام، فالغربة والاغتراب حالة قديمة في كل رسالات الله تعالى، كل دعوة إلى التوحيد تواجه بقوة، وعنف من قبل المستكبرين لاستئصالها. ولكي يسلم حمَلة الدعوة من فتنة العذاب والاضطهاد، والبطش والفتك، وتسلم الدعوة من خطر الاستئصال لابد من (الهجرة) حتى تتمكن (الدعوة) من أن تستقر على الأرض. الهجرة، ليست بحثًا عن الأمن فقط، وإنما هي بحث عن الوسط الملائم

لتكوين الجماعة المؤمنة. . . وليست فرارًا من العدو بقدر ما هي بحث وسعي للوصول إلى موقع أفضل للانطلاق إلى مواجهة خصوم الدعوة، التي لابد منها على كل حال، وفي كل الحسابات. في الهجرة يتم إعداد هذه الجماعة الفتية للمواجهة، التي لابد منها على كل حال في العلاقة بينها وبين من يخالفنا. مع أن معاناة الغربة، عن الوطن معاناة شديدة يعرفها من قاساها، حيث يفقد الإنسان كل علاقاته الاجتماعية، وما ألفه وأنس به مرة واحدة. إلا أن هذه قيمة كبيرة عند الله. فعن رسول الله ﷺ: (من هاجر في سبيل الله كان مع إبراهيم عليه السلام في الجنة). وعن قال: (طوبى للغرباء، قيل له: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها للناس). ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك. أقرب مكان لنا هو طهران.

المحطة الحادية عشرة

بلاد فارس - طهران (1222هـ/1807م)

شددنا الرحال إليها. حل علينا عام (1222هـ/ 1807م). جاورنا مرقد السيد عبد العظيم الحسني، استقبله محبوه بالترحيب والتكريم..

في كل ركن جديد يستقر فيه، يظل قلبه غير مستقر، وكأنه بانتظار قرارات قد تغير مصيره ومصير عائلته. كان وكأنه يمضي في مسار لا ينتهي، لا يعرف الوقت للراحة أو الاستقرار، فالحياة كانت تحمل له ولعائلته لغة الرحيل المستمر والتكيف مع ما يحمله المستقبل من تحديات وتغيرات. لذا اعتكف السيد الميرزا على التدريس لطلبته ومريديه، وانكب على التأليف.

أتم في هذه السنة كتاب (نجم الولاية لمن أراد الهداية)، وهو في المعارف والأصول.

وفي يوم ظهر في سمائه آثار الغسق، والمكان يختمر بالهدوء والسكون. دخل رجل إلينا، خفقت خطواته الهادئة على الأرض كالأمواج الخجولة. علمنا أنه من همدان، حاملًا في جعبته أسئلة تتداول في خياله كالنجوم في السماء، وكان يبحث عن أجوبة لها.

يحمل قلبًا ملئ بالفضول والحماسة. وجهه ينبض بالحياة، عيناه تتلألآن ببريق الاستفهام، وكأنه يرى في كل سؤال مغامرة

جديدة. رفعت نسمة هواء خفيفة بعض الأوراق، وكأنها قراءة مستقبلية للأسئلة التي سيطرحها الرجل. الهدوء يخترق المكان، في انتظار كلماته التي ستثير أمواج الفهم والتساؤل. الكلمات تتطاير كالفراشات في الهواء، كلما حرك شفتيه، تلهم الفضول في قلوب الحاضرين.

- هذه الأسئلة هي للملا محمد أمين بن مصطفى قلي خان الهمداني، اثنتا عشرة مسألة، وبدأ يطرح أسئلته باللغة الفارسية، والسيد الميرزا يجيب:

1 ـ كيف ينزل وحي جبرئيل على النبي محمد ﷺ؟

2 ـ كيف هي اللذة والعذاب الجسماني؟

3 ـ كيف يمكن خلود الكفار خلودًا في جهنم؟

4 ـ كيف كان المعاد الجسماني؟

5 ـ لماذا لابد أن نتألم ونتأذى من شهادة الأئمة والصالحين؟

6 ـ هل يمكن أن يُسلب التكليف من الإنسان في وقت ما؟

7 ـ كيف كانت هيئة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل؟

8 ـ هل كل إنسان له نبي وشيطان لنفسه؟

9 ـ كيف تحشر الأجسام يوم القيامة؟

10 ـ هل الملعونون والإنسان السيئ من خلق الله؟

11 ـ هل عزرائيل هو ممكن معزول أو أنه ضمن الإنسان الممكن؟

12 ـ هل المهدي هو فرد معين؟.

أجابه السيد الميرزا بجوابات مليئة بالحكمة والإلهام، وكلما كان يتحدث، كان يفتح أبوابًا جديدة للفهم والتفكير.

بعد ذلك جمعها في كتاب وسمه بـ(تحفة الأمين والدرّ الثمين)، وسمه البعض (الدر الثمين في جواب مسائل محمد أمين)، أتمه في سنة (1223هـ/ 1808م). وتم نسخ عدة نسخ منه.

وفي هذه السنة تم زواج ابنه الأكبر السيد أحمد.



في أحد الأيام، ونحن مقيميون في بلاد فارس، جاء طلب من قبل الشاه بالحضور، امتثل الميرزا لطلب الشاه. بعد أن وصل الميرزا محمد إلى قصر الشاه، دخل فيه والأنوار المتلألئة تتسلل من بين الستائر الثقيلة لتنثر بريقها على البساط الفاخر الذي يغلف أرضية القاعة الرئيسة. وسط هذا البهاء الفخم، كان الشاه بانتظاره، تقدم الميرزا بخطوات تعكس تواضعًا مطلقًا واحترامًا للشاه، تنبعث من قلب ينبض بالولاء والإخلاص.

بعد الترحيب به، أطلعه الشاه على رسالة وصلته من قبل الشيخ جعفر كاشف الغطاء، يطلب منه فيها منع الشهادة الثالثة (أشهد أن عليًا ولي الله) من الأذان. فأعطاها الشاه للميرزا للرد عليها.

وحيث أن هذه الرسالة فيها الكثير مما يجب الرد عليه، فقد فصل الميرزا محمد الجواب عنها بأربعة عشر فصلًا، يذكر في كل فصل قوله بالعربية، ويرد عليه بالفارسية.

وبين الميرزا محمد أن رسالة الشيخ جعفر خالفت ما أمر به الأئمة المعصومون عليهم السلام، ووافق بذلك مذهب المخالفين، وما كتبها الشيخ جعفر إلا لإرضاء وزير بغداد، ودفع الكدر عن نفسه. وأنهاها في يوم واحد من صبح السبت حتى ظهره، في الخامس من جمادى الأولى سنة (1223هـ) عند مرقد السيد عبد العظيم بالري. وبعثها للشّاه فتح علي القاجاري. وختمها بقول للمتنبي:

فهب أني أقول الصبح ليلاً
أيعمى الناظرون عن الضياء؟



في دار السلطنة القاجارية طهران، بنى الميرزا محمد (تكيَّةُ الخاقان): تكية كبيرة وقفها على موالي صاحب الزمان عليه السلام، ليقام فيها عزاء سيد الشهداء عليه السلام. وأرخ ذلك في شعر ذكره في ديوانه، فقال:

تكيَّةُ الخاقانِ تدري مَاهِيَه
جَنَّةٌ فيهَا قُطوفٌ دانية
بالعلا والمجدِ لَمَّا أزلفت
صيحَ بالتَّاريخِ (شَمسٌ ضاحية) (1224هـ)



ألف الشيخ جعفر كاشف الغطاء كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء) وأرسله إلى حضرة السلطان القاجاري، أاطلع عليه الميرزا محمد، وقال عنه: (هذه أقاويل باطلة وكلمات وهمية)، كتب تعليقات وحواشي على المواضع التي كتبها الشيخ، فمنها حاشية على (أن معلول الذات لا يحول ولا يزول)، وحاشية على (تثليثه أصول الدين)، وحاشية على (حكمه بكفر المحدثين العاملين بظاهر الروايات). وأرسله إليه.

فجاءه جواب من قبل الشيخ جعفر يقول فيه:

(لا يخفى أن كتابك وصل إلي واطلعت على مضمونه، وعزمت على إرسال الجواب، بعد ذلك حسّنت ترك الجواب، حيث سمعت أنك متعهد للدولة الخاقانية، المحروسة بعناية رب البرية، بقطع دابر الكفرة واضمحلال أولئك الفجرة، إلى أواخر هذا الشهر، ونحن نضيفك (خمسة عشر أيام) من الشهر الثاني،

وهذا عين مطلوب أهل الإسلام من العلماء والأعوام، فإن صدر ما قلت ورجائي من الله تعالى أن يكون ذلك فلا يقع بيننا نزاع ولا شقاق، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال، وإلا بان كذبك وبهتانك على الله ورسوله والأئمة الطاهرين، ووجب علينا هجرك والبراءة منك، لأن الكذب على حضرة ظل الله المبسوطة في الأرضين القوام للدين استهزاء على شريعة سيد المرسلين والأئمة الطاهرين والعلماء المرضيين، وظهر عند كافة الخلق أن جميع ما تدعيه من الأعمال والأفعال لا حقيقة له).

الراجي غفران ربه جعفر بن خضر النجفي.

فكتب له الميرزا محمد جوابًا:

(أعوذ بالله من النار ومن غضب الجبار ومن شر الكفار، لا بوركتم من عشيرة بدئتم باخباث وختمتم بأقذار، لا يخفى على الفار عن الجواب بأنك كتبت كتابًا متضمنًا أصول الدين وفروعه وما تتوقف عليه الفروع، وقلت بمعلولية الصفات العينية كالعلم والقدرة والسرمدية والمعلول محدث مخلوق، وهذا كفر في التوحيد برهانًا باتفاق الإمامية أيدهم الله. ثم قلت بكفر العاملين بظاهر الروايات مع قولك بحجية ظواهر الكتاب والسنة، وحكمت بقتلهم، وتعرضت للمحدثين العاملين لبنيه الطاهرين، وبعثت ذلك الكتاب إلى الحضرة الخاقانية أيده الله بنصره، فوجب على علماء الإسلام والفقير من جملتهم، إظهار البدع والرد عليها، لقوله عليه السلام: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، ومن لم يفعل فعليه لعنة الله)، فلذا تعرضت لجوابك، فالمفتري هو الذي يفتي في دين الله بغير ما أنزل الله، ويضل عباده عن إرشاد أئمة الهدى، كما سيظهر من كتابنا (الصيحة بالحق) في جواب بدعك. وأما الذي يؤمن بوعده

تعالى في كتابه المجيد حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ويتيقن بأن الله لا يخلف الميعاد، وعلى هذا يسكن روعة المسلمين من شر الكفار ويحثهم على دفاع الأشرار امتثالًا لأمر سلطان الزمان مراعيًا لمصالح أهل الإيمان، فليس بمفتر ولا كذاب، ثم لا يخفى على المبدع المفتري على الله بأن الكلام بيننا وبينك في الأحكام الشرعية التي غيرتها وأبدعتها، وقد كنت أنت المعتدي علي أولًا في كتابك إلى الشيخ موسى البحراني من المشهد إلى المشهد الكاظم عليه السلام في تكفيري، وثانيًا في كتابك إلى ميرزا موسى والي رشت[1] وكنت هناك بما أنت به أولى، وأخرى ثالثة بما قلت بمحضر مولانا المولى علي أصغر، ومحضر أولاد الشاه أيدهم الله بأن السيد علي والسيد محسن قد كفراني، ورابعًا بما عرضت في كتابك هذا، وأما ما جرى بيني وبين حضرة الخاقان فليس من المسائل الشرعية، بل إيمان بوعد الله وتصديق كتابه الحكيم، وقد جربوه مرارًا، وهذا أمر لست منه في شيء عليك أن تجيب عما يرد عليك من الأبحاث الشرعية، وعلي أن أبين فساد اعتقادك في التوحيد وسائر الشرعيات، ما بين أدلة وبراهين، والله المستعان، هذا جوابك إجمالًا وأما تفصيلًا، فنقول:

عبرت إليك البحر فاغرة الفم، أما قولك (ونحن نضيفك خمسة عشر أيام من الشهر) فهذا غير جائز لك، لأن جدك الأقدم ما أمهل جدي حتى يقضي فريضة الظهر، فكيف يجوز لك مخالفته وترك سنة في إمهالي! ثم نقول في حكمك بيني وبين حضرة الخاقان حتى حكمت بالمهلة، فما كفاك الفضولية

(1) لم نعثر على هذه الرسائل!.

في أحكام الله حتى صرت فضولًا في حكم الشاه، هذا مع أن قولك أيام بصيغة الجمع والجر غلط، والصحيح يومًا كما هو ظاهر على من له أدنى دربة في العلوم الأدبية.

وأما قولك: (مطلوب أهل الإسلام من العلماء والأعوام)، فيا أيها العامي، الأعوام جمع العام لا العامة. وهذا المقدار يعرفه كل عامي، فكيف جهلت مع ادعائك رئاسة العامة، ولله در السيد سليمان حيث قال:

أيا ويح دين الله من كل مفتري
أيا ويل مال الله من كل مجتري
لقد بليا في جعفر غير صادق
وقد منينا في صادق غير جعفرِ

وأما قولك: (وإلا بان كذبك وبهتانك على الله ورسوله والأئمة الطاهرين). فيا أيها الفاضل الأموي أما سمعت أن الدعاء من باب الإنشاء لا يتصف بالصدق والكذب، وإنما الكذب أحد وضعي الخبر، وأنا رجل داع لخير المسلمين، وإنما الكاذب هو المفتى في دين الله بظنه والمخبر فيه بفكره، قال رسول الله ﷺ (الظن أكذب الكذب)، وقال: (إذا ظننت فلا تقض)، وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

وأما قولك: (وجب علينا هجرك والبراءة منك). فهذا بيّن، لأنك هجرت ولاية جدي عليه السلام وبرئت من ولايته، حصل لك هجري والبراءة مني، لأني درّة من شمسه عليه السلام وبضعة منه.

وأما قولك: (لأن الكذب على حضرة ظل الله المبسوطة في الأرضين القوام للدين). فيا أيها الفاضل الأموي، جعلت المبسوطة بصيغة التأنيث، والقوام بصيغة التذكير، فما أدري من أين جاء التأنيث لظل الله، وإن راعيت الحضرة فلم ذكرت

القوام؟ ثم نتكلم في المعنى ونقول: هل دريت من باب إجماعك المحصل كذبي على الشاه أيده الله، فمن أين دريت أنه كلفني لمصلحة أم أنا ادّعيت؟ ومن أين لك الخبر بالمعهود بيني وبينه؟ ومن أين لك العلم بكذبي وباب العلم عليك فيما افترضه الله عليك منسد كما اعترفت به في كتابك؟ فكيف فيما حرم الله عليك حيث قال: (وَلا تَجَسَّسُوا).

وأما قولك: (استهزاء على شريعة سيد المرسلين والأئمة الطاهرين والعلماء المرضيين). فيا أيها الجاهل، أي كذب في أن يلتمس أحد من أحد دعاء الخير وهو يقول: أني عبد ضعيف لست بإله ولا نبي ولا وصي ولا ولي ولكنني متيقن بوعد الله حيث يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، فمني الدعاء وقد جربتم مرارًا وعلى الله الإجابة. وقد ورد في الحديث: (من أخلص لله أربعين صباحًا... الخ) وورد (ربّ أغبر أشعث ذي طمرين لا يُعبأ به لو أقسم على الله لأبره). فلا معنى لقياسك نفس المؤمن بنفسك الشاكة الملعونة الكافرة.

وأما قولك: (وظهر عند كافة الخلق أن جميع ما تدعيه من الأعمال والأفعال لا حقيقة له). فيا أيها الفاضل الأموي، أي تلازم بين تأخير استجابة دعوتي وبين كون جميع أعمالي وأفعالي لا حقيقة لها..

بعث الميرزا محمد هذه الأجوبة للشيخ جعفر، ولم يرد الشيخ عليها.

إلا أن الشيخ في بعض خلواته مع الخاصة تكلم بما هو أولى، ووصل إلى مسامع الميرزا محمد هذا الكلام. فكتب إليه كتابًا وأرسله مع مستوفي الشاه زاده عبد العظيم الحسني.

بعد ذلك كتب الشيخ جعفر كاشف الغطاء كتابًا جاء فيه:

- لقد صنفت رسالة في بيان حالك وكشف ما استتر من قبيح أفعالك وسميتها (كشف الغطاء عن معايب ميرزا محمد عدو العلماء) استنسخها حبًا لك جميع الفضلاء وترجمها بالفارسية الصلحاء الأتقياء، خطر في بالي أن أرّخ هذا الزمان مخاطبًا أهل طهران تعريضًا بمن عصى الله فأحبط عمله: (ميرزا محمدكم لا مذهب له)، وهذه الرسالة واصلة إليك وهي حجة الله يوم القيامة عليك.

ذكر الشيخ في هذه الرسالة: إن الميرزا محمد عالم فاضل، علامة زمانه، وفريد عصره وأوانه في علوم: أحدها: علم الكذب والتزوير، ثانيًا: علم الطفرة عند البحث والمناظرة... يخرج من مقام إلى مقام، لينقطع الكلام وليظن فضله الجهال والعوام. ثالثها: علم الحركات الشيطانية الشبيه بحركات الحقبازية... رابعها: علم اللعن والشتم والطعن، وهو فاضل فيه، وقل من يغالبه عليه ويباريه، ولذلك زاد للعلماء لعنه، لظنه أنه لا يقابل طعنه ولم يعلم أنه حيث رخّصنا الشرع في لعنه، وصار طعننا فيه أكثر من طعنه، على أن لعنه لنا يعده الناس من الكبائر، ولعننا له يعدونه للآخرة من أعظم الذخائر..

ثم قال مخاطبًا:

يا ميرزا محمد! قد علم الله وعلم الناس أني لم أزل مشغولًا بالوعظ والنصيحة لعباد الله، آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، ولما كان ذلك مشروطًا بمظنّة التأثير عزمت على هجرك وعدم الاعتناء بك وترك جواب مكاتيبك الدالة على أكاذيبك وسفاهتك ونقصان عقلك لأن السفيه جوابه السكوت كما قيل، ولا ترد على السفيه جوابًا، ثم خطر في بالي أن مقلب القلوب

ومبدل الحقائق ربما قلب قلبك وبدل حقيقتك، فعزمت على نصحك، فاستمع كلامًا مشتملًا على الحكم والنصايح، وانظر إلى ما قيل ولا تنظر إلى من قال:

اعلم: والله أنّك نقّصت اعتبارك، وأذهبت وقارك، وتحملت عارك، وأججت نارك، وعرفت بصفات خمس هي أخس الصفات، وبها نالتك الفضيحة في الحياة، وتنالك بعد الممات: أولها: نقص العقل. ثانيها: نقص الدين. ثالثها: عدم الوفاء. رابعها: عدم الحياء. خامسها: الحسد المتجاوز الحد، وعلى كلّ واحد منها شواهد ودلائل لا تخفى على العالم، بل ولا الجاهل.

إنّك حيث عرفت من نفسك أنك ابن لبون كيف بارزت البزلَ القناعيس ولم تخف صولتها، فلو كنت عاقلًا ما بارزت مع جهلك فضلاء قد أذعنت لهم الخلائق في جميع الآفاق وأشرق نورهم في الهند والسند وخراسان وأذربيجان وإيران والعراق، إن نسبوك إلى العلم عدك الناس من العلماء، وإن لعنوك كنت عند الخلق أشقى الأشقياء، وإن رميتهم بسهم رد سهمك عليك، وإن أصابوك بإبرة توجهت سهام الخلق إليك... فطلبك المناظرة مع العلماء الكبار حماقة ونقصان عقل، فلا تليق مناظرتك إلا مع جاهل مثلك..

أتعيب (كشف الغطاء) وقد ابتهج به جميع العلماء والفضلاء، وطربوا على ما فيه من التحقيقات، واستحسنوا ما فيه من التفريعات، وكتب بعضهم ردًا على اعتراضاتك ومزخرفاتك، وكان العزم على أن يكتب الجميع في ذلك، لكن رأوا أن الإعراض عنك أولى وعدم الجواب عن مزخرفاتك أحرى.

إلى آخر ما كتب من رسالة.



في هذه السنة (1224هـ/ 1809م) كتب الميرزا (حجرٌ ملقمٌ) بالفارسية، في رد طريقة المجتهدين وتشييد طريقة الأخباريين، وأن الحجة فقط لأخبار آل البيت الطاهرين عليهم السلام، ذكر فيه اثني عشر دليلًا نقليًا وعقليًا على تخطئة طريقة الاجتهاد. وهو في الرّد على الشيخ كاشف الغطاء. أتمه في شهر ربيع الأول من سنة (1224هـ).

وكتب أيضًا رسالة (حقيقة الأعيان في معرفة الإنسان)، فرغ منها في شهر ربيع الثاني من شهور سنة (1224هـ).

وأيضًا في صفر من هذه السنة فرغ من ديوانه الشعري (ديوان سيل)، فيه ثمان وأربعون قصيدة، ومجموع الأبيات فيه (4245) بيتًا.

في الصفحة الأولى منه كتب: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد: فقد وفقني الله تعالى فوقفت هذا الديوان على حضرة الحجة عليه السلام، وجعلت توليته عليه مع سائر كتبي لولدي الأكبر الميرزا. وكتب الجاني، منشده، محمد بن عبد النبي بن عبد الصانع عفا الله عنه في سنة (1224) بدار السلطنة طهران).

وضمّنه بعض الأسرار والتلميحات التي لا يمكن رؤيتها إلا بالبصيرة، مستشهدًا بالبيت الشعري:

أُعـرِّض فـي قـولـي بـلـيـلـى وتـارةً
بـهـنـدٍ ولا لـيـلـى عـنـيـتُ ولا هـنـدُ

وكتب أيضًا رسالة في الحكمة (شمسُ الحقيقةِ) جاء في أولها: (الحمد لله وسلام على عباده، أما بعد، فهذه شمس الحقيقة لمن سلك الطريقة؛ بل نور البصيرة لمن أخلص

السيرة...). جعلها في أربع وثلاثين شمسًا، أتمها في شهر ذي الحجة من السنة نفسها.

ووردت على الميرزا رسالة من الشيخ محمد علي بن عبد الواحد اليزدي، إمام الجمعة والجماعة في (يزد) تتعلّق بمسألة اختيار الجهر أو الإخفات بالتسبيح. فكتب السيد الميرزا (رسالةُ التَّسبيحِ) بالفارسية، وأورد صورة كتاب الشيخ اليزدي المتضمن سؤاله، ثم كتب الجواب بالاستدلال مفصلًا واختار الجهر بالتسبيح، وفي آخرها:

(وفقنا الله تعالى وإياكم لمتابعة المعصومين، وجنبنا عن اللّجاجِ والجدال والاعتساف في أمور الدنيا والدين بحق آل طه ويس سلام الله عليهم أجمعين، آمين... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وكتب أيضًا (المِطمَرُ الفاصل بين الحق والباطل)، وعدّ فيه تسعًا وخمسين خصيصة من خصائص الأخبارية.

و(ميزان التمييز في العلم العزيز) بالفارسية، ذكر فيه ثلاثين شخصًا، وهي في الرد على الاجتهاد. جاءت مقدمته في بيان المتوجهين نحو شطر الحق.. فرغ منه مغرب الجمعة سنة (1225هـ).

المحطة الثانية عشرة

العراق ـ الكاظمية (1225هـ ـ 1810م)

عزم السيد الميرزا الرجوع إلى بغداد، شددنا الرحال إليها، توقفنا في بلدة فيروز آباد لإقامة الصلاة والاستراحة من الطريق.

في اليوم التالي، جاء رجل يقطن على قمة جبل، وهو يصرخ بصوت مليء بالرعب والدهشة:

- هم قادمون... جيش من الظلام! رأيت سحابة ضخمة من الجراد تغزو الأرض. تتسارع الحشرات بلا هوادة، أمواج لا تنتهي تتدفق من السماء إلى الأرض.
- ويحك ماذا تقول؟ ماذا جرى؟ سأله الناس.
- كنت أعلى الجبل، فجأة، تسلل إلى أذني همس بسيط يتسلل من الأفق، ثم تحول هذا الهمس إلى ضجيج متزايد. الهمس يتحول تدريجًا إلى ضجيج، ليصبح كالهدير المتعاظم لجيش من الجراد. وهو يتجه نحونا، يتسارع بسرعة مخيفة.

ذهب الرجل لإعلام الناس، يصرخ من أعماقه، يحاول تحذير العالم من هجوم الجراد الذي يتسارع كالزمن الذي يهرب من بين أصابعنا، يختبئ في ظلال النسيان. دخل الناس في ذعر شديد.

تم إعلام الملك بما يجري، استدعى وزراءه ومستشاريه، أمر باستجلاء الأمر، وهل ما قاله الرجل صحيح أم أنها سحب سوداء..

أخبروه بعد الاستطلاع أن ما قاله الرجل صحيح، وأن الجراد بكميات كبيرة قد ابتلع بأنياب الجوع، بعض المروج الخضراء، وكأن المكان يتلاشى أمام تلك الجحافل المدمرة.

قال أحد الوزراء:

- يمكن لسرب صغير منها أن يلتهم في يوم واحد الكمية نفسها من الغذاء التي يتناولها خمسة وثلاثون ألف شخص أو أن يلحق الضرر بنحو مئة طن من المحاصيل على مساحة فرسخ مربع من الحقول.

- إنه تهديد رئيسي للأمن الغذائي، أجاب آخر.

نظر الملك نظرات حادة تخترق الهواء بحثًا عن إجابات. حاملًا وجهه القلق من الجراد الذي يهدد بتدمير مملكته. زفيره الثقيل يعكس قلبًا يتقلب بين القلق والإصرار:

- افعلوا شيئًا إذًا، لا تبقوا مكتوفي الأيدي.. ألا توجد طرق لعرقلة تقدم هذه الأسراب المهاجمة نحو المناطق الزراعية.

قال أحد المستشارين:

- طرق مكافحة الجراد لا تخلو من أحد أمرين: إما عن طريق رذاذ الثوم، لأن له رائحة قوية تؤدي إلى طرده، يصنع خلط كل رأسين من الثوم مع عشرة أكواب من المياه، ويوضع على النار حتى يصل إلى مرحلة الغليان، ثم يترك المزيج يومًا واحدًا، بعد ذلك يتم خلط مقدار واحد من المحلول مع ثلاثة مقادير من المياه ثم يُرش على أوراق النباتات.

أو نثر طبقة من الدقيق العادي على سطح الأوراق، وعند اقتراب الجراد لتناول الأوراق سيأكل الدقيق دون الأوراق وبالتالي يموت من الجوع.

قال آخر: سوف نحفر خنادق تملأ بالماء، ونحيط جذوع الأشجار بصحافٍ ملساء ينزلق عليها الجراد.

- ما ذكرتموه يحتاج إلى وقت، ألا يوجد شيء آخر؟ قال الملك.

- استعمال النار، قال أحد المستشارين، نوجهها نحو الأسراب، بينما نقوم بتحضير المواد الطاردة للجراد.

أمر الملك بالاستعداد لذلك، ونادى المنادي باستنفار جميع الناس للعمل.

الجراد يقترب بحثًا عن فريسته، ألسنة النار مشتعلة، لكن الجراد، بأعداد لا تحصى، غطى الأرض كالظلام المتقد. أرض صحراوية كانت قبل لحظات حية وملونة، أصبحت الآن شاحبة ومظلمة، بفعل هؤلاء المدمرين الصغار.

إن السر يكمن في قدرة البيض على البقاء عدة سنوات في التربة من دون أن يفقس، وفي نمو الأجنة داخل البيض حسب الظروف البيئية، أنثى الجراد خلال عمرها تضع في المتوسط أكثر من ثلاثمائة بيضة في جيوب طولية، تحوي كل منها ما بين ست إلى عشر بيضات، وتحميها بغلاف رغوي عند وضعها في التربة على عمق نحو أربع سنتيمترات. يبقى البيض في التربة سنوات عديدة، وتنتظر داخله الأجنة إلى حين توافر رطوبة كافية لإتمام عملية النمو. وينتج عن ذلك الفقس المتزامن عند سقوط المطر، حيث تصبح كل الأجنة في مرحلة النمو نفسها بغض النظر عن وقت وضع البيض. أثناء وجود البيض في التربة يفقس القليل منه، وتظهر أنواع متفرقة من الجراد، لكن العدد بصفة عامة يكون منخفضًا، وهو ما يؤدي إلى تعزيز تراكم البيض في التربة، ومع سقوط المطر يفقس البيض بالتزامن مع نمو

الحشائش. ولا نعرف حتى الآن كيف تتمكن إناث الجراد من تحديد أماكن وضع البيض التي تستخدمها الإناث الأخرى

في وقت قصير، غطى الجراد الأرض والسماء، تتجلى الهمسات الصاخبة لقافلة الجراد، تحمل معها نيران الجوع المستعرة. متسلقة للفضاء بأرجلها الرقيقة، تتجمع كالجيش المظفر في معركة لا تُعرف إلا لحظتها. تطلق نشيجها المخيف، كأنغام رعب تُلحن بلا أدوات موسيقية.

يلتهم كل شيء في طريقه، تاركًا وراءه أرضًا عارية من الحياة. يعصف بالحقول الخضراء والأشجار الشامخة. يغزو الجراد بسرعة الرياح، يلتهم الضوء ويشرب اللون، يتلاعب بالظل ويختفي في نقيضه. هجوم يشبه فصلًا مظلمًا يقع على وجه الأرض، يحتل مساحات شاسعة بلون الجوع والدمار.

وقعت حالة ذعر، حيث هاجم الجراد أبواب ونوافذ المنازل أيضًا، ملتهمًا أجزاء كبيرة منها، كما تسللت هذه الحشرات إلى داخل المخازن لتفسد ما تبقى من مخزون طعام المنطقة، مهددة بكارثة إنسانية.

المبادرات يائسة، حاول الفلاحون حماية محاصيلهم، أقدم بعضهم على تغطيتها بالقماش، وفي الأثناء لم يمنع ذلك الجراد من مواصلة عمليته التخريبية، تقدمت هذه الحشرات على التهام أجزاء من القماش قبل أن تواصل عملية مهاجمة المحاصيل. وحاول البعض الآخر طرد الجراد عن طريق إشعال النيران واستخدام البارود، ومرة أخرى عجز أهالي مناطق السهول الكبرى عن صد هذه الحشرات التي واصلت تكاثرها بشكل لافت للانتباه.

في هذا الهجوم الحشري، شعر الناس بالعجز والضعف أمام

هذه القوة الطبيعية المدمرة التي تخلّف وراءها خرابًا وخسائر لا يُمكن استعادتها. علموا أنهم بحاجة إلى لمسة إلهية لتوجيههم في هذه المحنة، كل العيون اتجهت نحو السيد الميرزا الأخباري. اجتمعت الجموع المذعورة من الناس والفزع والتوتر، أمام مسكن السيد الميرزا، ليجد لهم حلًا أمام هذا الغزو الحشري، فلا أمل بعد الله غير الميرزا صاحب الكرامات.. فربما كان عنده صفة شيء يفرج الله به عنهم، فهو الوحيد الذي يعرف كيف يقرأ لغة الأرض ويستمع إلى الطبيعة.

خرج للناس السيد الميرزا، لم يكن أي ذعر في عينيه، بل كان هناك انتظار. كأنه كان يعلم بقدوم هذه اللحظة. قال وعيناه تنظران إلى السماء:

- لقد طرقكم في هذه الليلة جند من جنود الله عز وجل، لا قوة لكم بهم.

في لحظة من الصمت العميق، والناس بترقب وذهول، كتب الميرزا محمد على ورقة، وأمرهم أن يربطوا هذه الورقة على عصا طويلة، ويجعلوها على تلة وسط المدينة، حيث يمكن رؤية المدينة بأكملها، وأمرهم أن يقولوا بصوت عالٍ: قال محمد النيشابوري (أذهبوا الآن).

ثم سار ليرتقي إحدى القمم. سجد على الأرض وهو يقول:

(اللهم صل على محمد وآل محمد، يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا من إلى ذكر إحسانه يفزع المضطرون، ويا من لخيفته ينتحب الخاطئون، يا أنس كل مستوحش غريب، ويا فرج كل مكروب كئيب، ويا غوث كل مخذول فريد، ويا عضد كل محتاج طريد، أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلمًا،

وأنت الذي جعلت لكل مخلوق في نعمك سهمًا، وأنت الذي عفوه أعلى من عقابه، وأنت الذي تسعى رحمته أمام غضبه، وأنت الذي عطاؤه أكثر من منعه، وأنت الذي اتسع الخلائق كلهم في وسعه وأنت الذي لا يرغب في جزاء من أعطاه، وأنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه، وأنا يا إلهي، عبدك الذي أمرته بالدعاء فقال: لبيك وسعديك، ها أنا ذا يا رب مطروح بين يديك).

ثم نهض الميرزا، وقال بصوت هز السكون المحيط به:

اللهم إن هذا الجراد آية من آياتك، وعون من أعوانك، يبتدر طاعتك برحمة نافعة أو نقمة ضارة، فلا تمطرنا بهم مطر السوء، ولا تلبسنا بهما لباس البلاء، اللهم صل على محمد وآله، وأنزل علينا نفعها وبركتها، واصرف عنا أذاها ومضرتها، ولا تصبنا فيها بآفة، ولا ترسل على معايشنا عاهة، اللهم وإن كنت بعثتها نقمة وأرسلتها سخطة فإنا نستجيرك من غضبك، ونبتهل إليك في سؤال عفوك، فمل بالغضب إلى المشركين، وأدر رحى نقمتك على الملحدين، تحكم بما شئت على من شئت، وتقضي بما أردت فيمن أردت.

ثم رفع عصاه ولوح بها برفق، وهو يقول: أيها الجراد، المخلوق بعينين حمراوين، وحدقتين قمراوين، جعل الله لك السمع الخفي، وفتح لك الفم السوي، وجعل لك الحس القوي، ونابين بهما تقرض، ومنجلين بهما تقبض، أرهبتم الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبكم، ولو أجلبوا بجمعهم، لقد وردتم الحرث في نزوات، وقضيتم منه شهوات. تبارك الله الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، أنا محمد بن عبد النبي عبد الله وحفيد نبيه أدعوكم للرحيل من هذه

البلاد، الساعة الساعة، العجل العجل العجل، الوحا الوحا الوحا.

صار الجراد يتطاير من جميع الاتجاهات، وبدأ يتناغم مع الكلمات، وكأنها استجابت للأمر. ثم تجمعت كالغيوم المظلمة، أصبحت الرياح أقوى، غابت أصوات الجراد.

ثم خر على الأرض ساجدًا وهو يقول: (لك الحمد على ما وقيتنا من البلاء، ولك الشكر على ما خولتنا من النعماء، حمدًا يخلف حمد الحامدين وراءه، حمدًا يملأ أرضه وسماءه، إنك المنان بجسيم المنن، الوهاب لعظيم النعم، القابل يسير الحمد الشاكر قليل الشكر، المحسن المجمل ذو الطول لا إله إلا أنت إليك المصير. وصل اللهم على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين).

الناس يتابعون بصمت، يشعرون بالتغيير الذي حل بالقرية. نزل السيد الميرزا ولم يتكلم كثيرًا، بعد أن كانت كلماته أثرت في كل شبر من هذه الأرض. رحل الجراد، ورحل معه الهم والذعر، استفاقت القرية على وعي جديد.

وصلت الأخبار إلى قصر الملك، فبعث للسيد الميرزا، وشكر الله أنه كان موجودًا بينهم، فلولاه لعم البلاد الفقر والفاقة، ثم أكرمه وأهدى له بعض المال. طلب الشاه منه أن يكتب له شيئًا يستعينون به إن حدث لهم مثل ما حدث من هجوم الجراد وهو ليس معهم. ولأن السيد الميرزا لا يرد طلب أحد. بعد أيام بعث كتابًا عكف على كتابته، وأهداه إلى الملك القاجاري، باسم (رِجْلُ جراد) بالفارسية، أودع فيها مجموعة من الأدعية والأوراد والتعويذات والأسماء الحسنى في دفع البلاء والحفظ وصفاء السّيرة في أربعة فصول، وذكر في الخاتمة

فوائد وقواعد في علم النفس. وأعلمه ضمن الرسالة: إن من اللازم عدم إظهار ذلك لأحد، ويجب إخفاؤه عن غير أهله.

بعدها واصلنا طريقنا إلى بغداد، وكان وصولنا لها عند غروب الشمس.

حين وصولنا، علمنا أن سليمان باشا الصغير قد قتل في يوم الخميس (10 شوال 1225هـ/ 7 تشرين الثاني 1810م). وتم اختيار عبد الله آغا التوتونجي، سياسي عثماني من مماليك العراق، واليًا على بغداد، خلفًا للوالي المقتول. الأوضاع في بغداد بصورة خاصة، وفي العراق بصورة عامة، غير مستقرة، اضطرابات سياسية واقتصادية في داخل البلد وخارجه.

حينما كنا في قم سمعنا بأن السيد علي القمي كتب ردًا على رسالة (قبسة العجول) سماه (عين العين)، مع أن الأولى بالرد هو السيد محمد مهدي الطباطبائي، وليس الميرزا أبو القاسم القمي. إلا أن الزمن بخل بها علينا مدة إقامتنا في قم والديار القريبة منها، فلم يطلع عليها الميرزا محمد، حتى من الله علينا بالرجوع إلى المشاهد المشرفة، فحصل الميرزا محمد على نسخة منه، فكتب كتابًا في الرد عليها سماه (إنسان العين لرفع الغبن من البين). وجعله ثلاثة عناوين، عنوان كلامه في قبسة العجول (قلت)، وعنوان رد القمي (قال)، وعنوان جوابه عليه (أقول)، وأرسله له مع محمد صادق ابن المولى أسد الله القزويني مع رسالة قال فيها:

(إن كان حقًا فاقبلوه، والحق أحق أن يتبع، وإن كان في نظركم خلاف ذلك فبينوه، تؤجروا مرتين، قال عليه السلام: (إن لمحسننا كفلين من الرحمة). وليعلم الأداني والأقاصي أن الله فاطر السماوات والأرض ربي، ومحمدًا صلى الله عليه وسلم نبيّي، والأئمة

الهادين والمهديّين قادتي، والإسلام ديني، والكعبة قبلتي والقرآن كتابي، والمؤمنين إخواني، وطريقة المفيد والمرتضى وقدماء الإمامية مسلكي، وتصانيفي العربية والفارسية شهود صدق على ذلك؛ فمن نسب إلي غير ذلك فهو مفترٍ كذاب مأخوذ بقوله يوم الحساب. وقد كثرت الأراجيف والغوغاء بالزور والافتراء، ولا يضرني شيء من ذلك أبدًا، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وأرد على ربي مظلومًا خير من أن أرد عليه ظالمًا، نعوذ بالله من سوء المنقلب. ألا إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وليس بعد الموت بمُستَعتب ولا دار بعد الدنيا إلا الجنة أو النار، وعند الله يجتمع الخصوم، وإنَّ الله يحكم بين عباده، وإن الرب لبمرصاد، أبعد الشيب يرتجع الشباب؟. انعموا بالجواب بالحق تذكرة لأولي الألباب ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾. كتب الداعي إلى الحق اليقين أبو أحمد محمد بن عبد النبي بن عبد الصائغ الخراساني).

وقد ألف رسالة (القسورة) جمع فيها اعتراضات أوردها على المجتهدين، قال فيها:

فهذه براهين عقليّة صحيحة المادّة والصورة على إبطال طريقة الظن المعتاد المشهور عند أهله بالاجتهاد أقمتها حجة على العباد.. وسميتها بالقسورة والله يجعلها تبصرة. ثم أرسلها للمحقق للقمي.

وألف (الشهاب الثّاقب) نقضًا لرسالة المحقق القُميّ في علم الأصول، وأبطل الاعتماد على الظنون الاجتهادية في استنباط الأحكام الشرعية؛ وقصر ذلك على الأخبار المعصومية. وردّ في (الرسالة البرهانية) شبهة انسداد باب العلم التي قال بها

المحقق القمي، وأيضًا رد هذه الشبهة وشبهة الاضطرار إلى الاجتهاد وأنه كالاضطرار إلى الميتة في رسالة (إعصارٌ فيه نار).

وفي هذه السنة، ولد حفيده الأول (الميرزا عبد النبي بن الميرزا أحمد).

بقي السيد الميرزا مشغولًا بالتدريس والتأليف، وقد فرغ من تأليف كتاب (بغية الفحول)، في الثامن والعشرين من ربيع الثاني من هذه السنة (1226هـ) في هذه البلدة المقدسة، الكاظمية. والكتاب هو تعليقة على أساس الأصول للسيد دلدار علي بن السيد محمد معين الهندي النصير آبادي، الذي ألفه بالأساس في الرد على كتاب الفوائد المدنية، وقد جاء في آخر الكتاب:

(فكيف بدعاء الناس إلى الله إلا أن يدعو إلى كتابه؟!، وكيف يدعو إلى رسول الله إلا أن يدعو إلى سنته؟! فإذا زعمتم أن في الحكم ما ليس في الكتاب والسنة أليس قد أبطلتم دعاء الناس إلى الله وإلى رسوله ﷺ... إلى آخر ما أفاد، فالمعلوم من حال أمثال الفضل أنهم كانوا يستدلون بالوجوه العقلية المسموعة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام كما نصّ عليه الفضل بنفسه في آخر كتاب علل الشرائع فربما كان يحسب أحد أن هذا من أفكاره وأنظاره فقط، فتكون غفلة من ذلك المتوهم، والمعصوم من عصمه اللهُ تعالى).

ثم رد عليه مفصلًا بكتاب (معاول العقول في قلع أساس الأصول) في جزأين، وقال فيه:

(وهذا كتاب معاول العقول تمّت به العشرة الكاملة في ردّ المذاهب الباطلة تمام الأربعة والثمانين مُصنّفًا... حين شدة من الزمان، وتخاذل الإخوان، وتعاون العدوان، والله المستعان).

يذكر فيه قول السيد دلدار بـ (قال)، ثم يذكر المأخذ عليه

بـ(أقول). وقد فرغ منه في الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة (1227هـ/ 1812م).

وصدره وأرخه بهذه الأبيات:

كـتـابـي لا يُـدانـيـهِ كـتـاب
خـطـابـي لـيـسَ يـعـلـوهُ خـطـابُ
هـوَ الـحـقُّ الـصُّـراحُ بـلا مـزاحٍ
صـوابٌ لَـم يـشـابـهْـهُ صـوابُ
وإنْ كـانَ الأسـاسُ لـهُ أسـاسٌ
قـلـعـنـاهُ بِـحـقٍّ لا يُـجـابُ
جـوابُ عـقـلِـهِ مـنـصـورُ نـقـلٍ
ونـقـلٌ لـيـسَ فـيـهِ مُـسـترابُ
شُـمـوسُ الـحـقِّ فـيـهِ بـازغـاتٌ
نـجـومُ الـصِّـدقِ مـنـهُ لا تُـغـابُ
وهـا هـيَ نـسـخـتِـي بـدرٌ مـنـيـرٌ
ولـكـنْ لـيـسَ يـحـجـبُـهُ سَـحَـابُ
وهـا هـيَ نُـسـخـتـي نـورٌ مـبـيـنٌ
حـقـايـقُـهَـا بـظـنٍّ لا يُـشـابُ
لـقـد أرَّخـتُـهَـا والـحـقُّ يـعـلـو
(بـدا مـنـهَ خـطـابـي مـسـتـطـابُ)

وكتاب أيضًا (سلاح المؤمن وإصلاح المهيمن)، في بيانِ سند الحرز اليماني المعروف بـ(السَّيفيِّ)، كتبه للسيد محمد خان ابن الميرزا معصوم خان الطباطبائي، وأجاز له في آخره قراءته، وفرغ منه في العشرين من ربيع الثاني عام (1227هـ).

وكتاب (التَّنبيه لإيقاظ النَّبيه في ذكر ما أُجمع عليه واختُلِف فيه)، وهو في الفقه على المذاهب الخمسة. جمع فيه أقوال

الأئمة الأربعة وقول الإمامية في الفقه، من كتاب الطهارة إلى كتاب المكاتبة. جعله في مقدمة في ذكر جمل وافية من تصريحات الأئمة الأربعة بالتحاشي عن القول في دين الله تعالى بالرأي والتحذير عن تعدي السُّنَّة والأخذ بالتقليد. وجاء في أوله هذه الأبيات للميرزا:

يا مَن يرومُ وصولاً لفقهِ جُلِّ المذاهبْ

اصحَبْ كتابيَ هذا فإنَّهُ خيرُ صاحبْ

واسلُكْ طرِيقيَ واعلمْ أنِّي عن الغيِّ ناكبْ

وقد اتفق الفراغ منه غروب يوم السبت الخامس والعشرين من شهر شوال من سنة (1227هـ) بمقابر قريش.

وفي هذه السنة أيضًا جرت مراسلات بينه وبين المير سيد علي الطباطبائي. فقد كتب الميرزا محمد رسالة إلى السيد، وبعثها بيد السيد محمد سعيد الرضوي، حررها في الرابع من ذي الحجة من سنة (1227 هـ) من مقابر قريش، وهذه نسخته:

بسم الله الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.. يرفع إلى السيد السند الأمجد الأوحد لازال كاسمه عليًا ولله وليًا، أن في الزمان السابق قد تكررت المراودة والمزاورة من الطرفين وما سُمع مني ما ينافي شريعة المختار وطريقة الكرار وهدى الأئمة الأطهار صلى الله عليه وعليهم مدى الأكوار والأدوار، وطريقة أصحاب الحديث والعلم وأرباب النظر والاجتهاد بين الأنام ليست بأول قارورة كسرت في الإسلام، وإنما المناط عندكم العمل بهذه الأخبار باعتبار حصول المظنة، وعندنا باعتبار السببية والتصويب، غير مختار عند الإمامية، والتخطئة غير مستلزم لتكفير ولا تفسيق، وإلا لعمت البلية وأراجيف أمل

الأغراض الفاسدة والحسد كثيرة لا طائل تحتها، فإن سنة الاختلاف. . . ومن المثل السائر (كل من صنف فقد استهدف) وباب البحث غير منسد عن أحد حتى عن السادة المعصومين بل عن إله العالمين.

قـــيـــل أن الإلـــه ذوو ولـــد
قـــيـــل أن الـــرســـول كـــهـــنـــا
مـــا نـــجـــى الله والـــرســـول مـــعـــا
مـــن لـــســـان الـــعـــدى فـــكـــيـــف أنـــا

وقد سمعت ولا سمعت إلى جناب السيد يذكر هذا العبد الإمامي الاثنا عشري المحدث في مجلسه الشريف بالتفسيق والتكفير، وما يظهر من جنابه على مثل هذا المنكر نكير، وإنما هذا من غريب الأمور ومحل القبول. أنا في الأصول والفروع على طريقة الشيخ المفيد والسيد المرتضى (رحمهما الله)، وهذه تصانيفي الكبيرة والوسيطة والصغيرة ناصة بذلك، واشهد الله وملائكته ورسله وعباده الصالحين أنا بريء من كل مخالف لطريقة الأئمة المعصومين، اعرضوا تصانيفي على الكتاب والسنة فما خالف منها فأعلموني حتى أرفضه. وأما ما جرى بيني وبين صاحب (كشف الغطاء) فقد كان بالقدح باديًا والبادي أظلم، وإن كان ما شابه أباه فما ظلم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، وقال تعالى ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وإنما كتبت اعتذارًا إذ ليس بعد الموت بمستعتب، وهذه العشرة السادسة قد انقضت وحان الوفود على صاحب المرصاد والعالم بنيات العباد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وانعم بالجواب قبل فصل الخطاب على ظهر الكتاب، وما

أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ولا عاصم من أمر آت ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أتى الجواب من قبل السيد علي الطباطبائي يقول فيه:

بعد السلام، بمزيد العز والإكرام على من اتبع الهدى دون مشتهيات النفس والهوى، أعاذنا الله تعالى وإياكم عن ذلك أن شاء الله، إنا لا نفسق ولا نكفر من لم يعلم منه شيئًا من موجبها، نعم نفسق من يزري على العلماء الصالحين من المتقدمين علينا قديمًا وحديثًا لمجرد تخيلات فاسدة وخيالات لا إنشاء لها ولا حقيقة، والله سبحانه هو العالم بالسراء.. وببالكم الشريف إني ألزمتكم بشيء فلم تردوا إلي الجواب عنه، بل طلبتم مني المهلة إلى المواجهة للداعي بجواب شاف واف، فلم توفوا بذلك بل بعثتم لي بأمثال هؤلاء الكلمات، وحيث أني عاهدت معكم بأني لا أنظر إلى ما تكتبون ولا ألتفت إليه أصلًا، وطلبت منكم الجواب شفاهًا فما واجهتموني إلى الآن، وقد أتممتُ الحجة، ونحن لا نستنكف عن الحق أينما كان حيثما كان، واعتباركم حجيّة الأخبار مجرد دعوى لا بد من معرفة مضمون هذه العبارة؛ وأن المنشأ في حجية الأخبار، وما الداعي إليها.

يا أخي: أتحسّر ويضيق خلقي على مثلك، يضيع نفسه ومرتبته بإظهار بعض المراتب التي لا يليق صدورها عن عاقل فضلًا عن عالم، من قبيل القدح في العلماء الذين عليهم مدار الدين، وهم المكلفون لإقيام الأئمة المعصومين، ونحن لا نعترض على الأخباريين العالمين بالأخبار الصادرة عن الأئمة الأطهار عليهم صلوات الله الملك الجبار، واختلاف الأنظار في المدارك والأسباب للاعتبار لا يوجب القدح فيهم، مجتهدين كانوا أم أخباريين، وههنا جماعة من الأخباريين نحن نخلص لهم مثل:

الشيخ الحر رحمه الله، والشيخ يوسف (رحمه الله)، وقد كتبت كتابه الحدائق وصرت منشأ شيوعه بين الطلبة، وإن كنا لم نوافقه في طريقته، لكنه (رحمه الله تعالى) عالم رباني، يجل العلماء ويعظمهم ويحامي عنهم ويتكلم على من يزري ويخطئهم، وهذه طريقة مستحسنة متبوعة من أخباري كان يجتهد، وقد رأيت في بعض مؤلفاتك ومصنفاتك ورسائلك أنك قد وقفت في ذم العلماء المجتهدين، وخطّأتهم وأسأت الأدب معهم، ولذا تجرأ في التفسيق من تجرأ، فلم تفعل هكذا؟، وقد أتممت الحجة عليك أنصحك لله تعالى واسلك سلوكًا ينفعك دنيا وآخرة، والله سبحانه هو المستعان وعليه التكلان، وبالسلام ختام.

فقام السيد الميرزا محمد ببيان ما في الجواب من عدم المطابقة بين جوابه وجواب المير علي:

إن أول مطلبي في المكتوب (أن في الزمن السابق) إلى قولي (مدى الأدوار والأكوار)، وفيه إثبات على المرسول إليه أنه ما سمع مني شيئًا منافيًا للشريعة المحمدية وللطريقة العلوية، فكان عليه أن يقرر ذلك أو يبيّن ما كان سمعه من مخالفات الشريعة الحقة، . . . وافتتح الكتاب بما يفتتح به جواب أصل الكتاب، ثم جنا بالجواب بقوله (إنا لا نفسق. . .)، وما كان هذا الكلام جوابًا بالشيء المكتوب، إذ لم يثبت إليه تفسيقًا ولا تكفيرًا، بل قلنا إن السماع يحكم بذكر التفسيق والتكفير في مجلسه وعدم النكير عنه، ونحن ما صدقناه، فكأنه أجاب عن ذلك المطلب بالإقرار بذلك، لعلة الإزراء على العلماء، وتمم المطلب في آخر المكتوب من أنه رأى التخطئة والإزراء على المجتهدين، ولا بين اسم الكتاب ولا ذكر مفاد التخطئة والإزراء حتى يجاب عنه، مع أن جميع الإمامية من صدر الأئمة إلى زماننا لهم ردود

على أصحاب الاجتهاد، مذكور في فهارس كتب الأصحاب، مثل كتاب الإيضاح للمفيد، وكتابه في رد اجتهاد الرأي على ابن الجنيد، وكتاب الشافي للمرتضى في رد رسائل بني نوبخت، فضلًا عن خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائل الصادقين عليهما السلام في ذلك، أوردنا عباراتها في كتاب (منية المرتاد في ذكر نفاة الاجتهاد)، ومن المستبين في أحوال الملل والنحل أن الاجتهاديين [. . .] صرح بذلك المفيد في كتابه (العيون والمحاسن)، والسيد المرتضى في (الشافي) في ذكر كلام صاحب المغني، إذ كل من أوجب الفزع إلى كلام الإمام عند نزول الحادثة به فهو إمامي، وكل من أوجب النظر عند نزولها للاعتبار فمجتهد، وكل من أوجب الوقف فظاهري، ولم يعهد في الإمامية إطلاق لفظ المجتهد على رئيس لهم إلى عصر الشيخ الطوسي، بل إلى ابن إدريس، ولا أرى في كتبهم إلا الرد على الاجتهاد والمجتهدين، حتى في كتاب (عدة الأصول) [للشيخ الطوسي] فضلًا عن (الذريعة) [للسيد المرتضى] وكتاب (العيون والمحاسن) [للشيخ المفيد]. . . ومن لم يصدق فليراجع.

ومطلبي الثاني: [من قولي] (أصحاب الحديث إلى قولي كسرت في الإسلام)، ومقصودي أن سلوك طريقة أهل العلم المعروفين بالأخباريين، لا طريقة أهل الظن والتخمين المشهورين بالاجتهاديين المبتدع في زماننا وأمثاله. ومطلبه الثاني في الجواب: (وببالكم الشريف إلى قوله وقد أتممت الحجة)، وذلك معهود أن جناب السيد شرفني في دارنا عصر يوم وطلب ما كتبته في الاعتقادات، فقرأت عليه رسالتي الموجودة في الاعتقادات من إثبات المبدأ الواحد وما يجوز وما لا يجوز ومباحث النبوة والإمامة والمعاد والكبائر فاستحسن ذلك.

وأما قولي بنفي التعبد بالظن، فلما سمعه أدام الله توفيقه قال: لو جيء إليك بنعشٍ أو تابوت هل تصلي عليه قبل أن تكشف عن وجه الميت وتفحص على نبضه وتتحقق من موته بمشاهدة أم لا؟

قلت: نعم؛ أصلي عليه إذا لم يكن مما اختلف في موته بلا كشف عن وجهه.

قال: لعلّه لم يمت، ولعل الذين شاهدوا موته وشهدوا عندك اشتبه عليهم، وهذا عين العمل بالظن.

قلت: يا سيدي، هذه مسألة مسبوقة حققها متكلمو الإمامية آتيك بجوابها إن شاء الله تعالى، وقد كان وقت المغرب، فانصرف السيد إلى منزله، وأنا الحقير كتبت رسالة (البرهان في التكليف والبيان)، وبينت فيها ما يجب على المكلَّف تعالى شأنه؛ وما يجب على المُكلَّفين، وبينت الفرق بين أسباب الحكم والحكم نفسه، وأن التكليف هو الحكم نفسه فقط وما لا يتم إلا به فهو واجب الحفظ على الله تعالى لا يقبل الاختلاف أبدًا، وأن المكلَّف به هو فعل العبد؛ وما لا يتم إلا به فهو واجب على العبد إذا كان مقدورًا له، وساقط عنه إذا لم يكن مقدورًا، وبينت مسألة تخلف البينة وقتل البريء وإلقاء الصبي في النار، مع أن إنفاذ الحكم بشهادة الزور، وترتب قتل البريء عليه، وكذلك إحراق الصبي بفعل النار يرجعُ قبحُ مثل ذلك إلى شاهدي الزور ومُلقي الرضيع في النار مثلًا؛ لأنهما بفعلهما أوجبا على القاضي وعلى النار قتل البريء وإحراق الصبي. وأوردنا عبارات المحقق الطوسي (طاب ثراه) في كتابه (التجريد)، وعبارة الشارح العلامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الجوهر النضيد في شرح التجريد) وأوردنا عبارات الشيخ المجلسي

(طاب ثراه) في كتاب (بهجة الأنوار)، وبعثنا إلى السيد من الغد التماسًا للجواب لشفاء العليلِ وتروي الغليل.

فرد السيد الرسالة بلا جواب؛ وأشار إلى هذه القضية بقوله: بل بعثتم لي بأمثال هؤلاء الكلمات يعني هذه الكلمات، وقال: (حيثِ إني عاهدت معكم بأن لا أنظر إلى ما تكتبون ولا ألتفت إليها أصلًا إلى آخره...).

فالأول: فيه أن المتيقن عندي العلم بعدم وقوع هذه المعاهدة.

والثاني: على فرض الوقوع إن كان الأمر كذلك، والسيد ما نظر إلى ما كتبت ولا التفت إليه، كيف درى أن تلك الكلمات من هذه الكلمات، وأنها خيالات فاسدة أم قضايا حقة؟! فإن علم فسادها بالنظر إليها فقد نقض العهد الذي ادعاه، وإن لم ينظر فقد تكلم بالغيب رجمًا، وحاشاه ذلك، فلعلي لم أفهم مقصوده.

والثالث: إن أي دليل دلّ على الحجة لا يتم إلا بالمواجهة؟، ولو كان الأمر على هذا لما كانت حجّة النبي ﷺ تامة على العجم والترك والروم، لأنه ما شافههم بالحجة؛ بل إنما اكتفى بإرسال المكتوب إلى ملك فارس والروم.

ومطلبي الثالث: إظهار أنّ المناط عندنا في العمل بهذه الأخبار السّببيّة، لا من حيث حصول علم أو يقين أو ظن، وعند الاجتهاديين من حيث إفادتها الظن بمراد الشارع، وعند جماعة باعتبار إفادتها العلم بالحكم الواصلي، وعند قوم بالحكم الظاهري، وعند قوم بالحكم الواقعي بدليل (إنّ).

وأجاب السيد عند ذلك بما لفظه: (واعتباركم حجية الأخبار مجرد دعوى لابد من معرفة مضمون هذه العبارة وأن المنشأ في

حجية الأخبار. . ، وما الداعي إليها)، وأيضًا سقوط خبر الناسخ من قلمه.

ومن العجب مطالبته الدليل على حجية هذه الأخبار، مع أن القول بحجية السنة المعبر عنها بـ(الأخبار) وأنها من الأدلة أو هي الأدلة من ضروريات الإسلام، وكل من خالف في عدد الأدلة من موحد، أو مثنن، أو مثلث، أو مربع، أو مخمس، أو مسدس، أو مسبع، على التفصيل المذكور في مطولات أصول الفقه ما خالف قط في حجية السنة في الجملة، وإنما اختلفوا في حجية بعض أنواعها دون بعض باعتبار الثّبوت واللا ثبوت، وباعتبار الوصفية أو السببية. وما كان المكتوب لإثبات المسائل الأصولية، بل كان المقصود إثبات الحجة، واستظهار الخبر المسموع وتنبيهه، فلما تبين ما تبين تحقق التّكليف بما تحقق، إذ ما نكفر إلا من كفرنا ولا نفسق إلا من فسقنا. ثم بينت له أن مسلكي مسلك المفيد والمرتضى فما قرر عليه ولا أنكر ولا تعرض لجوابه. وكذلك بينت له وجه النزاع بيني وبين صاحب كشف الغطاء وأنه كان باديًا، فأعرض وفتح باب التجريء بما لم يثبت.

ولعمري لِمَ لَمْ يبين موضع إزرائي على العلماء الذين عليهم مدار الدين، وهم المتكفلون لأيتام الأئمة المعصومين الطاهرين؟.

بل نقول: أنا بريء من كل من يزري على علماء الدين؛ وعلى أمناء الأئمة الطاهرين على حلال الله وحرامه من الذين لم يحرفوا الكلم عن مواضعه، وأدّوا حمولة الرب كما حُمّلوهَا، ومن كل من ينسب إلي مشاقَّة العلماء الراسخين. وهذه كتبي في ذكر الرجال منها (منية المرتاد) ذكرت فيه مئة رجل من عظماء

الإمامية كالمفيد، والمرتضى، والشيخ الطوسي، والفاضل، والحلي، والمحقق الحلي، والعلامة الحلي، والشهيدين نوّر الله مراقدهم، وأخرجتُ فيه عباراتهم بألفاظهم الشريفة ناصة على نفي التعبد بالاجتهاد، ومنها (صحيفة أخوان الصفا) تزيد على خمسين ألف بيت، ومنها كتاب (الفصل) في ذكر الممدوحين والمذمومين على لسان السادة الطاهرين، ومنها كتاب (صفاء اللؤلؤة) في ذكر مشايخ الدين الذين روينا عنهم بواسطة وبلا واسطة، وقد ذكرت الماضين والمعاصرين.

وأما تخطئة الأنظار التي ثبت عندي خلافها بالبراهين ومحكمات الآيات وأحاديث الطاهرين، فلا يخلو منها عالم مصنّف من أهل العلم كان أو من أصحاب التخمين. وقوله: (فها هنا جماعة من الأخباريين نحن نخلص لهم)، لا يخلو من سهو القلم، لأن الصحيح أن يقول نحن مخلصون لهم أو أنا مخلص لهم.

وقوله: (وإن كنا لم نوافقه في طريقته لكنه رحمه الله تعالى عالم رباني)، فمن أغرب الغرائب لأنه أقر بعلمه وكونه ربانيًا، ومع العلم والربانية فما الداعي له لرفض طريقته وأنه رفض الحق، فإنها أما كانت حقة فرفضها غير جائز، وأما كانت فاسدة، فكيف يكون صاحب الطريقة الفاسدة عالمًا ربانيًا يستحق الترحم؟.

وإما قوله: (وقد رأيت في بعض مؤلفاتك ومصنفاتك ورسائلك أنك وقعت في ذم العلماء المجتهدين وخطأتهم وأسأت الأدب معهم)، فما أدري أي مصنف ومؤلف ورسالة ذممت فيه العلماء المجتهدين، وإنما ذممت المزرين على المحدّثين المزيفين لطريقة القدماء الصالحين ممن اعترف بسد

العلم على نفسه وامتناع حصوله كصاحب كتاب (الفوائد البهية في الرد على الطائفة الغبية)[1]، وصاحب كتاب (السهام المارقة)[2]، المشنع على حملة كتاب الله وأحكام رسول الله ﷺ المعبر عنهم ﷺ: (رحم الله خلفائي ثلاثًا) ولقوله ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء). وأين أزريت على مثل المفيد والمرتضى والشيخ والمحقق والعلامة والشهيدين نوّر الله مراقدهم؟!، وقد أخرجت عباراتهم من كتبهم ناصّة على ما اخترته من العمل بالمجموع المستفاد من الكتاب المحكم والسنة القائمة. وإنما المجتهدون عندي بالمعنى المتنازع فيه، رؤساء المخالفين، حاشا علماء الإمامية ومروجي الطريقة المرتضوية أن يكونوا متمسكين بالرأي والظن والتخمين. وهذا العلامة (طاب ثراه) قد نادى في منهاج الكرامة وكتبه الكلامية بما صرّحنا، وإنما هم المجتهدون لغة في تنقيح أحاديث السادة الأطياب عليهم صلوات الله الملك الوهاب، وها أنا أقول كما قال الكميت:

بأي كتاب أم بأي سنة
ترى حبهم عارًا عليّ وتعتب؟

وأما التخطئة في فروع الفروع عند ظهور الأقوى، فلا يستلزم

---

(1) هو الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبدالجبار بن سعد الدين المازندراني الحائري المعروف بأبي علي، صاحب كتاب (منتهى المقال) في الرجال، ولد بكربلاء سنة (1159هـ)، وتوفي فيها سنة (1215هـ)، من أساتذته: الوحيد البهبهاني، والسيد علي الطباطبائي. والرسالة اسمها (عقد اللآلئ البهية في الرد على الطائفة الغبية) أي الأخبارية.

(2) هو الشيخ محمد بن الحسن بن زين الشهيد الثاني العاملي المتوفى (1030هـ)، وفيه اتهم محمد أمين الإسترآبادي بشرب الأفيون!

إساءة أدب أصلًا، فهذا شرحكم الكبير مملوء من تخطئة المرتضى والشيخ والفاضل الحلي والمحقق والعلامة (طاب ثراهم) في أكثر من مئة مسألة. وكيف يمكن القول بوجوب النظر مع تصويب كل قائل بكل قول غير متغلّب، فإنه يستلزم الجمع بين المتناقضات من إيجاب وتحريم، وطهارة وتنجيس، وتصحيح وإبطال باعتبار واحد. قال الشيخ (طاب ثراه) في العدة، بعد ذكر المذاهب في مسألة الاجتهاد ما لفظه: والذي أذهب إليه وهو مذهب جميع شيوخنا المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين، وهو الذي اختاره سيدنا أبو عبد الله وسيدنا المرتضى (أن الحق واحد وأن عليه دليلًا، من خالفه كان مخطئًا فاسقًا).

فلو كان تفسيق من يفسقنا بهذا الاعتقاد، فليفسق جميع الإمامية إلى زمن الشيخ ومن يحذو حذوهم ممن تأخر عنه، بل كل من يلحق إلى يوم التناد، وقد أتممت الحجة على من بلغه الخطاب، وفهمته لوجه الله الملك الوهاب، فاسلكوا سبل الإنصاف، وجانبوا طرق الاعتساف، وفقنا الله تعالى وإياكم لتحصيل مراضيه، وجعل عامنا خيرًا من ماضيه.

بعد شهر تقريبًا، أي في السابع من المحرم سنة (1228هـ)، بعث الميرزا محمد رسالة أخرى إلى السيد علي، قال فيها:

بسم الله، والحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فخير تحية وتسليم يهدى إلى من هو حقيق بالتعظيم وحري بالتكريم، لا زال على منهاج الحق مستقيمًا، وللحميم حميمًا، يرفع إلى جنابه، أن لا مقصود لي إلا بيان ما أوجبه الله تعالى، لا طمعًا في الثناء، ولا خوفًا من الذم والدعاء، إذ ما كان لله ينمو، وذلك أن من المستبين لدى كل مستفهم أن هجرتي من

الديار الهندية في عنفوان الشباب ما كانت لفقر أو ذل، ولا لاكتساب الحطام والأسباب، بل كانت لتحصيل العلوم الحقة ومعرفة الطريقة المحقة، وقد كانت المقدمات الأدبية والعقلية حاصلة، فجالست علماء العرب والعجم وتتبعت مصنفات من تأخر منهم ومن تقدم بقدر التوفيق والوسع والطاقة، الأهم فالأهم، وعلمت علمًا يقينًا أن دليل حقيقة الإمامية اعتقادهم عصمة الرئيس الإلهي حتى بان المكلف باتباعه عن الخطأ المخرج عن الصراط المستقيم، ولئلا يكون فرض الحكيم تعالى شأنه فيما كلف به عباده من أمر حكيم. وعلمت دلائل الكتاب المحكم والسنة القائمة في ذلك، ولا يكاد يحصى، جمعت ألفًا ومائتين وعشرين منها، كما هي طائفة منها مشروحة في الكتب الكلامية من الإمامية كإحقاق الحق ونهاية الكلام، وعلمت أن القول بانسداد باب العلم بما كلف به الإنسان من غير تقصير من نفس المكلف بسوء اختياره ما يتم مع القول بوجوب اللطف على الله سبحانه أولًا، ووجوب إتيان الأصلح منه ثانيًا، ووجوب عصمة المطاع الإلهي ثالثًا، ووجوب حفظ الغرض من التكليف رابعًا، ووجوب إتمام الحجة على المكلفين خامسًا، إلى آخر الوجوه المشروحة في الكلاميات. وعلمتُ أن البيان شرط عقلي لصحة التكليف والشرط، والشرط العقلي لا يقبل الاعتياض عقلًا ولا شرعًا فيمتنع المشروط مع فرض لا تحقق شرطه فلا يبتعد القول ببقاء التكليف من القول بفتح باب العلم إلى ما كلف به لغير المقصرين بدليل أن مع شواهد من الكتاب والسنة على ذلك، منها الحجة البالغة فما تغني النذر، ومنها أن غاب عن الناس شخصه في حال هدنتهم لم يغب عنهم علمه، وآدابه في قلوب المؤمنين مثبته هم بها عاملون، وفي معناها

روايات في النهج وكتب الصدوق بألفاظ قريبة المعاني، ومنها: (يا أبا خالد، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله عز وجل نورهم عمن يشاء فتظلم..). ومنها: (كلامكم نور)، ومنها: (ما لا نور له ولا حقيقة فهو كلام الشيطان). إلى ما لا يحصى كثرة.

وقد علمتُ بترتيب بقضية مركبة من قضايا ضرورية صحيحة المواد والصور، وأن الحكم الإسلامي المحمدي الختمي بعد موته ثابت لا يزول إلى آخر الأبد، وهذه الصغرى ضرورة عند المسلمين ثابتة بالبراهين قبل الضرورة في الدين، ولا شيء من الحكم الاجتهادي ثابت مع تغير رأي المجتهدين، باتفاق من المجتهدين وهذه الكبرى مسلمة عند قاطبة المجتهدين من فرق المسلمين، فينتج أن لا شيء من الحكم الإسلامي الختمي بحكم اجتهادي، لثبوت الأول ولا ثبوت الثاني.

وبعبارة أخرى: الحكم الاجتهادي يتغير بتغير رأي المجتهد بالضرورة، ولا شيء من الحكم الإسلامي المحمدي الحتمي بعد موته عليه السلام بمتغير لضرورة الإسلام، فلا شيء من الحكم الاجتهادي المتغير بتغير رأي المجتهد بحكم إسلامي محمدي ختمي، لاستحالة اجتماع وصفيّ التغير، ذلك تغير المعبر عنه بالثبوت من حيث إنهما حكمان شرعيان إسلاميان، ولما ثبت التباين الكلي عظم الأمر لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، مع قوله عليه السلام: (الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم

بحكم الجاهلية). وقد وقفت في مسألة الاجتهاد المتنازع فيه تصنيف رسالة (الشبهات الثانية) عشرة أجزاء، ورسالة (كشف القناع) في جزء، ورسالة (البرهان في التكليف والبيان) في جزأين، وكتبتها في جواب إشكال منكم وبعثت بها إليكم في صبيحة بعد عصر يوم السؤال الشفاهي، ورددتموها علي بلا جواب. ورسالة (الحجة البالغة) في جزء، وكتاب (فتح الباب) في ستة أجزاء، وكتاب (مصادر الأنوار) في اثنا عشر جزء، وكتاب (إنسان العين) في أربع وأربعين جزء، وكتاب (قلع الأساس) في ستين جزء. وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله، فإن كان المجتهد في فهم الحق بعد تحصيل المقدمات وإخلاص النية لا محالة فإنا بحمد الله كذلك، وإن كان جاز الخطأ عن الحق مع كونه مثابًا لاجتهاده بأجر واحد، على أن المخطئ له أجر واحد، فإنا كذلك على مقتضى أصولكم، مع أني أقول إن كنت محقًا مصحًا فصدقوني، وإن كنت باطلًا مخطئًا فبينوا لي بالبرهان، وعلي القبول والإذعان.

والجواب عن مسألتكم، وهي في بالي يقينًا، لأني قد كتبت جوابها تلك الليلة وبعثت من الغد إليكم، والرسالة محفوظة، أن قبول الشهادات الشرعية ليس لحصول المظنة في الحقيقة، وإلا لدار معه وانتفا بانتفائه، وللزم قبول شهادة رجل واحد ثقة، وإن كان غير مؤمن بل غير مسلم مع حصول الظن من شهادته، لحصول العلة ولوجوب رد شهادة العدلين المرضيين مع لا حصول المظنة [. . .] فكذلك الملزوم لا حقيقة له، وإنما قبول الشهادة بعد إقامتها من باب التعبد بأسباب الشرعية، كما ذهب إليه السيد المرتضى (نور الله ضريحه) ووافقه كل مرتضي. وكذا الصلاة على الجنازة قبل رؤية الميت، مع أن العلم هناك

مادي وهو لا ينثلم بالاحتمال العقلي، كما أن العلم العقلي ببقاء القائم عليه السلام مثلًا لا ينثلم باحتمال مادي، إذ من الثابت في العقول عدم انثلام علم إلا باحتمال كافي قبل العلم أو معه من طريق حصول العلم، ومع تغاير الطريقين أو تأخر الاحتمال أو لا، فكأنه لا تأثير له أصلًا بلا خلاف بين علماء المعقول، فهي من باب إيجاب الأسباب أيضًا أولًا، ومن باب الأسوة المعلومة بضرورة الإسلام ثانيًا. قال الشيخ في العدة: وبالظن لا يتميز الأشياء وإنما يتميز بالعلم، ومتى لم يكن عالمًا بوجوب الفعل كان مجوزًا كونه غير واجب فيكون متى أقدم عليه مقدمًا على ما لا يأمن كونه قبيحًا، والإقدام على ذلك في القبح يجري مجرى الإقدام على ما يعلم قبحه، ومتى علم كونه واجبًا فلابد من أن يعلم وجه وجوبه على جملة أو تفصيل، لأنه لو كان ظانًا لوجه وجوبه كان مجوزًا انتفاء وجه الوجوب عنه ودعا الأمر إلى تجويز كونه غير واجب. وهذه الجملة إذا تأملت بطل بها قول من أنكر تعلق الأحكام بالظنون ومن توهم على من سلك هذه الطريقة انه قد أثبت الأحكام بالظنون فقد أبعد نهاية البعد، لأن الأحكام لا تكون إلا معلومة، ولا تثبت إلا من طريق العلم، لأن الطريق إليها قد يكون تارة العلم وأخرى الظن، لأنا إذا ظننا في طريق سَبُعًا وجب علينا أن تجنب سلوكه، فالحكم الذي هو قبيح سلوكه وجب تجنبه معلوم لا مظنون، وإن كان الطريق إليه هو الظن، ومتعلق الظن غير متعلق العلم، لأن الظن يتعلق بكون السَبُع في الطريق والعلم يتعلق بقبح سلوك الطريق..) إلى آخر ما أفاد.

وكذا الجهل للمتمم الجاهل بوجوب القصر سفرًا، يكون الحكم معلومًا وإن كان الطريق إليه الجهل، وكذا الشك والسهو

وغيره فلا مزية للظن فليتأمل. وأما تحسين سيدنا لوتيرة الشيخ محمد الحر والشيخ يوسف ﷺ، فالشيخ الحر ذكر في المجلد الأول من الفوائد الطوسية نقضًا لرسالة الاجتهاد وتكلم فيه بما تكلم. وقال الشيخ يوسف في (الحدائق) في مسألة طهارة الأرواث ونجاسة الأبوال من الدواب ما لفظه: (أنه لا يخفى ما في هذا الاستدلال من المجازفة في أحكام الملك المتعال والبناء على أساس ظاهر الاضمحلال) إلى أن قال: (ومن أخذ من الإنصاف بأدنى نصيب أن الأئمة عليهم السلام يفرقون بين البول والروث، فيصرحون بنجاسة الأول ويأمرون بغسله، مع تصريحهم في كتبهم الأصولية بأن الأمر حقيقة في الوجوب، ويحكمون عليهم السلام بطهارة الثاني، وهم يتعمدون مخالفتهم عليهم السلام ويرتكبون هذه التأويلات الغثة في كلامهم، فيحكمون بالطهارة فيهما معًا، ميلًا إلى الأخذ بهذا الإجماع الغير الحقيق بالاتباع ولا الاستماع، ما هو إلا اجتهاد محض في مخالفة النصوص وجرأة تامة على أهل الخصوص) إلى آخر كلامه.

فيا مولانا أي تشنيع أزيد من هذا التشنيع فإنه نسب إلى المجتهدين المجازفة في أحكام الملك المتعال أولًا وهي مقالة من الجزاف وهو معرب كزاف وهو بمعنى الكذب، وجنابك خبير بما تحت الكذب في أحكام الله تعالى ونسب إليهم البناء على أساس ظاهر الاضمحلال ثانيًا. تلميحًا إلى قوله تعالى: (عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) فليتأمل. ونسب إليهم التعمد بالمخالفة للأئمة المعصومين عليهم السلام ثالثًا. وفي الجامعة: (من خالفكم كافر) ونسب إليهم الاجتهاد في مخالفة النصوص رابعًا. وقد قال عليه السلام في الجامعة (ومن رد عليكم فهو في أسفل درك من الجحيم) ونسب إليهم الجرأة الثابتة على الأئمة المعصومين عليهم السلام خامسًا.

فبالله عليكم أين وجد في تصانيفي عشر معشار هذه التشنيعات خصوصًا مع التعميم والتأدية بلفظ الجمع هذا، مع أني كتبت رسالة (الاعتذار في الدين على الأبرار) وبينت فيه أن ما ظهر من بعض متأخري الإمامية من التشبه بالمخالفين في طريقة الفتيا والاستدلال، فهو من باب دفع تشنيعهم عن أنفسهم بعدم القوة المستنبطة للفروع أولًا، وللمماشاة المأمور بها معهم ثانيًا، وللتقية ثالثًا، ولإلزامهم بما ألزموا به على أنفسهم رابعًا، من غير اعتماد على تلك الطريقة فيما بينهم وبين الله تعالى، وأوردت هناك عبارات السيد والشيخ ومن تأخر عنهم ﷺ.

وأما عندي فجل علماء الفرقة المحقة سلفًا وخلفًا غير مخرج الإمامة من الأصول، مغفور لهم، مرفوع عند الله عملهم، ضوعفت لهم الحسنات وغفرت لهم السيئات، لتمسكهم بذيل متابعة السادة الهداة عليهم أفضل التسليمات، وكفى بالله شهيدًا. والتعبير عن كلام بعض من تقدم بلفظ مخالف للأدب من باب التكليف الشرعي، ردعًا للأوهام عن متابعة ما وقع فيه الاشتباه في الأحكام، ومثله بل أشد منه موجود في نسخة كتاب (شرح الاعتقادات) للمفيد بالنسبة إلى شيخه الصدوق، وهي موجودة إلى الآن، وفي كتاب السرائر بالنسبة إلى جده شيخ الطائفة، وفي كتب العلامة الحلي بالنسبة إلى ابن إدريس، وفي كتاب الشيخ إبراهيم بن شيخ سليمان القطيفي بالنسبة إلى المحقق الكركي في رد الخراجية، وفي رسالة الشيخ علي الصغير بالنسبة الفاضل الخراساني، وغيره. فما جوز التشديد في التعبير عن التنكير لمن تقدم فهو المجوّز لمن تأخر. أما ثناء الأمر على المشافهة مع توقفها على نفسها فليس من اللوازم الشرعية العقلية ولا الشرعية، وإلا لما كانت تتم حجة النبي

المختار ﷺ على كسرى وقيصر لعدم دعوته إياهما مشافهة، والكلام معهما شفاهًا، بل اقتصر عليهم بإرسال المكتوب. وجواب المسائل من الحسين عليه السلام لأهل البصرة، ومن الصادق عليه السلام إلى النجاشي والي الأهواز، ومن علي الهادي عليه السلام لأهل الأهواز، ورسائل العلماء كالسيد المرتضى ومن تأخر عنه كانت معروفة، فكيف يسوغ الاعتذار بالمشافهة، ولو كان جناب السيد تعني لجواب تلك الرسالة في تلك الأيام، لكان يتحقق المسألة بين كتابه ومواجهته، ويرتفع الخلاف الناشئ من اختلاف الفهمين، وما كان يؤل الأمر إلى هذا الافتراق الشديد والعناد البعيد، ولما حصل المجال للمتملقين للإفساد بين الطرفين، والمرجو لجواب الشافي محط النصيحة، لا يرتاب المغالبة والفضيحة، وإني ما دخلت من باب العناد بل من باب المؤالفة والاتحاد، وهذا واجب عينًا عليكم لا ميسر لغيركم، والباقي ظلكم ظليل...

ثم ختمها بأبيات شعر بالفارسية.

بعد شهرين، أي في ليلة الأحد التاسع من شهر ربيع الثاني سنة (1228هـ)، وصل جواب السيد علي، بيد محمد حسين الأصفهاني، وصورة المكتوب بلا زيادة ولا نقيصة هو:

سلام الله تعالى الأسنى، وتحياته المباركة الحسنى، نهدي ونتحف إلى طالب الحق والهدى، ومجتنب الباطل والردى، سلام لا مد له ولا منتهى.. إنه قد بلغناكم المكتوب المرسول إلى الداعي من طرفكم، مشعرًا بسلامتكم وإرشادكم لطالب الحق إلى ما أنتم عليه، مشتملًا على جملة من الأدلة التي قصر الفهم عن دركها وكيفية ربطها، وكلما أردنا الربط ما أمكننا، ولذا التمست منكم الجواب شفاهًا بعد ما ألزمتكم بشيء يبطل ما أنتم

عليه، فلم تجرو لنا جوابًا، وأصررنا في طلب الجواب مرارًا فلم يمكنكم جوابًا، إلى أن طلبتم من الداعي المهلة في ذلك، فأجبتكم إلى ذلك اشتراطًا عليكم الجواب مشافهة، وصدر الاكتفاء بالرسالة والمكاتبة، وقد جعلت الشاهد عليكم في ذلك الله سبحانه وجملة الملائكة، وذكرت لكم الإباء عن ملاحظة الجواب إذا كان بالمكاتبة والمراسلة فلم توفي بالعهد والوعد، وخالفتموه، حيث لم تواجهوني بل تراسلوني وتذكرون كثيرًا من الرسائل في هذا الباب، ولا ينفعني ذلك ولو كان ألف كتاب. وإذا لم ألاحظها لكنت معذورًا عند الله تعالى ولا عذر لكم، والله ورسوله وأوليائه عليه السلام عليكم شهود على صدق ما أقول من عدم فهمي ارتباط كلماتكم بعضها البعض، فلعله وعسى بالمواجهة تربطونها وتتموا الحجة علينا. وأما طلبكم لكتابنا الشرح الكبير فإني في عجب من ذلك لابتنائه بزعمكم على أصول مبتدعة مخالفة للشريعة، فما ينفعكم بل يضركم لو أخذتم به وعملتم عليه، ومع ذلك فهناك نسخ كثيرة عند جناب السيدين السندين الفاضلين السيد رضا وولده وغيرهما من المخاديم والفضلاء الكرام، ذوي العز والاحترام، والسلام خير ختام.

كنت أراقب الميرزا وهو جالس عند نافذة البيت، وبقربه مصباح يلقي بضوئه على الرسالة، يقرأها باهتمام وتمعن، أبقيت نظراتي موجهة عليه، محاولًا قراءة التعبيرات التي تتجلى عليه. انتظرت أن يكشف لي عن الرسالة، وعما يدور في عقله وقلبه، ريثما ينهي القراءة.

لم أستطع إلا أن ألاحظ كيف علت وجهه ابتسامة لم يستطع إخفاءها، تحمل طابع الاستغراب والاستهجان.

ابتسمت لابتسامته، ومن باب الفضول سألت:

- أراك تبتسم، هل هناك شيء ما في تلك الرسالة؟

فأجابني الميرزا محمد بذكر التفاصيل عن الفروقات بين جوابه وجواب المير علي، كمن ينقح النصوص ويجتهد في إيجاد الحقيقة، والرسالة ما زالت بين يديه، قائلًا:

- يقول السيد الطباطبائي: (إنه قد بلغناكم المكتوب المرسول إلى الداعي من طرفكم.. إلى قوله ربطها). مع أن: (بلغنا) فعل ماض، وضمير المتكلم مع الغير مفعوله، وكم ضمير الجمع المذكر، والمخاطب لا ربط له لفظًا ولا معنى بالكلام، والمكتوب فاعل الفعل، فهل عند الناظرين حيلة في تصحيح هذه العبارة، وتقويم هذه الإشارة؟

(وإنه قصر فهمه من درك رسالتنا وكيفية ربطها)، فليس من وجود فهم المطالب الكلامية ولا من فقد ربطها كما هو بين لدى المربوط بعلم الكلام، بل إنما هو الجهل بالعلوم العقلية والمعالم اليقينية فلا ذنب لنا في ذلك.

ويقول: (وكلما أردنا الربط ما أمكننا)، أقول: عدم إمكانه لعدم الاطلاع بالفن، على نحت القوافي من مقاطعها.

ويقول: (لذا التمست منكم الجواب شفاهًا) قلت: الجاهل بقواعد المعقول لا يتيسر له فهم المسائل الكلامية شفاهًا أم مكاتبة، إلا بعد تحصيل العلم بتلك القواعد، فلو كان معتقدًا لوجوبه لسعى في تحصيله.

ويقول: (بعدما ألزمناكم... فلن تجروا لنا جوابًا) قلت: قد مضى في المكتوب الثاني الشيء الذي كان ألزمني به، بزعمه مع جوابه الواقعي الكافي الشافي هناك، وفي تلك الأيام مع رسالة مفصلة في ذلك، مع أني قد التمست منه تكرار الاعتراض حتى

يتبين عجزي وإفحامي مرة بعد أخرى، ولم يبق لي عذر عند الفضلاء، وإنما الكاذب لا حافظة له، حاشاه عن الكذب. ويقول: (وأصررنا في طلب الجواب إصرارًا) قلت: جناب السيد صادق وحاشاه عن الكذب، حتى أنه تعالى قال: ﴿لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، إذ كان بعث الجواب التفصيلي صبيحة الغد من عصر يوم المباحثة، فمتى كان الإصرار، مع علمي بعدم وقوع هذا الإصرار والاعتذار.

ويقول: (فلم يمكنكم جوابًا)، قلت: (لم يمكنكم)، فعل متعد بنفي الجحد، وضمير الجمع المذكر المخاطب مفعوله، فليت شعري ما كان سبب نصب (جوابًا) وهو الفاعل للفعل المذكور، فما سمع فاعل منصوبًا حتى رئي المفعول مرفوعًا، ولعمري كان لفظه في قوله: (قد بلغناكم)، وحشيًا، فجاء الفاعل المنصوب له، لذا قال عليه السلام نحن قوم فصحاء فأعربوا كلامنا، أي افهموه على قواعد العربية، فمن لم يعرف العربية كيف يمكنه فهم الكتاب والسنة، ويجوز له ادعاء رياسة العامة، والرياسة العامة والنيابة المهدوية.

ويقول: (إلى أن طلبتم من الداعي المهلة في ذلك)، قلت: طلب المهلة غروب ذلك اليوم إلى الصبح للجواب التفصيلي المذكور فيه كلام المحقق الطوسي والشيخ المجلسي ونظرائهما، لحسم مادة النزاع مع بحث الوجوب التفصيلي من جميعه ذلك العصر بلا تفريق أي شيء كان فيه من النقص الشرعي والعقل الصرفي، وإنما كان سؤاله في خصوص قبول شهادة الشاهدين، والصلاة على جنائز المسلمين مع عدم الكشف عن صورة الأموات، مع الجواب الإجمالي الشفاهي من السيرة المعلومة المقطوعة بالضرورة من زمانه ﷺ إلى زماننا

مثل سائر السير الإسلامية الضرورية، وكون الأمرين من أسباب تحقيق الموضوع للحكم القطعي المنصوص، لا باعتبار الوضعية الظنية بل باعتبار السببية الشرعية.

ويقول: (مشترطًا عليكم إلى قوله... والمكاتبة)، قلت: ليت شعري، هذا الشرط مع فرض تحققه، هل هو شرط عقلي أو شرعي يعذر صاحبه عند الله تعالى وعند الأمناء عليهم السلام في الآخرة وعند العقلاء في الدنيا، ولو كانت المشافهة شرطًا في إثبات الحق لكان النبي ﷺ محجوجًا لكسرى وقيصر والمقوقس وسائر المكلفين النائين لعدم مشافهته لهم.

ويقول: (وقد جعلت الشاهد عليكم في ذلك الله سبحانه والملائكة)، قلت: حاشاه جناب السيد عن الكذب والله الشاهد وملائكته براء من الكاذبين حيث نطق التنزيل: ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ويقول: (وذكرت لكم الإباء عن ملاحظة الجواب إلى قوله والمراسلة)، قلت، مع فرض الوقوع إنما كان الإباء خلاف العقل والشرع، مقالات المكاتبة والمراسلة من أفراد الجواب المسلّم عند أهل المعقول والمنقول معًا لكثرة ما جرى بين الحكماء والعلماء من المكاتبات والمراسلات في المسائل العلمية بل بين الحجج المعصومين عليهم السلام وبين المعاندين والجاحدين.

ويقول: (فلم توفوا بالعهد إلى قوله... تراسلوني) قلت: قد بقيت في مشهد الطفوف سنتين متواليتين بعد مكالمة السيد، وبعثت الرسالة من الغد إليه، وقد تشرفت قبل هذه الأيام لسنتين وتوقفت أيامًا هناك، وأما المراجعة فالسُنّة أن القادم يزار، فلما تركت السُنّة تركنا ما لم يكن بسُنّة، والتزام ما ليس بلازم ليس بلازم، فلو التزم السيد شيئًا على خلاف العقل والشرع لم يلزمنا

التزامه، نعم لو زارنا لزرناه، ولو شرفنا لتشرفنا بخدمته، وهذه الخيالات لا تنهض حجة في العرصات.

ويقول: (وتذكرون بكثير من الرسائل في هذا الباب ولا ينفعني ذلك ولو كان ألف كتاب)، قلت: ما أشبه هذا الكلام بكلام من لا أبوح باسمه، حكمة بالغة فما تغني النذر، مع أني ما حولتكم على ألف كتاب ولا صعب الخطاب، بل بعث إليكم المكتوب بعدما سمعت أنكم تمدحون أنفسكم بالالتزام وتنسبون هذا الضعيف إلى الإفحام، فسألت منكم بيان المسألة المسؤولة بزعمكم على سبيل الاعتراض مرة ثانية، حتى لو كنت ناسيًا أو غافلًا، لتذكرت وقدمت عليكم للجواب، بينوا لنا أي شيء كان لنا اعتراضكم به عليّ وهجري عنه، حتى أتشرف بخدمتكم، وأبين لكم مشافهة أن كنت عالمًا أو أتعلم منكم أن كنت جاهلًا، ويثبت صدقكم عند المطلعين وكذبي وجهلي عند المحصلين، وإذا لم ألاحظها لكنت معذورًا.

ويقول: (لا عذر لكم)، قلت: هذا واضح لأن بائكم تجر وبائنا لا تجر. ثم قوله: (فلم يجروا لنا جوابًا)، والصحيح بالحاء المهملة، وفي خطكم الشريف بالجيم المنقوطة.

ويقول: (والله ورسوله وأوليائه عليهم السلام) فيه غلط آخر، والصحيح وأولياؤه، فإن الهمزة المرفوعة تكتب بالواو لا بالياء، وهذا هو الغلط الرابع على حسب القواعد العربية. والغلط الخامس قوله: (ارتباط بعضها لبعض)، بلام الجر، والصحيح بالباء الجارة، بأن يقول: وارتباط بعضها ببعض. ثم إني أصدقه فيما نسب إلى نفسه من عدم الفهم، لأن تلك مسائل كلامية عقلية غير منسوجة على خيالات خطابية لا يعرفها إلا ماهر بالعقول ريّض في رياض العقول.

ويقول: (وأما طلبكم لكتابنا إلى قوله... لابتنائه بزعمكم)، قلت: لسنا نزعمه [...] حتى يكون على فصول مروية أو مبتدعة وإنما هذا سوء ظن بل افتراء تحرض وتخمين، وإنما اعتقادي أن ذلك الكتاب مختصر الحدائق وشرح اللمعة والمهذب والتنقيح. ومخاديم هذا البلد لا يعطونني كتابكم بغير إذنكم، فاكتبوا مكتوبًا إليهم في جوف جوابي حتى أطالبهم بتمسك مكتوبكم، وعند الله يجتمع الخصوم وسيعلم غدًا من الكذاب الأشر والسلام.

في اليوم الثاني عشر من ربيع الثاني من سنة (1228هـ)، أي بعد ثلاثة أيام من وصول الرسالة من السيد علي، كتب الميرزا رسالة وبعثها إليه. قال فيها:

خير تحية وتكريم، وأسنى ثناء وتعظيم، يهدى إلى حضرة الملاذ الأفخم لازال كاسمه الشريف عليًا وللوالي وليًا وبعد، فيا مولانا قد تكرر من جنابكم إظهار جهلي لمسألتكم، وقد قال سيد الشهداء في دعاء عرفة: (إلهي أنا جهول في علمي فكيف لا أكون جهول في جهلي)، وذلك لأن الجهل ليس منفكًا عن الممكن وعلمه مستفاد له من غيره، وإنما المرجو منكم أن تبينوا لنا أي شيء كان سؤالكم غير ما ذكرناه، الذي هو مقربة عند الله معذورين بعد ذلك السؤال، وانقطع عنه ما عند العزيز المتعال، فإن كان سؤالكم هو أمر قبول الشهادة والصلاة على الجنازة وإلزام العمل بالظن في المقامين كما هو في بالي، فقد أجبناكم مرة بعد أخرى أنه ليس إلا المناط في الأمرين حصول المظنة بل بقيد من الشارع وتعليق بالوصف، وإن كان غير ذلك فالتكرار أولى لظهور حجتكم وظهور عجزي، ثم إن كان يكره لنا جواب، نصل إلى خدمتكم ونبين لكم، وإن لم يكن عندنا

جواب نتعلم منكم، فلسنا نستنكف من التعلم فمن كان عنده علم يجب تحصيله إذ ليست لنا رئاسة تفسد بظهور الجهل.

ثم من المعلوم من مذهب أهل التحقيق أن تأخير الإجابة عن وقت الحاجة لا يجوز إذا انحصر جواب الشبهة في أحد، والحقير ما مبال منكم مسألة الأسرار وعلم الكيمياء حتى يكون الجواب موقوفًا على المشافهة والنجوى، وإنما هي مسألة أصولية أنت جديلها المحنك، وهل يسوغ لعالم رئيس أن يخيب السائل بأنك شرطت على نفسك أن لا تجيب إلا مشافهة، وهل هذا شرط عقلي أم شرعي؟ كيف يقطع به العذر عند الله تعالى، ثم هذه المسألة ليست من باب جواب مسألتكم التي تقولون لشرطية المشافهة فيها، هذه مسالة التباين الكلي بين الثابت الذي هو الحكم الختمي الإسلامي وبين المتغير الذي هو الحكم الاجتهادي، وقد تقرر عند ذوي العقول أن التعبد بأحد المتباينين لا تعبد بآخر، فإن كنا مكلفين بما جاء به النبي ﷺ وسماه الله إسلامًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ فكيف يمكن فرض التعبد بمباينة، إلا أن يثبت عجز القادر المكلف العزيز الحكيم عن إزاحة العلة من المكلفين بحفظ بيانه، نعوذ بالله من هذه العقيدة، وإن لم نكن مكلفين بالإسلام بل إنما كلفنا بما يباينه، فأين دليل هذا التكليف المباين لشريعة الإسلام؟ وهذه صورة القياس لميزاني الحكم الاجتهادي متغير بتغير ظن المجتهدين بلا خلاف بالضرورة، ولا شيء من الحكم المحمدي الختمي الإسلامي بمتغير بعد إكمال الدين بضرورة الإسلام، ينتج أن لا شيء من الحكم الاجتهادي المتغير بتغير ظن المجتهد بحكم محمد ختمي إسلامي، فنسبة الارتباط في السؤال كما حررتموه في الجواب

غير المكتوب غير معلومة، والمرجو بيان الارتباط هو بفساد الصغرى أو فساد الكبرى أو فساد الملازمة، وما سبب الفساد، هل الغي في القضية شرط معتبر في الاحتياج؟، بينوا تؤجروا، فنسبة فساد الارتباط بلا بيان نوع من فساد الارتباط أيضًا، وإنما كان في مكتوبكم الأول نسبة الاشتباه إلى الحقير، ولذا الحقير كتب إليكم القضية التي هي شبهة بزعمكم حتى ترفعوها وتجيبوا عنها، فاعتذرتم باشتراط المشافهة التي لا دخل لها في المسألات، بحيث لا يكون الأمر متحصل فيها، وإنما هي من باب الإلزام بما يلزم، وعذر الحرمان عن حضور ذلك المشهد الشريف من سنتين هو بعينه عذر جنابكم في الحرمان من زيارة مشهد الكاظمين عليهما السلام والعسكريين على مشرفيها أفضل السلام.

ولو كنا نسيء الظن بجنابكم لما طلبنا منكم الشرح، فلما ظننتم به فلا عذر لكم، وإنما كان المقصود تحصيل نسخة صحيحة، وإلا فالنسخ المغلوطة لا اعتماد عليها، والحقير منتظر أن تكتبوا له ما كانت مسألتكم التي تمت بها حجتكم عند الله تعالى ولم يبق لي بعد ذلك عذر، حتى أتشرف بخدمتكم مع الجواب أن كان، وإلا أتعلم منكم، مولانا أنت بمنزلة الأخ الأكبر، بل العم الشفيق، لا معنى للظفرة والمنابلة في الجواب، والله وأمناؤه عليهم السلام شهداء وكفى بالله شهيدًا، لأنه لا غرض إلا استكشاف الحق ودفع الاشتباه من البين، بغير إزراء على أحد وإظهار فضل، وكان ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، والسلام خير ختام.

بقي السيد الميرزا ينتظر الجواب، ولم يصل جواب السيد علي إلى الآن. فبعث الميرزا محمد مكتوبًا إلى الواسطة بينهما، في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من

سنة (1228هـ)، وطلب منه أن يبلغ السيد بأن تأخيره البيان عن وقت الحاجة غير جائز، وهو كذلك عند المتقين أيضًا.

فما أجاب ولا نطق بزور ولا صواب، وهذه الرسالة تذكرة وذكرى لأولي الألباب.

ثم بعث إلى جنابه ثانيًا مكتوبًا بصحبة الحاج محمد علي بن الحاج درويش الكفشان، ثم ثالثًا بصحبة الميرزا أحمد السبزواري، فجاء الجواب بصحبة السيد حسين، فشرحه الميرزا، وبعث إليه جوابه.

ثم كتب مكتوبًا في الثالث والعشرين من رجب سنة (1228هـ)، ورد السيد الجواب في السادس عشر من شعبان، بخطه على الهامش؛ فأجاب عنه الميرزا. وبعث به بصحبة الحاج محمد علي بن الحاج درويش الكفشان، رسالة مطولة بأكثر من ثمان صفحات، وهي عن الإجماع، وتغير الحكم وتغير الموضوع، وجملة من المواضيع الفقهية والأصولية. وذكر فيه الميرزا:

قد وصل جوابكم أمس وقت الضحى، واليوم هو الثامن عشر من شعبان يوم الاثنين، كتبنا الجواب قبل الضحى، والمرجو الجواب التفصيلي من غير غيظ وطيش، فإن المسألة دينية والحاجة إليها ماسة، وأنتم رأس الفضلاء، ولا يجوز للمتدين المسامحة في الدين، والذي تدعونه بديهيًا، خلافه عندنا بديهي، فالمقصر هو الذي ينكر ما ثبت عنده بديهة، أو ما ثبت خلافه عنده بديهة، بينوا تؤجروا والسلام خير ختام.

ثم بعث كتابًا في جواب مكتوب من الميرزا محمد تقي الكرماني في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (1228هـ)، وكلاهما بالفارسية، وجاء في ختام الجواب: من العبد محمد

بن عبد النبي الإمامي الاثني عشري التابع لكتاب الله المحكم وسنة سيد الأمم ومحجة الأئمة المعصومين (سلام الله عليه وعليهِم أجمعين) من مشهد مقابر قريش إلى مشهد كربلاء يصل إلى قرة العين الميرزا محمد تقي الكرماني، أوصلها إلى حضرة السيد السند الذي أغرى علينا العباد والبلاد، بلا ذنب شرعي ولا قبح عقلي، إلا ترك التقليد لا عن دليل، فلعله وفقه الله تعالى لكل خير يخاف ربه ويحذر الآخرة وهو أهل لذلك، وإذا كف عن ظلمنا باللسان؛ وبين الدليل والبرهان، فنحن له من المخلصين كما كان، والحمد لله على كل حال، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وفي هذه السنة، في يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان ولد حفيده الثاني (الميرزا عبد الصانع بن الميرزا أحمد).



وفي هذه السنة كتب: (واضح التّبيان للائح البرهان)، برز للولد الروحاني الفاضل الفاهم مُحمد كاظم لازال كاسمه محمدًا كاظمًا، ولمعالم الحق فاهمًا، نفع الله تعالى به سائر المسترشدين إلى حق اليقين، فالله المستعان وعليهِ التكلان. . . فرغ من هذه الرسالة عصر الأربعاء من شهر صفر من سنة (1228هـ).

وكتاب (ضياء المتقين في معارف الدين) كتبه قبولًا لالتماس أسئلة تلميذه أحمد بن زين العابدين بن محمد شفيع الجويني، عن مراتب الإدراك، ومعرفة أركان التكليف، وجهات اختلاف الحكم الواقعي مع وحدته في الواقع، وعن إزاحة شبهة المبطلين في لا حصول العلم من الأحاديث، وعن شروط الرواية في مختار أهل العلم من المحدّثين، وعن الأدلة

الموصلة إلى المجهول التّصديقي بحسب التفصيل، وعن إزاحة الشبهة عن الحديث والفرق بينه وبين الخبر، وعن بيان تخالف عمل الفقهاء ومدلول الكتاب والسنة والتقصي عن اختلاف الأحاديث. فرغ منه غروب يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب الأصب (1228 هـ).

وكتاب: (حرز الجواد وذخر المرتاد)، رسالة في ملخص الفرق بين أهل العلم وأمة الاجتهاد؛ ألفها لتلميذه السيد محمد جواد ابن ـ خاتم الفضلاء المحدّثين ـ السيد محمد الزّينيّ بن السيد أحمد العطار الحسيني البغدادي. وتمت في آخر ربيع الثاني من سنة (1228هـ). وهو في الرد على الأصوليّين.

وفرغ من كتابه: (الدَّمدمة الكبرى في الرَّد على الزندقة الصغرى)، بالفارسية، في نقض معلوليَّة صفات الله تعالى، رد فيه على الشيخ جعفر كاشف الغطاء، حيث جعل صفات الله تعالى الثبوتية القدسية معلولات للذات. فرغ منه يوم الأربعاء الثاني من جمادى الثانية (1228هـ) بمقابر قريش من أرض بغداد.

وكتب أيضًا رسالة في الحكمة (لمح البصر)، أتمها في يوم الأحد السادس عشر من شهر رمضان (1228) بمقابر قريش.



في هذه السنة أيضًا كانت لنا رحلة سريعة إلى طهران، لم تكن هناك حقائب ثقيلة، أو ترتيبات طويلة، فقط بعض الملابس والطعام، لقصر المدة التي سوف نقضيها.

وصلنا إلى طهران، وما أن نفضنا غبار السفر حتى قام السيد الميرزا بإكمال بعض المتعلقات في طهران، وفي بعض الأيام يذهب منفردًا ولا يأخذني معه.

في اليوم التالي عزم السيد على الذهاب إلى قصر الملك فتح علي شاه القاجاري، استقبلنا بابتسامة ودّية تتلألأ بالترحيب والدفء.. جرت بينهما ضحكات ومحادثات ودية أسهمت في إشراق الأجواء. اللقاء مثل رقصة جميلة، حيث تلامست الأرواح بلطف وتواصلت بروح الفهم والتقبل.

أبدى الملك رغبة صادقة في أن يبقى السيد الميرزا في طهران، وبين له: أن وجودكم هو شرف للبلاد والعباد، ففضلكم عليها سابق.. والمحروم من حرم من بركاتكم ودعائكم..

أبدى السيد الميرزا امتنانه العميق للملك، واعتذر منه بلطف، مبينًا له أن مجيئه هنا لإنجاز بعض الالتزامات المعلقة، كما أن عائلته لم تأت معه بل بقيت في بغداد. تفهم الملك رغبة الميرزا.

أثناء إقامتنا في طهران، وصلنا خبر وفاة الشيخ جعفر كاشف الغطاء، في يوم الأربعاء قبل الظهر في أواخر شهر رجب (1228هـ/ 1813م). وأوصى بنيه الثمانية بعد أن جمعهم بوصايا كثيرة، جاء ضمنها: وقد خلفت عليكم من يرعاكم بعد خالقكم ولدي الطاهر المطهر موسى بن جعفر، فاسمعوا له وأطيعوا، ولا تخالفوا له قولًا ولا تعصوا له أمرًا، وخوضوا دونه الحتوف، وعانقوا لأجله السيوف، فإنه خليفتي عليكم وأنا خليفة الله عليكم، وأنكم لن تزالوا بخير وعلى خير ما أطعتموه واتبعتموه.

ولا غرابة في ذلك، فقد كان الشيخ جعفر حينما يسأل من أفقه الناس؟ يقول: أنا وولدي موسى والشهيد الأول.

بعد الانتهاء من العزاء، تم الإجماع على تقديم الشيخ موسى بأنه أولى بالأمر، وصاروا يكاتبون بذلك الأمصار والبلدان، ويأمرون الناس بالطاعة له والإذعان.

وأرسل الشيخ موسى رسالة إلى الملك فتح علي شاه القاجاري للتعزية، ولا أعرف من المفروض أن يعزي الآخر.. والرسالة هي:

(إن غاية ما لهجت به ألسن الصحف والرسائل، ونهاية ما تبجحت به خواطر أرباب الوسائل، وأبهى ما ترقمه الأقلام بعنوان المعاني، وأشهى ما يترجمه لسان الإملاء عن المعاني، وأصدق ما حدثت به رواة آثار التسليمات السليمة، وأوثق ما أعربت عنه دفاتر التحيات المستقيمة، مقبول فقرات لا تمجها الأسماع، ومدلول عبارات لا تنبو منها الطباع، وبليغ كلام تستنير نجوم الدعاء في سماء بلاغته، وبديع سلام تستبين أنوار الثناء من مصباح براعته، يسعد ذلك بالتوجه إلى حضرة الماجد الذائد، عن بيت ذمار الشرف بلسانه وسنانه، وهاتك أستار العلم بثاقب بنان فكره وبيانه، الذي تسامت أبكار مكارمه على عود المكارم وأبكارها، وتعاظمت عظائم فواضله في عيون الأعاظم وكبارها، المتفرد بغزارة علمه، وسعة حلمه، وكمال زهده، وورعه ورشده، وجلال منزلته، وجمال سيرته، وطاعة أوامره، وامتثال زواجره، شعرًا:

وتغنيك عن مدحي شواهد فضله
وعن ذكره آثار فضل له تهدى

المولى الأعظم، والعماد الأقوام، لا زالت طلائع الإقبال عليه مقبله، ومحاسن الأيام بوجوده متصلة، بمحمد ﷺ الأمين، وآله الميامين.

أما بعد، فإنا نحمد الله الأحد، الذي تقصر الأوهام عن تصور ذاته الصمد، الذي تعجز الأفهام دون تحديد صفاته، حمد متظلل لعظمته، مفتقر إلى رحمته، ونشكره شكر مفوّض

إليه أمره، مخلص له علانيته وسره، على ما أبلانا وإياكم بحسن بلائه، ومحتوم قضائه، وتثني عليه بما أصابنا من دهشة هذه الداهية، التي أصمت كل أذن واعية، وبغتة هذه الرزية التي هانت لديها كل بلية، فإنها التي تهزم مواكب الصبر، وتعلم جوانب الصدر، (وتلك وبيت الله قاصمة الظهر)، فتبًا للدهر غادرنا فغادر منازل العلم موحشات وأجياده عواطل، ورمانا بسهم أرزائه فلم يخط المقاتل، وأدمى بوفاة حجة الله جرحًا لا تلتحم فطوره، وأمات بموته قلبًا لا يرجى نشوره، فيا لها من رزية أوجبت على كل منتم للدين أن يبكيه، بدموع ساجمة، ويرثيه بنفس واجمة، وشوهًا لها من قارعة فتحت للأحزان بابًا، وضربت دون السلوان حجابًا، وعمت وخصت، فلذا كان جناب (الملك) المؤيد جديرًا بالتعزية، وحقيقًا بالتسلية، حيث أنه في هذا المصاب، من المتميزين بشدة الوجد والاكتئاب، لشدة اهتمامه بأمر الدين، وإخلاصه لأركان شريعة سيد المرسلين، فأحسن الله له العزاء، وإن عز في هذا الخطب مطلبه، وألهمه الصبر، وإن انقطع في هذا الرزء سببه.

وحضرة (الملك) أولى من ينبذ الجزع وراء ظهره، ويعتصم بعروة صبره، ويستلزم المحتوم قضاء الله وأمره، لأنه الخبير بأن الإنسان وإن تناهى بالوجد فمفزعه إلى الاستسلام والانقياد إلى ما تجري به حوادث الأيام، وإن الجزع لا يعقب رشدًا، ولا يكسب حمدًا، لما أودعه الله من العلم المبين، والرأي المتين، ومعرفة مجاري الأقدار، واختلاف أحوال الليل والنهار، رزقنا الله وإياكم لله الشكر، ووفانا نصيبنا وإياكم من جميل الصبر.

هذا والله تعالى تطول وتفضل على مقتضى عادة إحسانه وامتنانه وأبى تعالى إلا أن يسبغ علي نعمه، ولا يسلبني رحمته وكرمه،

فقضى على تلك المحن أن تهدأ شقاشقها، وتفتر صواعقها، وتخمد نيرانها، وتنهد أركانها، فهيهات أن يفلّ (العدو) جانب صبري بغيلته، أو يذل عزة نفسي بحيلته، أو تزعزعني رياح سبابه وإن كانت قاصفة، أو تفزعني بروق شماتته وإن كانت خاطفة، أو ينفر سرب عزمي بأيده، أو ينغص علي عيشي بكيده، ولا والله لا أزال عن مقام التثبت إن حال أمر، أو أزول عن مقام التجلد إذا غال دهر، كل ذلك بإقبال سعود من أن مس العود أوراق ذابلة، وإن لحظ النجم طلع أفله، قطبه دائرة الجلال، وسمط قلادة الكمال، من لو تجسم العقل لقبّل قدمه، ولو تكلم الفلك لمدح قلمه، المنشور عدله، المشهور فضله، معزّ الدين، وأمان المسلمين، الشاهنشاه، المؤيد بالنصر فتح علي شاه:

ملك عنت صيد الملوك لبأسه
وشأى به (كسرى) مفاخر (قيصرِ)
ملك الرعايا والملوك بعزمه
تنحط عنها عزمة (الإسكندر)
ولدت به أم المهابة أوحدًا
متضمنًا معنى العديد الأكثرِ
فإذا وطأت جنابه قدسته
فكأنما تمشي به في مشعرِ
وأغر أروع ملء سمع المنتقى
حر الكلام وملء عين المبصرِ
صف ما تشا منه سوى عزماته
فهناك جذورة مارج متسعرِ
تعدى علاه دياره فلها به
في مرتقى (زحل) جمال (المشتري)

لا زال مؤيدًا منصورًا، وعدوه مدى الأبد مقهورًا، ولا برح ناكبًا عن الدنيا غرورها، ومائلًا إلى تحصيل الفوز بنعيم الآخرة وقصورها، باذلًا فيما عند الله رغبته، عاقلًا على طلب الخيرات همته، ناشرًا ثوب العدل والإيمان في الرعية، سائرًا في الملك بسيرة أولياء الله المرضية، عالمًا أن الدنيا وإن امتد حبلها فهي فانية، وأن الآخرة وإن بعد أجلها فهي آتية، بصيرًا بأعقاب الأمور، خبيرًا بمال الدهور، فلا تغرنه زهرة الحياة الدنيا، علمًا منه أن وراءه موقفًا للسؤال، عن جوابه الفصيح يعيا، فصار من يحاسب نفسه كل يوم بنفسه، قبل نزول رمسه، ويفكر في عاقبة أمره، قبل حلول قبره، فاعتبروا يا أولي الأبصار، قبل أن يعز عليكم الاعتبار، ولا تقارفوا الظلم فيما ملكت أيديكم من الإثم، فإنها والله الذنوب التي تغير النعم، وترفعوا القسم، وجانبوا الشقاء، ومجالسة الأشقياء، وتشييد أمر (السحرة) أولي الافتراء، فتلك والله الذنوب التي تحبس غيث السماء، وترد الدعاء، واعتصموا بحبل من الله وعظموا أولياءه، ولا تتبعوا خطوات الشيطان وحزبه الغاوين الرافعين لواءه، عصمنا الله وإياكم من ذلك، وأعاننا على التحرز من الوقوع بتلك المهالك.
ولا أدري إلى أين انتهى بالمحدث النيشابوري الأمر، وفي أي أصقاع الأرض قد استقر، فقد بلغتنا عنه حكايات وهنات، والله ولي الغيب في الأرض والسماوات. ولكني بحمد الله وسلامة (الملك) لا يزعجني تنمر كاشح، ولا يجرح جانب شرفي قدح قادح، لما عليه جناب (الشاه) من فرط قديم الشفقة، وكمال سابق المودة والمحبة، نسأل الله أن يقرن ذلك بدوام الدولة وتمام النعمة، وأن يجعل دعائم الدين محروسة بنظره، ومعالم الدنيا مسوسة بجميل خطره، والسلام).

فأجابه الشاه بكتاب يقول فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الملك العليم، مالك الملوك، علام الغيوب، لا يقبض ملك إلا بسلطانه، ولا يبسط علم إلا ببرهانه، والسلام بكماله، على محمد ﷺ وآله، وخلفائهم القائمين مقامهم، سيما مالك ملوك الولاية والوصاية، وعالم علوم البداية والنهاية، (شيخنا) المنتقل إلى رحمة ربه، المشتاق إلى جواره وقربه.

وبعد: فقد أتى أيها الشيخ الجليل، والحبر النبيل، (متع الله المسلمين ببقائك، وشرفنا بلقائك)، منك كتاب كاشف حجاب الارتياب، عن وجوه الألباب، حاويًا جملة من الحكم والآداب، وأتيت بما لديك، وأديت ما عليك من المواعظ والنصيحة، عن أخبار صحيحة بآثار صريحة، وعلى الله أن يوفيك أجرًا جميلًا، ويزيدك فضلًا جزيلًا، ونحن نرجو من الله المستعان أن يوفقنا لطاعته، وقضاء ما يجب علينا من العمل بتلك النصائح والحكم ويقربنا إلى ما يحبه، ويبعدنا مما يبغضه، ويعصمنا من الذنوب، ويحفظنا من الخطوب، ويغيّر ما تغيّر النعم، ويرفع ما ترفع القسم، ويقطع ما يقطع الرجاء، ويرد ما ترد الدعاء، ويحبس ما تحبس غيث السماء، وينصرنا من السماء بنصرته، ويُمكننا في الأرض بقوته، ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، ونرجوه أن يبقيك منارًا للدين، وخلفًا للماضين، ويحيي بك كما أحيا بأبيك شريعة سيد المرسلين، ولك المنة علينا التي أصبحت علينا كالغوادي مفيضة، وأمطار النصح منها مستفيضة، تواترت منها ريح القدس، وانتشرت بها فوائح الأنس، ضربت بيدك ينابيع المطالب، حتى صارت لها ملاعب. وتاالله لقد شوقتنا إليك شوق ظمآن أشرف على الماء

إلى الورود، وشفيت غليلنا بإراقتك ريق الاغتذاء في كأس العقود.

وأما العلامة الخبير، والنحرير البصير، محقق الدقائق، مدقق الحقائق، الحاج ميرزا محمد (سلمه الله) فهو ذاك نستفيض منه، ونستعين به، عمن سواك.

وأما عنك، فإن كان فكاقتران الفرقدين، وإفادة الخبر الواحد غير الاثنين، والسلام).



بعد إنجاز ما أراد الميرزا إنجازه في طهران، عزم على الرجوع إلى بلدة الكاظمية في السنة نفسها. استقر بنا المنزل في مقابر قريش، وكان للسيد الميرزا مريدون من سائر الأقطار تأتي له منهم المراسلات في مسائل الحلال والحرام وغيرها. وكان لا يرضى أن يُفتي بغير ما هو منصوص. وبقي يجاهر بالدعوة إلى طريقة الأئمة عليهم السلام. وعلم القاصي والداني بغزارة علمه ومعارفه، جامع لجميع العلوم الجليّة والخفيّة، شاع اسمه في الأقطار، وذاع فضله في الأمصار بالعلوم الإليّة والكرامات الربانية، داعيًا إلى مذهبه بالدلائل الواضحة القاطعة، والبينات المشرقة الساطعة. ومال أكثر المقلدين إلى طريقة الأئمة المعصومين عليهم السلام، فأقيمت الجمعة والجماعات، وشاعت طريقة المحدثين وضعفت شوكة المجتهدين. وأصبح رئيسًا للمحدّثين والأخباريين، أعلم علماء زمانه، وأفضل فضلاء أيامه، وله يدٌ طولى في كثير من العلوم الظاهرية ولاسيّما في فن الحديث، والكثير من الفنون، فاق علماء عصره في أكثر العلوم.

لقد تسامى على الأقطار البعيدة، فتأتي إليه المراسلات كأنها رسائل من أرواح تتردد بين السماء والأرض. كانت هذه

الرسائل تحمل في طياتها مسائل الحلال والحرام، كأنها أوراق مقدسة يتم قراءتها بتأمل عميق.

كلما هم أحد السائلين بطلب فتوى أو استشارة، كانت قافلة من الكلمات تنطلق من السيد الميرزا، كأنما هي عبارات من السحر تتسلل إلى عقول السائلين، مرشدة إياهم في دروب الدين والأخلاق. هذه المراسلات تختلف في موضوعاتها، تأتي بألوان وأطياف متنوعة، لكنها جميعًا ترتبط بخيوط دقيقة من القدسية والتقوى.

يجلس السيد الميرزا مع مريديه، حيث تتداخل رائحة العود والكتب القديمة. ينظر إلى الأفق كمن ينظر إلى أبعد نقاط السماء، وفي عينيه يتسلل بريق من الحكمة. ردوده عبارة عن خيوط من الذهب الروحاني، يمزجها بحنان ورعاية، فتصل المراسلات إليه كمن يبحثون عن حقيقة خفية تحتاج إلى إلهامه لتظهر.

هذه المراسلات ترتسم على وجهه أحيانًا بابتسامة هادئة، وأحيانًا بجدية تعكس عمق الفهم والتفكير. حاكم الأرواح والقلوب في أقطاره، حامل الحكمة التي تتدفق كنهر لا ينضب، والذي يمثل نقطة الضوء في سماء العلم والدين.

تطايرت الأفكار من عقله كالفراشات، تحلق حول ضوء المصباح الذي يتقي به ظلام الليل، فيبدأ بتدوينها في كشكوله (تسلية القلوب الحزينة).



في أحد أيام شهر ذي الحجة من عام (1228 هـ) أيام الشتاء الباردة تلفح وجه الأرض ببرودتها، المدينة محتلة بالظلام ولا شيء يخترق الصمت الليلي، حل علينا ضيفًا الشيخ حسن بن

علي التوبلي البحراني، المعروف بالطبيب، وهو من الأصدقاء الأوفياء للسيد الميرزا، استقبله السيد بأحر استقبال، وعيونه تتألق ببهجة اللقاء. رحب السيد الميرزا به بابتسامة عريضة على وجهه.. الغرفة مليئة بأضواء المصابيح، تلقي أضواءها الخافتة على وجوههم، ورائحة الشاي الذي امتزجت مع رائحة الخبز الطازج الذي قدمته لهما.

جلسا معًا وتجاذبا أطراف الحديث، وكأنها تشير إلى أن هذا اللقاء ليس مجرد لقاء بين صديقين، بل هو لحظة خاصة تنبع من الود والاحترام المتبادل.

كل كلمة كانت تسافر بينهما كقصة خفية. شاركا تفاصيل يومهما وأحلامهما، واسترجعا ذكريات أيام قضياها معًا. بحديث ينساب كأنه نهر من الحكايات التي امتزجت بين السعادة والألم.

ومما دار بينهما من حديث وقد شد انتباهي، أنه قد جرت بين الشيخ حسن والشيخ الجليل الأوحد المتين أحمد بن زين الدين الأحسائي عن مسألة من المسائل، وهي في بيان التباين الكلي بين الحكم المنصوص المنزّل والحكم الاجتهادي.. وجوابه عنه.

بعد أن استمع الميرزا محمد للسؤال وجوابه، قال:

- إن الشيخ أحمد فقيه محدث عارف، وحيد في معرفة الأصول الدينية، له رسائل وثيقة، اجتمعنا معه في مشهد الحسين عليه السلام، ولا شك في ثقته وجلالته. إلا أن هذا الجواب منه لا يرتبط على ضوابط التحصيل ولم يقم عليه دليل..

أحد الحاضرين في المجلس قال:

- نلتمس منكم سيدنا أن تشرحوا لنا السؤال والجواب وبيان ما تحتهما من خطأ وصواب.

فأرسل الميرزا للشيخ الأحسائي رسالة، يستوضح فيها من الحكم الاجتهادي. وصورة ما بلّغه إلى الشيخ الأحسائي بيد الشيخ حسن بن علي التوبلي البحراني قال فيها:

الحكم الاجتهادي متغير بتغيير ظن المجتهد أبدًا، ولا شيء من الحكم المحمدي الختمي الإسلامي متغيير بتغيير ظن المجتهد أبدًا، فلا شيء من الحكم الاجتهادي بحكم محمدي ختمي اسمي أبدًا، لاستحالة اجتماع المتغير واللا متغير، وإذا ثبت التباين الكلي فكل متعبد بحكم اجتهادي متعبد بمتباين الحكم المحمدي الختمي الإسلامي، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

بينوا كيف الخلاص ولات حين مناص.

فجاء الجواب بخط الشيخ الأحسائي يقول فيه:

هذا شكل مشتمل على المغالطات، لأن المتغير فهم العالم الحكم من الدليل، وهو جارٍ في الأصولي والاختباري كما هو معلوم عند كل من له عقل ويعمل بمقتضى عقله، وكلا المفهومين حكم الله الإسلامي الختمي على من فهم لا مطلقًا وهو الواقعي التشريعي، وأما الواقعي الوجودي فالمدعى لإصابته على سبيل الحتم في غير الأمور الضرورية، والمجمع عليها مفتر على الله تعالى، إلا أن يكون معصومًا، وكيف يدعي غير المعصوم في موضع الخلاف القطع، ولا يزال يتجدد له فهم بعد فهم كما هو مشاهد عن الأخباريين، لا يشك فيه إلا جاهل بطريقة العلماء من الفريقين أو مباهت مكابر. نعم، يدعي القطع بالنسبة إلى ما فهم حتى لو أنه خالفه مثله، لم يحكم قطعًا بعدم إصابة ذلك الغير إلا في الأمور الضرورية والمجمع عليها، ودعوى هذا اختلاف في الحق نطق بما لا يعرفه، أما تسمع الله

يقول ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فإن الاختلاف في الحق لا يتحقق إلا أن يكون أحد المختلفين مبطلًا قطعًا ولكن الشاعر يقول:

إذا كنت ما تدري ولا أنت ما تدري

تطيع الذي يدري هلكت ولا تدري

وأعجب من هذا بأنك ما تدري وأنك ما تدري بأنك ما تدري، فلا تتوهم بأني متعصب لأهل الأصول ولكن الحق أقول كما قال الله تعالى: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾، فافهم. وهذا هو الخلاص الذي ليس عنه مناص.

فقام السيد الميرزا بتحرير رسالة وجيزة، سماها (غمزة البرهان لنبهة الوسنان)، يصدّر الكلام بنقل جواب الشيخ أحمد الأحسائي بعنوان: (قال)، ثم يتبعه بما يورد عليه بعنوان (بيان) أو (أقولُ)، وختم الرسالة بنقل عبارات ثمانية وعشرين شيخًا من كبار مشايخ الإمامية الثقات. وفي ختامها كتب: هذا ما أردنا إيراده في هذه الرسالة على سبيل العجالة، أداءً لحق النصيحة في مقام الأخوة المستنصحة قبل تغير الزمان، وما أردت ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. وفرغ منها ليلة السبت يوم الأضحى من هذه السنة (1228هـ). وبعثها إليه السيد الميرزا بيد الفاضل الفاهم محمد كاظم، مع رسالة قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، هذا الجواب تبصرة وذكرى لأولي الألباب إن كان حقًا وهو كذلك فاقبلوه، وإلا فبيّنوه، وإن تريدوا المهلة فلتكن الرسالة عندكم أمانة إلى تيسير الجواب مميزًا بين الخطأ والصواب والسلام.

فحاء الجواب من الشيخ الأحسائي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، فقد كتبتم في هذه الرسالة المسماة (غمزة البرهان) أخلاطًا عجيبة وإشارات ورموزًا وخبطًا في الجواب في الآداب، ومع هذا تكتب أن كان حقًا فاقبلوه، وتريد بالحق ما تهواه أو ما تدعيه، وتقول إني مجيب بما لن يرتبط على ضوابط التحصيل ولم يقم عليه دليل، متى كنت هكذا، فسبحان الذي يخلق ما يشاء بما هو عليه، أنا الذي يكتب له مثل هذه المغالطات والأحرف والاستنطاقات تعزيزًا للعلم وتمويهًا بالرسم، وإن جواب هذه وأمثالها موجودة في كناسة أبياتنا، أما تستحي وأنت تعرفني على أنك بسطت لسانك وقلمك في ذم العلماء وتفريق ما جمعه الإيمان والولاية على فرق سميتها بأسماء فرق الضلالة، وجعلت لعنها والبراءة منها وسيلة إلى الله تعالى في نجاح المطالب، أما تخاف الله أنك تملي على الملائكة ما تعلمه وأنت تعمله على خلاف الحق وتدعي أن هذا واجب عليك، ولقد اطلعت قبل أن آتي في الأيام أن أناسًا دبروا في قتلك من بعض عوام الناس وأهل الحكمة وغيرهم، وظني أنك تقتل ويقتلك من لا يعرف ولا من أهل المشاهد ويذهب دمك هدرًا، وتكون من أهل النار حيث ألقيت بنفسك إلى التهلكة.

وأيضًا حيث كان القرطاس رخيصًا والمداد كثيرًا تضيع وقتك في غير ما يعنيك، مما يضرك ولا ينفع بترك المندوبات، بل ما هو أعظم منها، وتشتغل بما هو محرم عليك ما لم تشترط في التكليف بها، فاتق الله في الدين واتق الله في دنياك واتق الله في نفسك واتق الله في دمك. والحاصل لو أعرف أن الكلام

ينفعك لقلت إن الموعظة لغير المتعظ لا تؤثر ونفس المرء أولى بالموعظة والاتعاظ قبل الوعظ لازم، ومن المثل بالفارسية (واعظ غير متعظ، شنيده بوديم اماند يده بوديم)، وإنما الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنا ما عهدتك على هذه الحال، فإن توهمت أني ما اهتديت إلى بيان كلامك هذا وما في ذلك من الغلط والمغالطات والغفلات والمكابرات، فأنت ممن لا يحسن خطابه ولا يجوز جوابه، لأن الكلام معك كلام مع الأموات، وإن عرفت من أني أرده وأفضحه، فالعاقل ينبغي منه أن يحترز عن المضار، ولا ينبغي فيما يبعث على هدم ما يؤسس، فأما إذا سكت، فينبغي أن تسكت، ولما أرسلت إلي بذلك الشكل المخبوط ما أحببت أن يظهر، ولكن خفت أن أترك فيقال عجزت، فكتبت بعض الكلمات، فعليك أن تترك وتكف ولا تجعل جميع الناس أعدائك، أما تترك لك صديقًا على غير بصيرة، لأنك لو تعلم ما يقال بعدك وبعد ذهاب عصرك إذا وقف عليه العلماء ضحكوا من هذا الشكل وأمثاله. فإن قبلت النصيحة فكف عن العلماء، واسكت عن كل شيء يتعلق بهذا الأمر، كما فعل كثير من قبلك ممن هو قائل قولك، واشتغل بما يعنيك فإن كلامك لا يفيد شيئًا قط لا في وقتك ولا بعده، ولا ينقل أحد عن طريقته، مع ما فيه من الملامة والإثم، وتضييع الوقت والعمر كما ذكرت لك، لأني والله سمعت من أناس أنهم تعاهدوا من لا تعرف ولا تقدر على الانتصار منه ولا القصاص على قتلك، فتفوت عليك الدنيا والآخرة، فالله الله في نفسك والسلام.

كتبه أحمد بن زين الدين

كتب السيد الميرزا له في يوم السبت خامس شهر ربيع الأول من سنة (1229هـ)، جوابًا على رسالته:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

تصلي على المبعوث من آل هاشم
وتغوي بنوه إن ذا لعجيب

أما بعد، فنسبة الاختلاط، بلا بيانها كنسبة المغالطات في الشكل أولًا بلا بيانها، وإساءة الأدب في التغليط والتجهيل بلا بيان ولا دليل، أنجب ما انتجب من التبيان والتضليل، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ وقال عليه السلام (البادي أظلم)، ومع هذا تكتب إن كان حقًا فاقبلوه! تريد بالحق ما تهواه أو ما تدعيه! وتقول: (إني مجيب بما لن يرتبط على ضوابط التحصيل ولم يقم عليه دليل، متى كنت هكذا). نسبة المغالطة إلى الشكل الصحيح المادة والصورة غير مرتبط ولا على ضابط التحصيل، وكان دعوى المغالطة مما لم يتبين عليه دليل، وكنت هكذا تقرأ القرآن على قبور أهل الأحساء وتستعطي الزكاة من عطاء أمير البصرة بإجازة أبي البرابيق الذي هوى. فسبحان الذي يخلق ما يشاء بما هو عليه ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وتقول: (أنا الذي يكتب له مثل هذه المغالطات والأحرف والاستنطاقات تعزيزًا للعلم وتمويهًا بالرسم). لو قلت: أنا ربكم الأعلى، أو قلت: أنا خير منه، لكان أبين وأحرى وأولى، والمموه هو الذي ينكر وجود القائم عليه السلام ومقامه بالجزيرة الخضراء، ويؤل في رسالته وجود القائم عليه السلام بالروح

والنفس الناطقة، ويؤل الجزيرة الخضراء الموجودة حسًا باتفاق أهل السير والتواريخ والأنساب وأهل الرياضة والمحدثين إلى الآن مثل وجود الصين والهند. ويجيب مثل هذه الترهات والخرافات عرفانيات ومكاشفات، ذلك مبلغهم من العلم.

تقول: (وان جواب هذه وأمثالها موجودة في كناسة أبياتنا)، أقـــول: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

تقول: (أما تستحي وأنت تعرفني). سبحانك لا إله إلا أنت، نعم أعرفك صاحب المنامات، ومتدين بالأطياف والخيالات، المتحدي بها عند الأعيان مفتريًا بنسبتها إلى آبائنا المعصومين سلام الله عليهم أجمعين..

تقول: (على أنك بسطت لسانك وقلمك في ذم العلماء)، قال عليه السلام نحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء، فلعن الله كل من يزري بالعلماء، وكل من لم يعظمهم، وكل من لم يحبهم، ولعن الله كل من يسد باب العلم على قلبه عالمًا، وهو الجاعل بصفات الله الشبوتية القدسية معلولات للذات، والمخرج للولاية عن أصول الدين والإسلام، والمفتي في حق حملة حكمة كتاب الله وسنة المعصومين بقوله يعزر ثلاثًا ويقتل في الرابعة، ويجري نحو ذلك في حق المبدعين في فروع الدين المدعين للاستقلال المضلين للجهال العالمين بظاهر الروايات من دون خبرة بالمقدمات القائل بأنّ قيد فروع الدين لإخراج المبدعين في أصول الدين، وهو المفتي بسفك دم ابن بنت رسول الله الشهيد على طريقة آبائه المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، إلى آخر سبعين وجهًا كل واحد منه مخرج عن الإسلام فضلًا عن الإيمان، المذكور جملة في كتاب (الصيحة

بالحق على من الحد وتزندق) في مقابل ما ألفه وسماه بـ(الحق المبين في خزي الأخباريين)، وفي كتاب (الحجر الملقم) في بيان ما كفر به كشف الغطاء في كتاب (الدمدمة الكبرى على الزندقة الصغرى). في نقض معلولية صفاته تعالى. هذا مع بيان أن العالم مشتق من العلم، وحيث لا علم، ففرضك سالبة بانتفاء الموضوع.

وتقول: (وتفريق ما جمعه الإيمان والولاية على فرق سميتها بأسماء فرق الضلالة). الأسماء تنزل من السماء، كيف تكون تحت جمعية الولاية من إخرج الولاية من أصول الدين ومنع القول بأن عليًا ولي الله أمير المؤمنين، وسمى أتباع الأئمة الأطياب بالخيبرية والأخبارية، وإنما الأخباريون هم حملة السير والتاريخ والأخبار التي تحتمل الصدق والكذب من باب التنابز بالألقاب فلما أخرجوا الولاية من أصول الدين استحقوا حقيقة الضلالة فضلًا عن أسماء أهل الضلالة.

وتقول: (وجعلت لعنها والبراءة منها وسيلة إلى الله تعالى في نجاح المطالب). إنكم لما كتبتم أصحاب الحديث على التهجين، وعبرتم عن رئيس المحدثين بالخائن الإسترآبادي، وعن محسنهم بالمسيء القاساني، وعن الشيخ الحر العاملي بالخاء المعجمة، وعن مولانا محمد تقي المجلسي (قدس سرهم) بالشقي المجلسي، وعن الأخباريين بالخيبرية، إلى غير ذلك من التكفير والتجهيل والتضليل جاز لكم، وكذلك المحدثين من جرب من بعض المجربين بلعن المخربين للدين، الآمرين بسب آل طه وياسين (بدليل تنقيح المناط) واتحاد طريق المسألتين ولقد جرب جماعة ثقات ومنّ الله تعالى عليهم بإجابة الدعوات، ثم تأنيث الضمائر الراجعة إلى القوم الذين حميت

عنهم ليس في محله إلا على تقدير التأنيث فالحمد لله الذي يفهم هذه الأنوثية فيهم.

وتقول: (أما تخاف الله أنك تملي على الملائكة ما تعلمه وأنت تعمله على خلاف الحق وتدعي أن هذا واجب عليك). قال ﷷ: (إنْ من البر الوقيعة في أهل المعاصي). وقال ﷷ: (قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم كيلا يطمعوا في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة). فما عملنا إلا بما علمناه من آبائنا الأئمة المعصومين ﷷ، والعامل بلا علم هو الذي يبني على الحدس والتخمين وعلى المنافاة الملهية للسفهاء، وإنما هذا ما أدى إليه اجتهادي وكل ما أدى إليه اجتهادي بالنظر الصحيح فهو تكليفي وإن رغمت به معاطس الظانين.

وتقول: (ولقد اطلعت قبل أن آتي في الأيام أن أناسًا دبروا في قتلك من بعض عوام الناس وأهل الحكمة). ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، ﴿يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾.

وتقول: (وظني أنك تقتل ويقتلك من لا يعرف ولا من أهل المشاهد ويذهب دمك هدرًا). قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. وقال ﷷ: (الظن أكذب الكذب)، وقال: (الظن يخطئ ولا يصيب)، وقال ﷷ: (من شك أو ظن فأقام على أحدهما فقد حبط عمله). وكل نفس ذائقة الموت، قال جدي أمير المؤمنين ﷷ قاتل أجدادك يوم بدر وراميهم في القليب: (أي يومي من الموت أفر يوم ما قدر أو يوم قدر). وقال: (كفى

بالأجل حارسًا). ثم على فرض وقوع الغيلة علي أسوة بعلي عليه السلام أن كان قتلًا، والحسن عليه السلام أن كان سمًا.

وتقول: (تكون من أهل النار حيث ألقيت نفسك إلى التهلكة). لقد بشرتنا بالنار كما بشر سلفك جدي الحسين عليه السلام بالنار يوم الطف، وجواب جدي الحسين عليه السلام لسلفك جوابي لك سواء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: أنت وشيعتك في الجنة والنار بردًا وسلامًا على إبراهيم محرمة على أهل البيت وذريتهم المقتفين وجدي أمير المؤمنين عليه السلام قسمها ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار. ثم إلي أسوة بجدي سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، وبعمي سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه ثانيًا، وبعمي الآخر ذي الجناحين جعفر الطيار رضي الله عنه ثالثًا، فإن كانت الشهادة في إعلاء كلمة الحق والدين عند اضمحلالها وانحصار الداعي إليها إلقاء للنفس في التهلكة، فبئس الفهم ما فهمت، لقد أنكرت دعامة من دعائم الدين فكان الأنسب في مقام التهديد أن تستشهد بيزيد جدك:

لست من خندف أن لم انتقم

من بني أحمد ما كان فعل

وتقول: (وأيضًا حيث كان القرطاس رخيصًا والمداد كثيرًا تضيع وقتك في غير ما يعنيك، مما يضرك ولا ينفع بترك المندوبات، بل ما هو أعظم منها). ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، والتارك للواجب فضلًا عن المندوب من ترك القناعة والزهادة والتحصيل ونصب نفسه شبكًا لجمع الأموال من كل سبيل جمع مالًا وعدده يحسب أن ماله أخلده، ومن كنوز المكنون وجمع الخيرات من أموال الفقراء من أيتام آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحج حجة الإسلام ولم

يزر سيد الأنام ولا الأئمة الأعلام عليه وعليهم السلام، وأما من منعه الاشتغال بتفسير ما جمعه جدي أمير المؤمنين عليه السلام عن الخروج، ثم منعه الأوجاع من كثرة التحول والخروج، كل يوم وكل حال، فهو ممن يعاد لا ممن يعاب.

وتقول: (وتشتغل بما هو محرم عليك ما لم تشترط في التكليف بها). نسبة اشتراط التكليف إلى المتكلم مع الغير أولًا وتأنيث ضميرها ثانيًا غلط محض ومحض غلط، والعجب ممن لم يتقن لسانه كيف يدعي عداد نفسه من العلماء، اللهم بلى رئاسة الطغام مما يفسد الأحلام، والمشتغل بالحرام هو الذي يستعمل المداهنة في الدين ويسميه تقية ولم يميز بين المداهنة المحرمة والتقية الواجبة والمداراة المستحبة، ولا بين التورية والنفاق، وما أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي والحمد لله.

وتقول: (فاتق الله في الدين واتق الله في دنياك واتق الله في نفسك واتق الله في دمك). العاقبة للمتقين ولنحن أحق بها وأهلها، ثم لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا، والواعظ إذا كان غير متعظ، زيلت موعظته عن القلوب ودخلت تحت قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

وتقول: (والحاصل لو أعرف أن الكلام. . . الخ). مرحبًا ببني مروان بعد جدنا نبي بني عدنان، وأقول كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب الحرورية: (كلمة حق أريد بها باطل).

وتقول: (وأنا ما عهدتك على هذه الحال). الصحيح عاهدتك، وأنا كذلك عاهدتك على الإيمان وكنت أستصحب حكمة حتى بدا لي أنه كان معارًا، فمستقر ومستودع، وثبت

كونك من الصوفية الذهبية مريدًا لاقا هاشم الشيرازي بواسطة الشيخ محمد بن عبد الجبار القطيفي، وظهرت رسائلك في التصوف وأدخلت نفسك في علماء الدين حتى تلبس على الضعفاء، والله موهن كيد الكافرين، ولا بد للعبشمية والمراونة من الرجوع القهقرى كما قال تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

وتقول: (فإن توهمت أني ما اهتديت إلى... ولا يجوز جوابه). أن زعمت أني ما أتيقن بجهلك وفقدك التحصيل، وبأن كلما تزيد كلامًا تزداد افتضاحًا فأنت خارج من نوع الإنسان فاقد الفصل بالعيان.

وتقول: (لأن الكلام معك كلام مع الأموات). نعم أنا أن شاء الله الذي أحي عقله وأمات نفسه، توفيق الملك المنان وعناية صاحب الزمان عليه السلام، فأنت ممن قال عليه السلام والمرء يقيس على نفسه، وأنت مبدع والمبتدع ميت الأحياء، وقد سمعت لو ناديت حيًا أموات غير أحياء ولكن لا يشعرون.

وتقول: (وإن عرفت من أني أرده وأفضحه). نعم، ترده كما رد من قال من أجدادك في مقابل جدي المصطفى: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، خرطومه طويل).

وتقول: (فالعاقل ينبغي منه أن يحترز عن المضار). ونحن بهذا الدليل نحرم التعبد بالظن، فإنه يستلزم الإقدام على ما لا أمن فيه من الخطأ، وهو يجري في القبح مجرى الإقدام على الخطأ، كما بينه الشيخ (قدس سره) في العدة، وأمرت باستنطاقك ليتبين عند العقلاء مقدارك ويظهر تكبرك وعُجبك بنفسك وخوارك.

وتقول: (ولا ينبغي فيما يبعث على هدم ما يؤسس). ﴿يُرِيدُونَ

لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، . . إلا أن تقر بالحق فتصبح من الأحزان كما كنت قبل هذا، فجرب أم كنت له أهلًا، وإلا فمهلًا، قال ﷺ: المرء مخبوء تحت لسانه. وقال: تكلموا بالعلم تبن أقداركم.

وتقول: (فأما إذا سكت، فينبغي أن تسكت) لو كنت ساكتًا لما تكلمنا عليك، فإنما سبقت بالتجهيل متجاهلًا، وبالتغليط متغالطًا، ومن حفر بئر لأخيه فقد وقع فيه، والجاهل إذا سكت فجدار وإذا نطق فحمار، قال جدي ﷺ: قد سماه أشباه الناس عالمًا ولم يغن فيه يومًا سالمًا. . . إلى أن قال: فهو مفتاح عشوات، ركاب شبهات، خباط جهالات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعض في العلم بضرس قاطع فيغنم، إلى آخره. . . وقال ﷺ: شين العلم الصلف. كيف يجري على لسانك وأنا الذي تكتب له مثل هذه المغالطات، من أنت ومن تكون، أحد من عرض النخاولة أكره النخيل بقارة تلم الحشف. . . غير أنك جالست حينًا فضلاء الفرس فأردت أن تمشي مشي القبيح فلم تقدر ونسيت مشيتك، فبقيت لا حراك لك.

وتقول: (ولما أرسلت إلي بذلك الشكل المخبوط ما أحببت أن يظهر). ما أرسلنا إليك بشيء، فقد كنا عارفين بجهلك وتصنعك، ورسائلك المختلطة عندي مستنسخة من خطك، أوهن وأوهى من رسائل الوهابي، وإنما جاء به إليك الشيخ حسن التوبلي، لأن أمرك كان ملتبسًا عليه كما التبس على كثير من العوام، إلا من شاء الله، فظهر خبطك في مرآة الشكل فحسبته متخبطًا، كما يرى صاحب الدوار الدور حوله دائرات، وذلك لمرض في نفس الرائي.

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة
فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

وتقول: (ولكن خفت أن أترك فيقال عجزت، فكتبت بعض الكلمات). كتبت بما بانت لدينا عجائبه ولا تنقضي مر الدهور غرائبه، سلب الله تعالى عقلك فأظهرت فساد نيتك، إنها لم تكن خالصة لله، فلو كانت خالصة لله تركت ما كان لله ينمو وما كان للشيطان يخبو، قال جدي عليه السلام: (ومن هجم على أمر بغير علم جذع أنف نفسه، ومن لم يعلم لم يفهم ومن لم يفهم لم يسلم ومن لم يسلم لم يكرم ومن لم يكرم يهضم ومن يهضم كان ألوم ومن كان كذلك كان أحرى أن يندم).

وتقول: (فعليك أن تترك وتكف). هذا يأمره وهذا يزجره قال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، ولم يقل يتركون الأمر بالمعروف ويكفّون عن المنكر، ويخشون الناس ولا يخشون الله.

وتقول: (ولا تجعل جميع الناس أعدائك). قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ومما يدل على بطلان الظن أن كثيرًا ما كان يخطر في بال الناقصين أنك من رجال الطريقة المهدوية الكبرى، وزيارتك تصير سبب قوة الطريقة الحقة وإصلاح ذات البين، فلما جئت صرت أمين هذه الأمة في حفظ الصحيفة الميشومة من غير تفتيش واستفسار من المتخاصمين، و﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

وتقول: (أما تترك لك صديقًا على غير بصيرة). لي أسوة بجدي أمير المؤمنين حيث قال: (الحق ما أبقى لي صديقًا)، وقال الله تعالى حكاية عن النبي: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا

وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، وإني لجدي من المقتفين، وأنت أيضًا مثل جدك من المكذبين، فكل حزب بما لديهم فرحون.

وتقول: (لأنك لو تعلم ما يقال بعدك وبعد ذهاب عصرك إذا وقف عليه العلماء ضحكوا من هذا الشكل وأمثاله). ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾، وقد ضحك اليهود على المسيح والمختار، وأهل الكتاب على سيد الأبرار، والخوارج على حيدر الكرار، صلوات الله عليهم، والمرء عدو لما جهل ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ويفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه.

وتقول: (فإن قبلت نصيحة، فكف عن العلماء). صلوات الله على العلماء، ولعنة الله على الملتبسين على الضعفاء، إن قبلت نصيحتي فكف عن عداوة آل محمد ونصرة قاتلي ذرية أحمد، وتب إلى الله من إعانة أهل الضلال، وتوكل على العزيز المتعال، دع كتبك وتعال ولا تصغ إلى قيل وقال، رحم الله امرأ سمع فوعى وعمل ثم اهتدى.

وتقول: (واسكت عن كل شيء يتعلق بهذا الأمر). قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال عليه السلام: إذا ظهرت البدع في أمة فليظهر العالم علمه ومن لم يفعل فعليه لعنة الله.

وتقول: (كما فعل كثير من قبلك ممن هو قائل قولك). قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وتقول: (واشتغل بما يعنيك فإن كلامك لا يفيد شيئًا قط لا في وقتك ولا بعده، ولا ينقل أحد عن طريقته). قال تعالى لنبيه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

علي نحت القوافي من مقاطعها
ولا علي بان لا يفهم البقر

ولقد اهتدى بحسن توفيق الخبير اللطيف من أول دعوتي إلى الحق اليقين طريقة آبائي المعصومين، سلام الله عليهم أجمعين، إلى الآن على اليقين أكثر من ثلاثين ألفًا من أبناء فارس وخراسان والجزائر والسند والهند والطبرستان، وانتسخت من كتاب (مصادر الأنوار) ومن (تحفة الفقه) نيّف ومائة نسخة، والحق يعلو ولا يعلى عليه، والحمد لله.

وتقول: (مع ما فيه من الملامة). مدح الله أقوامًا فقال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾.

(والإثم). ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾، ثم ولسنا بحمد الله من أمة الظن.

وتقول: (وتضييع الوقت والعمر... كما ذكرت لك). ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وإنما الأعمال بالنيات.

وتقول: (لأني والله سمعت من أناس أنهم تعاهدوا من لا تعرف ولا تقدر على الانتصار منه ولا القصاص على قتلك، فتفوت عليك الدنيا والآخرة). ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾، و﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾. يا حيف، مسكين بحراني قاس على نفسه، فخزعني العجب من عقلك، تنفي قدرة الله عن الظالمين، وتنكر قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وتنسى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ والدنيا سجن المؤمن

وجنة الكافر، وهي دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، وإني والله عالم بأن جمعًا من أولياء الرحمن تعاهدوا على نصرة الحق وإنما ينتظرون بدء التعدي من البرابقة.. فيقتلهم بسيف العدل من يعرف حسبه ونسبه (صلوات الله عليه) ويصدق قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة لكم أخرى..). ثم قولك (إنهم تعاهدوا)، أقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وتقول: (فالله الله في نفسك والسلام). ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وفي التوراة إن من قتل ذرية نبي لا يزال ملعونًا أبدًا ما بقي، فإذا مات يصليه الله نار جهنم. وقد صح عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: إنه لا يدخل في دماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أولاد البغايا)، أو كما قيل:

تهددني بالسيف والسيف حليتي
وتوعدني بالقتل وهو كرامتي

فرغ منها ليلة الأحد السابع من ربيع الأول لسنة (1229هـ) بمقابر قريش من أرض بغداد حامدًا مصليًا مستغفرًا منيبًا.



وكتب رسالة (النشر والبسط)، بعدما سأله الشيخ الجليل علي ابن الجليل الحلي عن الخبر محتمل للصدق والكذب، وكل محتمل للصدق والكذب لا يصلح أن يكون دليلًا بالإجماع، والخبر لا يصلح أن يكون بالإجماع. فأجابه بالتفصيل، وفرغ من كتابتها في يوم واحد، يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الأولى من هذه السنة (1229هـ).

وفي شهر رمضان من السنة (1229هـ) أتم رسالة (البنيان المرصوص بالبراهين والنصوص)، ووسمها بـ(ميزان الهدى ومقياس التّقى)، قال عنها: (في طي أسئلة وأجوبة سهلة مستصعبة، والله الهادي وإليه معادي، وعليه اعتمادي، وبه رشادي، وتقواه زادي، ومنه الأيادي)، يصدّر السؤال بـ (فإن قلت) ويجيب بـ(قلنا).

وكتب رسالة (سعوط المجانين لطرد الشياطين)، وهي رسالة قصيرة كتبها كإجابة لمن سأله عن دلالة الآية (29) من سورة الأنفال على اشتراط التقوى في تحقق الفرقان، فرغ منها صبيحة السبت الرابع والعشرين من شهر صفر سنة (1230هـ).

وكتب (الورد الزاهر والبدر الباهر)، إجابة لمن سأله عن دلالة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. كتبها وختمها في ساعة من نهار يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر صفر من سنة (1230هـ).

وكتب (عبرة اليقظان لتبريد رمضان)، كتبها في جوابه لقرة عين اليقين الميرزا محمد أمين، في رد اعتراض آخوند ملا رمضان على البرهان الذي أثبت به السيد الميرزا التباين الكلي بين الحكم المحمدي الإسلامي والحكم الاجتهادي. فيورد قول السّائل بـ(قال)، ثم يتبعه بقوله: (تنبيه)، أو بقوله: (قلتُ). فرغ منها ليلة الجمعة آخر صفر من سنة (1230هـ). وكتب (كنز الشرف في عقيدة السلف)، قال في أوله: لخّصته من كلام ثقات الخلف، محترزًا عن الجزاف والصلف، صانه الله تعالى من

التلف وهو في الميزان أثقل، وفي اللسان أخف، فاعتقد بالحق ولا تخف إنك أنت الأعلى. فرغ منه صبيحة يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول من سنة (1230هـ).

وفي غرة شهر ربيع الثاني من سنة (1230هـ) أتم رسالة (السيف البتار لقطع وتين الفجار)، كتبها بعد أن سأله سائل عن قول: إن الألفاظ والجمل على معانيها ظنية، لاحتمالات إمكانية، قررها علماء الأصول، ونقل عنهم السيد المير أبو القاسم القمي في كتابه قوانين الأصول. فرد السيد الميرزا عليها ردًا مفصلًا.

وكتب (مفتاح الخطاب إلى الحق والصواب)، جاء فيه: فقد سأل الشيخ الرباني علي بن الحسين الفارساني أيده الله تعالى عن مسائل، فقضاء حاجة الإخوان حسب المقدور، ولأن الميسور لا يسقط بالمعسور، بادر الميرزا إلى الجواب معرضًا عن الإسهاب والإطناب.. مستعينًا بمُلهم الخير في كل باب. فرغ منه في أواخر شهر ربيع الثاني من سنة (1230هـ).

وكتب (سيف الله المسلول على محرفي دين الرسول)، ثلاثة مجلدات، في الرد على كتاب (التحفة الاثني عشرية) لعبد العزيز الدّهلوي، وهو سنِّيّ حنفيّ.

وكتب رسالة (النور المضي بالبرهان السّنيّ)، بعد سؤال بعض الفاحصين عن قوله ﷺ المتفق عليه بين الفريقين: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)، ما المراد من المعرفة؟ ومن الإمام في زماننا؟ وكيف الوصول إلى معرفته؟ وهل يكفي بدلها مجرد العلم بالمشخّصات أم لا؟. فرغ من تحريرها في أول شهر جمادى الثانية من سنة (1230هـ).

وكتب رسالة (الغزالة لإزالة غسق الضلالة)، كتبها بعد ما سأله

الأخ الولي الشيخ عبد العلي وفقه الله تعالى بلطفه الخفي والجلي عن مسألة تقليد الأموات. فبين فيها ذلك. وأتمها في صبيحة يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر جمادى الثانية من سنة (1230هـ).

وكتب (أمالي العباسي) أو (المواعظ الحقّة)، رسالة فارسية، كتبها بطلب من عباس بن الشاه فتح علي القاجاري، وهي في الرد على اليهود والنصارى والمجوس، وإثبات النبوة الخاصة، فرغ منها صبيحة يوم الثلاثاء الثالث من شعبان من سنة (1230هـ).

وكتب (حجة الحجة وعلم المحجة)، كتبها في بيان فتح باب العلم والبيان على قدر تكليف الرحمن عباده المستطيعين من الإنس والجان، مكتفيًا بذكر الأحاديث الصحيحة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، والرد على جهلة المتأخرين ممن كان جاهلًا لأصول الدين... فرغ منها في الثامن عشر من شوال من سنة (1230هـ).

وكتب (سراج السالكين)، استجابة لما التمسه منه حميد السجايا والمراسم المولى أبو القاسم وفقه الله تعالى لما يحب ويرضى، مما التزمه السالكون إلى الله في الطريقة المهدوية المثلى، عجل الله فرج صاحبها.

وكتب (سلطان مبين لمعرفة دعاة الدين)، فرغ منها صبيحة يوم الأربعاء الثامن من شهر شوال من سنة (1230هـ).

رسالة تحدث فيها عن الاتفاق على التكليف والاختلاف في من له ذلك، واستحالة التكليف بالظن.

ورسالة أخرى قريبة من هذا الاسم، جاء فيها: فلما كانت رحى أمة الظن والتخمين تدور على قوانين، أصولها أربعة هي قوائم عسكر، وجب علينا عقر تلك القوائم (قاطع البرهان ليتضح الطريقان ويتميز الفريقان).

المحطة الأخيرة

(1232هـ/1817م)

ما زلنا في مقابر قريش، مدينة الكاظمية، السيد الميرزا مستمر بدرسه وكتاباته. والجهر بالدعوة إلى طريقة الأئمة المعصومين عليهم السلام. وشاعت طريقة المحدّثين وضعفت شوكة المجتهدين.

في هذه السنة توفي المير علي الطباطبائي (صاحب الرياض)، ودفن بالرواق المشرقي من الحضرة الحسينية المقدسة، قريبًا من قبر خاله الوحيد البهبهاني. وكان ولده السيد محمد قاطنًا بمدينة أصفهان العجم. لما بلغه نعي أبيه أقام مراسم تعزيته هناك، وجلس أيامًا للعزاء. ثم رجع إلى كربلاء بعد زمان قليل، ليكون خليفة لأبيه في كل ما كان إليه.

وفي السنة نفسها توفي الميرزا القمي صاحب (قوانين الأصول)، وكان في قم، ودفن في المقبرة الكبيرة فيها. بقرب قبر الشيخ ابن بابويه.

كلما زادت دعوة الميرزا كثر أعداؤه، في حُجرة الظلام الكامنة خلف نافذة الزمن، كانت أنفاسه تتسارع بتناغم مع ضجيج اللحظات الساكنة. وجهه يعكس خيبات الماضي وآمال المستقبل، كل حرف في عينيه يحمل قصة لا تُكتب إلا في أعماق الروح. وفي هذا الكون الذي يتلاعب بالظل والنور،

كلما تساوى صوت دعوته في الهمس، زادت ملامح الخصوم حدة، فكأن الحياة ترقص على أوتار قلبه، وكل مقطوعة تحمل مدى عمق الألم الذي ينمو مع كل نبرة.

كلما ارتفع صوتُه الذي كان ينادي بهدوء، تصاعدت حلقات العداء والكراهية من حوله، كالصرخة التي تتردد في أفق الليل، تجذب الظلام حولها لتبرز جليةً وسط الظلام، وكلما ازدادت شهرته وتألقه، ازدادت الأنوار التي تلتقط بالفخر والغيرة كل تفصيل من تفاصيله، فكانت الأضواء الساطعة الواقعة على طريقه تنبئ بأنه قد طرق باب الشهرة والنجاح، لكنها في الوقت نفسه كانت تعلمه بأن السلام النفسي لن يأتي إلا بثمن باهظ، فكلما ازداد مدى نجاحه، زادت زوابع الغيرة والحسد المحيطة به من كل جانب، فكأنما كل قطرة من دمعة فرح في عينه تثير عاصفةً من الغيظ والتنافر في قلوب من حوله. فازدادت قلوب المعاندين حرقًا، ومُلئت فيه حنقًا، حتى قال في ذلك من الشعر:

تــربَّـصـتِ الأعــداءُ فــيـنَـا دوائـرًا
فـدارت عـلـيـهـم واسـتـدارت بـجـمـلـةِ
كـفـانَـا إلـهُ الـعـالَـمِـينَ بـفـضـلِـهِ
مـؤونـةَ عـدوانِ الأعـادي بـلـحـظـةِ
فـلـمْ نـسـتـعـنْ مِـمَّـن لَـهُ شـوكـةٌ ولا
تـحـامـيـتُ مـن جـنـدٍ ومـالٍ وشـوكـةِ
ومـا كـانَ إبـصـارًا لـنَـا غـيـرُ ربِّـنَـا
وسـادتِـنَـا الأطـهـارِ أعـلامِ أسـوةِ
كـفـانَـا إلـهَ الـحـقِّ كـيـدَ عـدوِّنَـا
وأذهـبَ أهـلَ الـظَّـنِّ طُـرًّا بـخـيـبـةِ

ودعـوةِ سـيـفٍ مـا تـرقَّـد قَـدَّهُـم
وإن هـوَ إلاَّ صـارمٌ مـن أدلَّـةِ
وأضحى جمالُ الحقِّ في رونقِ الضُّحى
يـضـيءُ سـنـاءً كـلَّ وجـهٍ وطـلـعـةِ
فـإنْ يـسـألـوا عـن سـوءِ عـاقـبـةِ الأولى
وتـاريـخِ استيصـالـهـم قلْ (أضَلَّتِ)[1]

وقال أيضًا:

ولَـمَّـا غـرَّهـم أمـلٌ طـويـلُ
فـهـاكَ الـغـرُّ أرِّخ (وانـزعـاجُ)[2]
فـأرخـى جـمـرةً والـفـكـرُ رامِ
وقـلـتُ الـبـاغـضـيـنَ لـنَـا زجـاجُ
بـشـهـرٍ واحـدٍ هـلـكـوا جـمـيـعًـا
فـبـانَ بـصـفٍّ طـاغـيـهِ خـداجُ
ولَـمْ يـعـرف لـمـدرسِـهِـم نـهـيـقًـا
ولَـمْ يُـسـمـع لـشـاتِـمُ ثُـعـاجُ
وأصـبـحَ مـاؤنـا عـذبًـا فـراتًـا
وأمـسـى مـاؤُهـم مـلـحٌ أجـاجُ

حينما عاد السيد محمد الطباطبائي من إيران، متوجهًا إلى كربلاء، حط رحاله أولًا في الكاظمية، باتت السماء ملبدة بالغيوم المظلمة والأرض مشوبة بالتوتر والاضطرابات، استقبله الناس بحفاوة وترقب، فهو خليفة أبيه. وأخذ يعظ الناس ويدعوهم إلى الالتزام بطريقة المجتهدين ونبذ طريقة المحدثين.

---

(1) بحساب الجمل الكبير (أضلت) تساوي (1231هـ).

(2) بحساب الجمل الكبير (وانزعاج) تساوي (1231هـ).

لأنه رأى تنامي طريقة المحدّثين وأتباعهم، وتضاءل أتباع المجتهدين.. فصار يبين للناس أن الميرزا محمد الأخباري يزدرئ العلماء، ويكن العداوة للشيخ جعفر كاشف الغطاء ولأبيه السيد علي الطباطبائي، وجده الوحيد البهبهاني.

إلا أن الرياح لم تأتِ بما تشتهي السفن، فبعد أيامٍ قليلة، جاء بعض تلامذة السيد محمد الطباطبائي إلى مسجد المحدّثين، ليتحاوروا مع بعض المتعلمين، وكان النقاش في بادئ الأمر هادئًا، تحكمه ضوابط العلم وأدب الحوار. غير أن الشرر بدأ يتطاير شيئًا فشيئًا، وتحوّل الحديث إلى نزاعٍ محتدم، علت فيه الأصوات، واشتدت فيه الحُجج كالسيوف المسلولة.

لم يمر وقت طويل حتى تجاوزت الكلمات حدّها، فاندفعت الأجساد، وتراشقت النظرات الغاضبة بشرر الغيظ، ثم انقلب الجدل إلى معركة بالأيدي، فتضارب الفريقان، وسط دهشة المصلين وذهول رواد المسجد. ارتفع الغبار في أرجاء المكان، وتعالت الصيحات بين مدافع ومهاجم، بينما تدافعت الأقدام فوق السجاد العتيق، وكأنها تُدنس حرمة المكان بجلبةٍ لم يعهدها من قبل.

عمت الفوضى، وامتدت الأيادي لفض النزاع، إلا أن الشرخ كان قد وقع، ولم يعد بالإمكان تجاهل العواقب التي ستترتب على هذه المواجهة، إذ لم يكن هذا الشجار مجرد لحظة غضب، بل كان الشرارة الأولى لعاصفة أكبر قد تعصف بكل شيء.

وهذا ما أساء السيد الميرزا، وبقي مهمومًا مغمومًا، من قلب الحقائق، وافتعال الفتن.. فمع تسليم صحة أن السيد الميرزا كان يزدري عليهم، فقد كان السيد علي الطباطبائي، هو أحد من رفع صورة الاستفتاء واشتركوا في الفتوى بنفي السيد الميرزا أو

قتله، بل لو تمكنوا لقتلوه، وكانوا يفسقونه، ويذكر في مجالسهم بالتفسيق والتكفير من دون نكير، كما بين هو لهم ذلك.

المضايقات التي تعرض لها بقيت مستمرة، بل وقد كثرت أيضًا. ليس للسيد الميرزا فحسب، بل حتى لأتباعه، وطلبته.

ففي أحد الأيام كنا نصلي الجماعة في الحضرة الكاظمية الشريفة، وكان إمامنا العالم النبيل السيد مرتضى ابن السيد إسماعيل الموسوي، لما وصل إلى الركعة الأخيرة في المغرب جهر بالتسبيحات، فإذا برجل قامَ من وراء الشُّبَّكات وصاح بصوت أنكر من صوت الحمار، سمعه الصغار والكبار بفارسية ملحونة: يا سيد مرتضى كفَّرت الناس.

وفي صبيحة تلك الليلة أشاعوا بأن هذا الصوت خرج من الضريح الشريف. ثم غيروا قولهم، وقالوا بأنا سمعنا ما بين الأرض والسماء هذا البرهان والدليل، وإنه صوت جبرئيل عليه السلام. فكتبوا ورقة بهذا المضمون ومهروا عليه بالأمهار.

سمع السيد الميرزا بهذا الفعل القبيح، قال بابتسامة بانت على وجهه:

- سبحان الله، إن الأئمة كانوا بلغاء فصحاء في كل لسان، فما بال هذا الكلام ملحونًا؟!.

أردنا أن نتبين هذا الخبر، ونحقق فيه، فظفرنا به. فتبين أن رجلًا من الأتراك هو من فعل هذا الفعل، فأردنا أن نفضح فعلته.

فقال: إني رجل فقير؛ وكنت مقروضًا وما علي من تقصير، فأعطوني هؤلاء ثلاث عبّاسيّات[1]، فصحت بذلك المقال

(1) كان اسمًا يُطلق على العملات الذهبية والفضية في إيران، أصدرها لأول مرة الشاه الصفوي عباس الأول.

وهربت من مكاني في الحال خوفًا منكم. فشاع هذا الخبر والقصة في البلاد ومزقوا الورقة التي كتبت. وهذه كانت إحدى المنازعات بيننا وبينهم.

بعد ذلك، رحل السيد محمد الطباطبائي إلى كربلاء، وكتب إلى الشيخ موسى كاشف الغطاء عن السيد الميرزا، وأنه يشتم الشيخ جعفر كاشف الغطاء والعلماء الآخرين، وأن له أتباعًا يذهبون مذهبه، فغضب الشيخ موسى كاشف الغطاء من ذلك، وارتحل مع جماعة من كربلاء وقدم مع السيد محمد وجماعتهم إلى الكاظمية، ومعه ستة عشر رجلًا من أتباعه، من أهل النجف.

لما سمع السيد عبد الله شبر ابن السيد رضا شبر، وهو من علماء الكاظمية ومجتهديها، مربوع القامة، بدين، قمري الوجه، درس عند الشيخ جعفر كاشف الغطاء في النجف، ثم رجع إلى بغداد مع أبيه. بعد وفاة الشيخ جعفر اتجهت الأنظار إليه، في بغداد، وأخذت شهرته تتسع حتى صار من المراجع لهم، انكب على التأليف وانشغل بالتدريس، ولكثرة مؤلفاته لقب بالمجلسي الثاني. إلا أنه كان من أهل العزلة والانزواء.

لما سمع بمجيء الشيخ موسى كاشف الغطاء خرج السيد شبر لاستقباله مع جمع من أهل البلدة، وأنزله في داره. وعقد له على أخته وقيل ابنته، وما فعل هذا إلا لتجلب له قلوب الناس، فيستعين بهم على قتل السيد الميرزا.

أعلن السيد محمد الطباطبائي قراره المصيري أمام أتباعه ومقلديه، بأنه سيغادرهم عائدًا إلى بلاد فارس. وما إن تناهى الخبر إلى مسامعهم حتى عمّت موجة من الحزن والذهول، وازدحم عليه الناس من كل حدبٍ وصوب، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وعامّيهم، وعيونهم تفيض بالدموع.. ارتفعت الأصوات

بالبكاء، وتوسلوا إليه، ناشدوه أن يعدل عن قراره، أن يبقى بينهم، أن لا يتركهم للأيام دون توجيهه ونوره.. نظر إليهم، وأطبق شفتيه لحظات كمن يخفي خلفهما شيئًا وقال:

- إن أردتم أن أبقى ولا أرجع إلى بلاد فارس، فبشرط واحد فقط.

ظل الصمت يخيم على المكان، قلوب العوام توقفت عن النبض في انتظار الشرط الذي سيضعه السيد، في تلك اللحظة الفارغة من الزمن امتلأت الأفكار بالتساؤلات والتكهنات حول ما هو هذا الشرط الذي سيضعه، ولكن كان الجميع على استعداد للتضحية بأي شيء من أجل بقائه.

بعد لحظات من الصمت الملحوظ، كشف السيد الطباطبائي عن شرطه بوضوح:

- شرطي هو أن تخرجوا الميرزا محمد الأخباري عن البلدة.

بدلًا من أن يتبع هذا الإعلان ردود فعل من الدهشة والاستغراب، انعكست تعابير الوجوه بتفهم وتقبل، بل رحب البعض بالشرط بتلقائية. وأظهروا تفهمًا كبيرًا للوضع، ووافقوا بسرور على الشرط بعد أن فهموا أهميته، فقد اعتبروا أن مغادرة السيد الميرزا قد تحقق مصلحة الجميع وتؤدي إلى تحسين الأوضاع في المكان.

لكن كيف يخرجونه من البلدة؟

أخذ هؤلاء العوام يعطون الرشى لوزير بغداد ومن حوله من أركان الدولة والأوتاد في إخراجنا من البلدة.

بعد أيام، ونحن في البيت نقرأ ونتباحث في كتاب (أصول الكافي)، إذا جاء اثنان من خوادم الوزير، قدما علينا، قالا موجهين كلامهم للسيد الميرزا:

- إن الوزير يريد لقاءك.
- عنفًا أم مع الرضا؟ قال السيد الميرزا
- بأيهما كان، لابد من ذلك.

سمع أهل المدينة بذلك، والظاهر أن منهم من كان يسترق السمع، ويهيج الناس. فاجتمعوا حتى خرجنا من الدار، وصاروا يرموننا بالحجارة.

ذهبنا مع السيد الميرزا إلى القصر، وجدنا الوزير بانتظارنا.. تجاذبا أطراف الحديث..

أعجب الوزير بحسن كلام الميرزا وفصاحته ومهارته، وكونه في كل العلوم والفنون كاليم الخِضَم الطّمطام. فاعتذر منه وأكرمه غاية الإكرام، وأراد قتل من وشوا به، فما رضي السيد الميرزا بذلك وقال له: العفو سيرة الكرام.

بقينا أربعة عشر يومًا يراجعنا جمع من العلماء والعوام، وكنا كذلك، حتى جاء كبراء أهل المدينة جميعًا وأخذوا يعتذرون، وقالوا: ما فعل بكم الفعل العظيم إلا الجاهلون، ونحن الآن نلتمس أن ترجعوا. وأخذوا يلحّون علينا ويرسلون المواثيق والعهود في المكاتيب إلينا.

فقال السيد الميرزا: ذروني أمض إلى البلاد البعيدة حتى لا تقع في كل يوم بيني وبينكم وقائع أخرى.

فاختلفوا مرات عديدة بأنا تركنا العداوة ولسنا الآن إلا من المحبين، نريد أن تكون معنا حتى تُظهر لنا معالم ديننا، وتبين لنا الحق فإنا كنا قبل هذا من الغافلين، فرجع الميرزا محمد عن رأيه.

بعد أيام تنازع كبير القصبة (المحلة) المسمى سلطان، مع أحد تلامذة السيد الميرزا، وأخذ يضربه ويشتم آباءه، فمضى السيد

إلى الوزير يشكو إليه بما صار عليه، فحبس الوزير كبير القصبة. إلا أن السيد الميرزا بعث ولده السيد أحمد فأخرجه من الحبس.

فبقي كبير القصبة يبغضنا تمام البغض، كان يريد هو وعشيرته دائمًا إيقاع السيد الميرزا في المهالك. وأخذوا يتهمونه بالسحر وغيره.

وقد أنشد الميرزا في ذلك:

وهـــا أنـــا ذا نـــزيـــلُ قـــومٍ
لــحــاظُــهُــمُ ســهــامٌ أو رمــاحُ
ســيــقــضــي اللهُ بــيــنَــهــمُ وبــيــنــي
ويــبــدلــنــي بــأجــرِهَــا صــحــاحُ
طــعــامُــهُــمُ لــحــومُ بــنِــي حــســيــنٍ
شــرابُــهــمُ مــزاجٌ لا قــراحُ
مــودَّتُــنَــا بــقــولِ اللهِ فــرضٌ
ولــم يــثــبــتْ لــمُــبــغــضِــنَــا نــكــاحُ

بعد أيام كنا مع جماعة من المؤمنين الثقات من أصحابه حضور عنده في الدرس، نقرأ في أصول الكافي للشيخ الكليني، ومن الاتفاق كان درسُنا في ذلك اليوم في باب شهادة الحسين عليه السلام، فاخذ السيد الميرزا يتلو الأحاديث ويبكي بكاءً ما رُئي منه مثله، ثم سأل الله أن ينال الشهادة. ثم قال:

- وإني لأعلم أنهم يقتلونني ويرمون بجسدي من أعلى الدار، ويجرونني في الطّرق والأسواق، ولكن لا يفعلون لي ما فعلوا بزيد بن علي عليه السلام حيث تركوه أربع سنين مصلوبًا، بل يأتي سيد فيدفنني.

والتفت إلى الحاضرين عنده قائلًا:

- أنتم في حل مني وليست لي في أعناقكم بيعة، فإن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذُهلوا عن طلب غيري، ولابد لي من الشهادة، وأنتم وسبيلكم.

أنا لا أخشى القتل في سبيلِ الدين، وقد أرخت تاريخ وفاتي. فسأله السيد السند محمد سعيد الرضوي الهمداني عن لفظه، فأبى أن يذكره، ثم قال: إنه مكتوب في أحد مجلدات التسلية، فإذا وقعت الواقعة فانظروا فيها فإنكم ستجدونها.

عليكم أن تستغفروا من الاعتراض لأمر الله. إذا نلت مقام الشهادة فإني سأكون من جهة مجاورًا سيد الشهداء، ومن جهة مصاحبًا لسيد الأوصياء، ومن جهة أكون مرافقًا لسيدة النساء، ومن جهة مرافقًا لسيد الأنبياء. كل هذا يكون أفضل من أن أقضي عمري في الهند والسند والعراق وإيران. وستظهر خيانة الذين نافقوا فصاروا أعداء الإنسانية، ستظهر الخيانة من الجهات الأربع، إن السفينة لا تستقر إذا جاءتها الريح من الجهات الأربع، ولكن يدِ علي وصوت ذي الفقار يقضي على العدو المدعي.

بقيت هذه الكلمات تدور في رأس السيد أحمد، الابن الأكبر للسيد الميرزا، وحين رجعنا إلى المنزل. صعد لأبيه، وجده جالس فوق السطحِ يتوضأ، قال لأبيه:

- إن حديثك اليوم أقلقني عليك، فلماذا لا تمضي من هذه البلدة وأنت تعرف أنهم سوف يقتلونك؟

قال السيد الميرزا، وهو شبه مغضب:

- خذ العيال وانحدر إلى بعض الجزائر، فأنا باق وحدي في هذا المكان، لأني أعلم أني أينما ذهبت لا بد لي ولا مفر من الشهادة.

حين تتشابك المصالح، وتتلاطم أمواج الطموح، يصبح التاريخ مسرحًا لمؤامرات لا يراها إلا من كان في قلب العاصفة.

في غرّة محرم سنة (1232هـ)، الموافق 21 تشرين الثاني (1816م)، صدر الأمر العثماني بتعيين داوود باشا واليًا على العراق، لكن الأمر لم يرق سعيد باشا، الذي رفض التنحي عن منصبه، متشبثًا بحكم بغداد.

وبينما كانت الأوضاع في بغداد تزداد تأزمًا، اجتاحت المدينة مجاعة قاسية، جعلت الأرض تلفظ شحّها، والأنهار تنظر إلى أهلها دون أن تجود بقطرة أمل. كان المشهد قاتمًا، الأسواق خاوية، والبيوت يملؤها الهلع، حتى الهواء نفسه صار يثقل على الأنفاس.

لم يطل الانتظار طويلًا... فبعد شهرين فقط، في 18 صفر سنة (1232هـ) الموافق 7 كانون الثاني (1817م)، اندلعت المعركة الحاسمة بين أنصار سعيد باشا وأنصار داوود باشا عند باب المعظم. كانت المدافع تقصف السماء، فتشعلها نارًا ودخانًا، فيما سُمع صهيل الخيول وهي تندفع كالرياح الهائجة، ممزّقة سكون المدينة الذي طالما اعتاد أنين المصائب.

وفي لحظة فارقة، قلبت فرسان المنتفق بقيادة الشيخ حمود الثامر موازين الحرب، بعدما قادوا هجومًا مباغتًا زلزل كيان قوات داوود باشا، فتراجع مهزومًا، تاركًا بغداد خلفه.

ظنّ سعيد باشا أن النصر قد استتب له، فأغلق باب الحذر، وسمح لعشيرة المنتفق بالعودة إلى ديارهم، لتُفتح أبواب بغداد على مصراعيها، كأنها تتهيأ لعاصفة جديدة لم يكن يدري أنها آتية لا محالة.

لكن داوود باشا لم يكن رجلًا يقبل الهزيمة بسهولة... بدأ

يحوك خيوط ثأره بصبرٍ ودهاء. عاد وحاصر بغداد بجيشه، بينما أطلق أنصاره الإشاعات في كل زاوية وركن، يحرّضون الأهالي ضد سعيد باشا. لم يمضِ وقت طويل حتى تحوّلت المدينة إلى جحيم من الفوضى والاضطراب، انتشرت أعمال النهب والسلب، وتضاعفت أسعار الطعام حتى صار الخبز أثمن من الذهب. لم تعد بغداد تُحكم بالسيوف، بل بالخوف.

وفي تلك الأجواء المشحونة، وُلدت مؤامرة خبيثة، حُبكت خيوطها في الظلام، هدفها تصفية الميرزا محمد وسعيد باشا معًا. لأن الميرزا محمد كان مقربًا من سعيد باشا. فكان الميرزا كابوسًا يؤرّق داود باشا، فكان يخشى أن يعيد التاريخ نفسه، كما فعل بالقائد الروسي من قبل. وأما العلماء الأصوليون، فقد رأوا في قرب الميرزا من سعيد باشا خطرًا على نفوذهم، فتلاقت المصالح، والتقت الأيدي التي أمسكت بالخناجر نفسها، وطُبخت الخيانة على نارٍ هادئة.

ففي هذا الوقت كانت الفرصة سانحة للعلماء الأصوليين للتخلص من خصمهم وكذلك من سعيد باشا، لأنهم لم يكونوا مرتاحين من تقريبه للميرزا محمد وإعلاء منزلته دونهم.

وفي الوقت نفسه كان للشيخ موسى الفضل السابق على داود باشا، فقد توسط له عند الشاه في أحد الأيام لإطلاق سراحه عندما كان أسيرًا عندهم..

صار الشيخ موسى كاشف الغطاء والسيد محمد الطباطبائي، يعملان على تهيئة أسباب قتل السيد الميرزا.

وتركا قتل سعيد باشا لداود باشا. فكتب السيد محمد صورة استفتاء للشيخ موسى وبعثه له، وحاصله: (ما رأي حجة الله

على خلقه وأمينه في أرضه في رجل يؤلب على العلماء الصالحين، ويسعى في قتلهم إطفاءً لنور الدين).

وجاء جواب الشيخ موسى على هذا الاستفتاء كصاعقة خافتة في ليلة سوداء، وبقسوة لا تليق برحمة السماء وحكمتها، ووقّع تحته: (يجب على كل محب وموال، أن يبذل في قتله النفس والمال، وإلا فلا صلاة ولا صيام له، وليتبوأ من جهنم منزله).

فأخذ السيد محمد الطباطبائي حكم الشيخ موسى كاشف الغطاء وأمضاه، وبعثه إلى السيد عبد الله شُبّر، حينما رأى السيد شبر هذه الفتوى لم يتردد في الاعتراف بوجوب اتّباع حكم الشيخ موسى. وكذلك فعل باقي العلماء المعروفين هنالك كالسيد محسن صاحب المحصول، والشيخ أسد الله الكاظمي، الذين انحنوا أمام وطأة القسوة وحكموا بالحكم المروع نفسه، فتم الحكم على أحسن هيئة!.

أرسل السيد عبد الله شبر، وهو عند أهل الكاظمية بمنزلة الإمام، من ينشر هذه الفتوى وقراءتها على الخاص والعام، ودعا الناس إلى امتثالها، وأنها بحكم الشيخ موسى، وحكمه نافذ على كل من في دائرة الوجود! فعزموا على أن يهجموا على دار السيد الميرزا ليريحوا الناس منه.

في عصر يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة (1232هـ)، (15 فبراير/ شباط 1817م) كنا في البيت عشرة أشخاص، السيد الميرزا، وولداه السيد أحمد والسيد علي، والسيد مصطفى بن إسماعيل التستري، والشيخ أحمد الجزائري، والشيخ عباس الجزائري، والأخوان ناصر ومنصور من أهل نيشابور، وأحد الموالي وأنا.

ما أن أتممنا صلاة فريضتي الظهر والعصر. وانشغلنا

بالتسبيحات في صمت ملأ القلوب بالسكينة والراحة. سمعنا ضجيجًا عاليًا، وصخبًا يخترق الهدوء، اتبعه ضرب بالحجارة والنبال على الدار، كموجات بحر تتلاطم بشدة على ساحل متلاطم.

أخرج السيد الميرزا رأسه من الباب، فإذا هو سلطان ومعه رجال صغارًا وكبارًا، جمعهم من أهل القصبة، واستمالهم بالمال، يجمعهم الحقد والغضب، بعضهم يحمل مشاعل من نار، والبعض الآخر يحملون الحجارة، والبعض الآخر يحملون سيوفًا وسكاكين. كأنهم غيوم مظلمة تحجب شمس الحقيقة. فقال لهم السيد الميرزا:

- ماذا فعلت لكم أيها الناس، وما هو ذنبي، وماذا جنيت، لماذا تهاجمون داري؟!.

أخذنا نذود عنه، حتى رجع السيد إلى موضع مصلاه في الغرفة الفوقانية.

في هذه الفوضى العارمة، اضطربت أرواح العائلة بخليطٍ من الهلع والفزع، وتقلبت قلوب النساء بين الصدمة والرعب، وعلا صوت الأطفال بالنشيج وبالبكاء.

تقدم على الدار ثلاثة من الأشقياء، عيونهم تلمع بمكر، وقلوبهم تشتعل غيظًا. وقفوا عند الباب، تلمّسوه بأيديهم المرتجفة، ولكنهم لم يجدوا أثرًا للباب! أعمى الله أبصارهم، كما عميت قلوبهم، تحسّسوا الحجارة والخشب، تحرّكوا هنا وهناك، ثم همس أحدهم بصوت مرتجف:

- لقد أغشانا بسحره!

صاح سلطان على أصحابه بصوت ممزوج بين القسوة والعنف:

- عليكم بالسطح، ادخلوا المنزل من سطح المنزل.

الغضب كان وقودهم، فأصرّوا على المضيّ قدمًا. تسوروا الجدران بخفة الذئاب، تسلّقوا السطح كأنهم شياطين زاحفة، حتى بلغوا الغرفة التي ينام فيها، وحفروا سقفها بأيدي الحقد. وما إن أوشكوا على اقتحامها حتى ارتدّوا إلى الخلف كأن قوة خفيّة دفعتهم! كانت عيونهم تحدّق في مشهد لم يخطر لهم في أسوأ كوابيسهم.

عفاريت تتلوّى في العتمة، حيات ضخمة تفغر أفواهها، أنيابها تقطر سمًا، تزحف إليهم وكأنها خُلقت خصوصًا لتبتلعهم! تسمرّت أقدامهم في أماكنهم، تراجعوا خطوة إلى الوراء، تشابكت نظراتهم بالذعر، لكنهم سرعان ما تداركوا أنفسهم، فهجموا من جديد، ظنًّا منهم أن ما رأوه ليس إلا وهمًا صنعه الخوف في عقولهم.

في اللحظة التي لامست فيها أيديهم الباب، انبعث زئيرٌ مرعب، كأنه صوت قادم من أغوار الجحيم! كانت أمامهم عينان متوهجتان كجمرتين في الليل، يتطاير الشرر منهما، وجسد مهيب يلوح في العتمة... أسد! يقف عند العتبة، يزمجر بشراسة، أنيابه تلمع تحت ضوء القمر، كأنها سيوف مسلولة تنتظر أن تمزقهم إربًا إربًا.

أحسّوا برعشة الموت تزحف إلى أرواحهم، تصبّب العرق من جباههم، وشعروا أن كل شيء من حولهم يطبق على صدورهم، أرادوا الفرار، لكن الخوف كان قد شلّ أطرافهم.

وفجأة، وسط ذلك الهلع، ارتفعت أنفاس الليل الثقيلة، وانشقّ الظلام عن رجل شامخٍ كالنور في منتصف العتمة. كان يقف هناك، بثوب من الهيبةٍ، نظراته تسبر أغوارهم، تخترق

قلوبهم كالسهم، فتشعل فيها رجفة لم يعرفوها من قبل. لم يكن وحده، كان محاطًا بهالة من النور، كأنها جدران من اليقين تحرسه من أيدي الباطل، فصاح الميرزا محمد في وجه أحدهم؛ فجُنّ من وقته.

قال أحدهم: يا قوم، إني سمعت من الشيخ موسى يقول: أنا ضامن على الله الجنة لمن يقتل هذا!، وأنا صاحب ذنوب كثيرة، وقد عزمتُ على الخوض في هذه النار؛ فلعلي أحظى بعدها بجنات تجري من تحتها الأنهار..

لم نعلم بأن هؤلاء الثلاثة حفروا السطح. فتجمعنا حول باب الدار، ثم حملنا عليهم، فحملوا علينا جميعهم، وشتتونا لكثرتهم، ولم يدر أحد منا ما صار بصاحبه، وأخذ كل واحد منا يحارب من جانبه. وأشعلوا النيران في الدار.

وسط هذه الفوضى العارمة، خرج سيد علي، الابن الأصغر، يبحث عن أخيه السيد أحمد. كان القلق ينهش صدره، خطا بحذر، حتى لمح مشهدًا أيقظ الرعب في أوصاله، أخوه مطروحٌ على الأرض، وفوقه رجل، يحاول أن يغرس الموت في جسده.

لم يفكر، لم يتردد، بل اندفع كالسهم، ممسكًا بسكين كانت في يده، وانقضّ على الرجل بضربةٍ خاطفة. تأوه المعتدي، وتراجع مترنحًا، مما أتاح لأحمد أن ينهض، لكنه كان يترنح هو الآخر، فقد جرح في خده الأيمن، قريبًا من شفتيه.

دخلا البيت مسرعين، وهرعت إليهما أمهما، وما إن وقع بصرها على أحمد حتى شهقت بفزع. صرخت وارتفع نحيبها، ثم لم تجد غير مقنعتها، فشدتها من على رأسها ووضعتها على خده الجريح، تحاول أن توقف نزف الألم قبل أن يغرق قلبها أكثر.

تسلل أحد المعتدين إلى الغرفة، حيث كان الصغيران

عبد النبي وعبد الصانع يختبئان، متشبثين أحدهما بالآخر كعصفورين واهنين في وجه العاصفة. ارتجفت القلوب حين انقضّ الرجل على الطفلين، فصرخ عبد الصانع قبل أن يغشى عليه من هول المشهد، بينما امتدت يد المهاجم القاسية لترفع السيف فوق رقبة عبد النبي.

كان كل شيء يسير نحو المأساة، لولا صوت أمٍ ممزقٍ بالعويل، اقتحم المشهد كسهم ناري. اندفعت الأم بجنون، عيناها تشتعلان رجاءً وألمًا، وانحنت أمام الرجل، تتوسل إليه بقلبها قبل كلماتها، أن لا يزهق روح طفلها. للحظة، توقف الزمن، ثم تراجع المعتدي، وخفض سيفه عن عنق الصغير، ليتلقفه حضن أمه المرتعش. ضمتهما إلى صدرها وكأنها تريد أن تخبئهما من العالم بأسره، قبل أن تفرّ بهما بعيدًا عن ليلٍ تلطخ بالدم.

احتدم الصراع، وأحاط القوم بالسيد أحمد كما تحيط الذئاب بفريستها، لكنه لم يتراجع. بيدٍ ثابتة وقلبٍ جسور، راح يذود عن نفسه بسيفه، يصد الضربات، ويشق طريقه وسط الدائرة الخانقة التي ضاقت عليه أكثر فأكثر. لكنّ الكثرة غلبت الشجاعة، والسيوف تهاوت عليه كالمطر.

تلقى جرحًا آخر، لكنّه لم يسقط، بل ظل يقاتل حتى كُسر سيفه، فبقي أعزل إلا من عزيمته. لم يمهلوه طويلًا، إذ انقض أحدهم بضربة قاسية على يده اليمنى، فارتجّت أطرافه، لكنه ظل واقفًا، يواجههم بعينين تتقدان كبرياءً. ثم أتاه آخر، فسدد إليه ضربة أخرى على يده اليسرى، فشُلّت، وسقط السيف المهشم من قبضته، ومعه تداعت قوته. تهاوى جسده المثخن بالجراح إلى الأرض، وسرعان ما غشي عليه، بينما وقف المعتدون حوله، تتنفس سيوفهم بقايا الغدر.

وسط فوضى الدمار وصليل السيوف، جاء منصور يترنّح، جسده مثقل بالجراح، لكنّ روحه لم تنكسر. بعينين يملؤهما القلق، سأل عن السيد الميرزا، فأجبته بأنه في غرفته. لم يكن هناك وقت للتردد، فاندفعنا معًا نحو الدرج، فلم نقدر لكثرة المجتمعين حول الباب. لم يكن أمامنا سوى القتال، فتقدّمنا بشجاعة، نضرب بسيوفنا ونحاول اختراق الطوق الحديدي الذي فرضه المعتدون.

وأخيرًا، انفتح الباب وسط نيران المعركة، واندفع منه الشيخ أحمد والشيخ عباس، لكن الباقين لم يحالفهم الحظ، فقد وقعت أقدارهم في الأسر. وبينما كانت الفوضى تعصف بالمكان، جاءت العلوية أم أحمد، والدموع تتلألأ في عينيها، واختطفت ابنها السيد علي، تحمله بين ذراعيها المرتعشتين، ثم أسرعت به إلى السرداب، تخبئه بعيدًا عن براثن العنف.

أما الأخوان ناصر ومنصور، فقد أبوا إلا أن يقفا كالجدار الأخير دفاعًا عن السيد الميرزا، غير مباليين بسيوف الغدر التي أحاطت بهما. قاوما ببسالة، سيوفهما تقطع الهواء كوميض البرق، حتى أثخنتهما الجراح، وسقطا أرضًا، جسدان منهكان، وعيون لا تزال مشتعلة بالإصرار. ومع آخر ضربة تلقياها، غشي عليهما، وسكنت المعركة لحظة، بينما ظلّت أصداء السيوف ترنّ في الهواء، شاهدة على بسالتهما التي لم يهزمها الغدر.

وسط ضجيج المعركة وصراخ الجرحى، خرجت عليهم جارية من دارنا، تحمل بين يديها المصحف الشريف، ترفعه كدرع مقدّس، ودموعها تنهمر كالمطر. بصوت مرتعش، توسّلت إليهم، تحلفهم بالله، ترجّوهم أن يكفّوا عن بطشهم، أن يراعوا

حرمة المكان، وحرمة الكتاب الذي يحمل بين دفتيه كلام الله. لكن القلوب التي أمامها كانت كالحجارة، بل أشدّ قسوة.

لم يتردّدوا لحظة، بل رشقوها بالحجارة، فأصاب المصحف الذي بين يديها، وارتجّ المشهد كأنه صاعقة أصابت الأرض. تفرّقت أوراقه، تساقطت صفحاته، كأنها أوراق خريف ممزقة، تتطاير في الهواء ثم تهوي إلى التراب. صرخت الجارية بحرقة، انحنت تحاول جمع الأجزاء، لكنهم لم يمهلوها. انهالوا عليها بالسياط، يضربونها بلا رحمة، كل جلدة تترك أثرًا، كل صرخة تمزّق سكون المساء. ومع كل ضربة، كان المشهد يغرق أكثر في وحشيّة لا تعرف للإنسانية معنى، وكأنما كانت تلك الليلة لعنة حلّت على كل شيء مقدّس.

في تلك اللحظة المهيبة، اجتمعوا حول السيد الميرزا، بعد أن صار وحيدًا، لا أحد بجانبه سوى ابنته زينب، تلك الفتاة التي لم تعرف من الحياة إلا ظل أبيها وحنانه. كانت تلوذ به، تشدّ عباءته بيدين صغيرتين مرتجفتين، وترفع عينيها المبللتين بالدموع نحو القوم، تلتمس منهم الرحمة، تستجدي إنسانيتهم، ولكن لا حياة لمن تنادي. بدلًا من أن يُشفقوا عليها، رشقوها بالحجارة، فسقطت على الأرض، تمسك بركبتي أبيها وهي تنتحب.

امتدت يد الميرزا إلى سيفه، قبض عليه بقوة، ونهض بكل ما بقي في جسده من طاقة. كأنما استمدّ من صرخة ابنته قوة لم يكن يدري أنها ما زالت كامنة فيه. رفع السيف وصاح من أعماقه:

- يا جداه! يا جداه!

كأنه ينادي التاريخ ليشهد على ما يحدث. لكن ما إن همّ بمهاجمتهم، حتى انبرى له رجل يدعى (مهدي)، فضربه على أم رأسه ضربة شقّت فروة رأسه، فتدفق الدم كالسيل، يخضّب

لحيته، ويسيل على جبينه. تهاوى الميرزا قليلًا، لكنه لم يسقط، بل رفع يديه المرتجفتين، وقال بصوت خاشع:

- دخيل الله! دخيل الرسول!

وكأنما يتوسل إلى السماء أن تشهد على الظلم. لكن كلما نطق بذلك، زاده الرجل ضربًا، كأنما كانت كلماته وقودًا لحقدهم.

أما زينب، فقد ارتمت على يديه، تفركهما وكأنها تحاول أن تعيد الدماء إلى عروقه، لكن ضعف الجسد كان قد غلبه، وبدأ يقرأ دعاء العديلة بصوت رفيع، صوت فيه يقين الفناء، كأنما كان يودّع الدنيا وهو يناجي ربه. دفعوها بعيدًا عنه، فارتطم جسدها النحيل بالجدار، لكنها لم تصمت، بل صرخت بكل ما تملك من قوة، صرخة لم تهزّ إلا قلب أبيها، لأن قلوبهم كانت قد تحجّرت. رشقوها بالحجارة حتى خرّت على الأرض، تبكي بكاءً يقطّع نياط القلوب.

وقف الميرزا بصعوبة، يترنح بين الحياة والموت، وحمل سيفه من جديد. نظر إليهم بعينين متقدتين بالغضب والألم، وقال بصوت تهدّج من النزف والخذلان:

- أما تعرفونني؟ أما تدرون بعلمي ودرايتي ومنافعي لكم؟ خذوا ما تريدون من الأموال وخلّوا سبيلي، أو خذوني إلى من أمر بقتلي!

لكنهم لم يترددوا في الردّ، بصوت مملوء بالحقد، صاح أحدهم:

- نعرفك، ولن نخلي سبيلك حتى نقتلك!

في تلك اللحظة المشؤومة، انبرى شقيّ أعور، يُدعى تقي،

وكم في اسمه من مفارقة مريرة، فقد كان أسمى ما يفتقده. بيد مرتجفة بالحقد، رفع سهمًا مسمومًا، وسدّده إلى حلقوم السيد الميرزا، فانطلق كنيزك أسود في سماء مظلمة، ليستقر حيث نطق ذلك الحلق مرارًا بالحكمة والرحمة. خرّ الميرزا سريعًا على خده الأيسر، يتلوى بين الألم والخذلان، لكن وجهه ظلّ هادئًا، كأنما يسلم أمره إلى السماء.

لم يكتفِ القوم بسقوطه، بل أقبل عليه شقيّ آخر، يُدعى سلمان، مع ابن أخ له اسمه محمد، ومعهم مهدي وتقي، وجوههم تنضح بالحقد، وأعينهم متقدة بنار الكراهية. لم يكونوا من أهل القصبة، بل من الستة عشر من أهل النجف من رجال الشيخ موسى، أرادوا حزّ رأس الميرزا، فحاولوا مرارًا وتكرارًا، لكن عنقه استعصى على سيوفهم، كأنما أبت الأرض أن تسلّمهم أمانتها. جاهدوا بكل ما أوتوا من قوة، غير أن النصل لم يفلح في شقّ طريقه عبر ذلك الجسد الطاهر. كأنما كانت العدالة نفسها تتدخل، تمنعهم من إتمام جريمتهم، ليذوقوا العجز الذي لطالما زرعوه في قلوب الأبرياء.

وحين عجزت سيوفهم عن الفصل بين الرأس والجسد، استشاطوا غضبًا، فصاروا ينهالون عليه ضربًا، طعنًا، وتمزيقًا، بسيوفهم وخناجرهم، وكأنهم يريدون تمزيق حتى ظلّه الذي ظلّ يخيفهم. لكنه، رغم النزف، رغم الجراح، لم يطلق سوى صمت مهيب، كأنما غادر روحه الجسد قبل أن يغادروه هم. وفي النهاية، حين فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، عمّ المكان سكون ثقيل، وكأن الزمن توقّف إجلالًا لرجل لم ينحنِ إلا لله.

أفاق السيد أحمد من غيبوبته على وقع الألم والخذلان، جسده المثقل بالجراح يرتعش، ونفسه تلهث من هول الفاجعة.

تحسس دماءه المتخثرة، رفع رأسه بصعوبة، وحدّق حوله بعينين غارقتين بالذهول. أدرك أنه ما زال حيًا، لكن قلبه كان ينزف أكثر من جسده.

بصوت متحشرج، خرجت من شفتيه همسة أشبه بالرجاء:

- من يأتيني بشربة ماء؟

فنهض رجل من بين القوم، امتدت يده نحو جرّة الماء، لكنه لم يكد يخطو بها نحوه حتى انقضّ عليه أحد الأشقياء، اختطف الإناء من يده، ثم ألقاه على الأرض، فتناثر فخار الحِبّ وامتزج الماء بالتراب، كأنما أرادوا حرمانه حتى من رحمة قطرة أخيرة.

نظر السيد أحمد إلى والده، فرأى المشهد الذي مزّق روحه. كان جسد السيد الميرزا مسجّى على الأرض، وقد خضبت دماؤه ثيابه، فيما كانت عيناه مغمضتين كأنما نام قريرًا بعد جهاد طويل. لم يتمالك نفسه، فصرخ صرخة هزّت صمت الموت، نداءً ممزوجًا بالألم والأسى: «أبتاه! أبتاه!»

لم يمهله القوم طويلًا، إذ دنا منه رجل ممتلئ بالحقد، حدّق إليه بعينين موحشتين، وتكلم بالفارسية بلهجة ساخرة:

- ميرزا أحمد! ما زلت حيًا؟

رفع السيد أحمد بصره إليه، كان يدرك أن النهاية قد اقتربت، لكنه لم يستسلم، رفع يديه بتضرّع، وكأنما يلقي حجته الأخيرة على العالم، قال بصوت يقطر ألمًا:

- دخيل الله، دخيل الرسول، دخيل موسى بن جعفر... ماذا تريدون مني وقد قتلتم أبي ونلتم منه؟

لكن الرجل لم يسمعه، أو ربما لم يرد أن يسمع. رفع سيفه، وفي لحظة خاطفة، شقّ جبين السيد أحمد بضربة قاسية، فتراجع

جسده قليلًا، ثم هوى على الأرض بلا حراك. تهاوت روحه الطاهرة إلى السماء، لتنضم إلى روح أبيه، بينما بقيت الأرض تئنّ من فاجعتها، وتلعن الظالمين.

لم يكتفوا بقتل السيد الميرزا، ولا بقتل ولده وبعض من كان معه، ولا بترويع النساء والأطفال، بل ازداد حقدهم توحشًا، كأنما لم تشفِ دماؤه ظمأ قلوبهم السوداء. لم يرحموا جسده المسجّى، ولم تردعهم حرمة الموت. بل عمدوا إليه، ورفعوه بغلظة من الأرض، ثم حملوه إلى حافة السطح.

هناك، عند حافة الدار، وقفوا لحظة يتبادلون نظرات الشماتة، ثم دفعوا جسده الطاهر من الأعلى، فتهاوى في الهواء، ارتطم بالأرض، وتردد صدى سقوطه بين الأزقة كأنها شهقة المدينة الحزينة. لم يكتفوا بذلك، بل لفّوا رجليه بحبل خشن، وربطوه بإحكام، ثم جرّوه في الأزقة والأسواق، يطوفون به بين الطرقات كأنهم يعلنون انتصارهم على من لم يكن يحمل إلا سيف الحق وكلمة العلم.

البعض كان يرميه بالحجارة، كأنهم يريدون تمزيق جسد لا حياة فيه، وآخرون كانوا ينهالون عليه بالسيوف، وكأنهم يحاربون رجلًا يقاتلهم، رغم أنه لم يبقَ منه إلا أشلاء الشهادة. مزّقت الضربات ثيابه، وتبعثر رداؤه بين الطرقات، فيما كانت وجوههم تفيض نشوةً، وشفاههم ترتسم عليها ابتسامات الظفر المخزي.

وعلى أسطح المنازل، علت زغاريد النساء، وهنّ يتهللن فرحًا، كأنما يحتفلن بعرس الجريمة، بينما كانت السماء تغلي غضبًا، والشوارع تحفظ آثار الجسد الطاهر الذي سُحل ظلمًا، وصار ترابه شاهدًا على ليلة سوداء لم ولن تُنسى.

ثم حملوه إلى خارج القصبة، حيث الصمت يخيّم إلا من صدى خطواتهم الثقيلة التي تجرُّ خلفها ظلّ الجريمة. كان الليل يرخي سدوله، وكأنّه يريد أن يغطي فضيحتهم، لكن النجوم كانت شاهدة، والهواء كان مثقلًا بأنفاس الأسى.

وهناك، بين ظلال الدجى، خرج السيد السند، والكهف المعتمد، التقي النقي، السيد رضا، بقلب يفيض بالحزن، وعينين تخنقهما الدموع. تقدم بخطى متثاقلة، وهو يرى الجسد الذي كان يومًا مهيبًا بين العلماء، ملقى على التراب، بلا حول ولا قوة، لا يكسوه إلا ثوبه الممزق وسرواله المشقق، كأنما ظلم الدنيا اجتمع كله في هذه الصورة.

لم يحتمل المشهد، فخلع كساءه، ومدّه على جسد السيد الميرزا، كأنما يريد أن يعيد له بعضًا من كرامته المسلوبة، ثم وقف عند رأسه وبكى، دموعه تغسل شيئًا من رجس الجريمة، وصوته المخنوق يتهدج بالدعاء. لم يتركه نهبًا لأعين القتلة المتشفّين، بل دفع عن جنازته الأذى، وأخّر تغسيله إلى العشاء الآخرة، خوفًا من أن تتحلق حوله تلك الفرقة الفاجرة، فتزيد من دنَسها على جسدٍ طاهرٍ ذاق من ظلمهم ما يكفي.

وحين هدأت الأجواء، وأرخى الليل سدوله، غسله السيد رضا بيدين ترتجفان، وكأنه يغسل الجرح الأخير في قلب الأمة، ثم لفّه بالكفن، وصلى عليه صلاة الفرض، حيث لم يبقَ هناك إلا القلوب التي تنزف، والأرواح التي تحمل الوداع الأخير.

وفي مكانٍ عالٍ من الأرض، عند باب القصبة، باب بغداد، في مقابر قريش، وارى الجسد تحت التراب، كأنما عاد إلى رحاب الطهر، بعيدًا عن أيدي الظلم، ليكون قبره شاهدًا على جريمة لا تموت، وحزنًا لا يُنسى.

بعد أن ارتوت سيوفهم من دم الأبرياء، انطلقت أياديهم تعبث في البيت، كذئاب جائعة لا تعرف الشبع. نهبوا كل ما وقع تحت أعينهم من الأثاث والأموال، حتى لم يتركوا شيئًا إلا جردوه من قيمته. لم يسلم منهم أحد، فالنساء والأطفال كانوا هدفًا آخر لجشعهم، فانتزعوا الحليّ من أعناقهن، وسلبوا ما عليهن من ثياب دون وازع أو رحمة.

وسط هذه الجحيم، تقدم رجل من بين الجموع، كان وجهه يحمل شيئًا من الإنسانية لم تلوثه وحشية الآخرين. نظر إلينا بعينين تضجان بالقلق، ثم قال بصوت خافت، يكاد يختنق بين ضجيج النيران وصراخ المنهوبين:

- تعالوا معي، سأخفيكم عن أنظارهم.

لم يكن أمامنا سوى الامتثال، فقادنا إلى سرداب مظلم، بالكاد يتسع لنا، ثم أغلق الباب علينا بإحكام، تاركًا إيانا في عتمة موحشة، لكنها كانت أرحم من وحشية الخارج.

بعد لحظات، علت أصوات الضحكات الوحشية، تبعها صوت فرقعة النار، كأنها تصفق لرقصة الدمار التي أشعلوها. ألسنة اللهب راحت تلتهم الجدران، تلتهم الذكريات، تلتهم كل أثر كان يومًا شاهدًا على حياة مضت.

كنا في ظلام السرداب، نكتم أنفاسنا، نستمع إلى الحريق وهو يزأر فوق رؤوسنا، ولا نملك سوى الدموع التي تسيل بصمت، حدادًا على كل ما ضاع منا في تلك الليلة المشؤومة.

انتشر الخبر في البلدان كالنار في الهشيم، يرويه الناس بين دهشةٍ وذهول، كيف يُقتل عالمٌ جليلٌ بهذه الوحشية، وكيف تُنتهك حرمة العلم والدين معًا؟ لكن في زاويةٍ أخرى من المشهد،

كان للظلم احتفاله، وللخيانة مهرجانها، فقد كافأ المعتدون أنصارهم بسخاء، وأغدقوا الجوائز على الآمرين بالجريمة، ومن تلطخت أيديهم بدم الطهارة، فأعطوا عبيد الله وسلطان ما يُرضي طمعهم، وكأن القتل عندهم إنجازٌ يُكافأ عليه.

أما الشيخ موسى، فلم يكتفِ بأن يرى خصمه صريعًا، بل جعل من موته مناسبةً للفرح، إذ زُفّ إلى زوجته التي كان قد عقد عليها. وازدانت بيوت الظلم بالأضواء، وضجّت الأفراح بالهتاف، وكأنهم يحتفلون بولادة عصرٍ جديد.

لم يقتصر الاحتفال على الأهازيج والطبول، بل امتد إلى الشعراء الذين باعوا أقلامهم للظالم، فوقفوا ينشدون القصائد، يمدحون القاتل، ويهتفون باسمه، وكأن الدماء التي لم تجف بعد، لم تكن إلا مدادًا لحروفهم الخائنة. وبينما كانت الدموع تنهمر في بيوت المكلومين، كان صوت الناي يعلو في مجالس المنتصرين، وبينما كانت الأرواح تبكي الشهيد، كانت الأقدام تدق الأرض طربًا، وكأن الظلم كتب سطور انتصاره الأخير!.

فقال الشيخ صالح التميمي متزلفًا للشيخ موسى بهجاء السيد الميرزا فيها جاء فيها:

عجبتُ لقومٍ حاربوكَ بسحرِهِم
نفاقًا وهل موسى يحاربُ بالسِّحرِ

وقال السيد باقر الكاظمي يهجو السيد أيضًا:

وقتلتَ فرعونَ المظالِمِ مذ بنى
صرحًا من الطُّغيانِ والإغواءِ

وبعد أيام قُتل سعيد باشا على يد سيد عليوي رئيسِ الانكشاريّة، وجده لائذًا بحضن أمه، فهوى عليه بالبلطة وقطع رأسه غير آبه لتوسلها، فتدحرج الرأس أمامها وبقي جسده في يدها.

الخاتمة

بعد شهرين من بقائنا في ضيافة الشيخ باقر الخزاعي، وهدوء الأوضاع، جلس الميرزا علي مع الشيخ باقر، بعد أن غفت الشمس وغابت أشرعة السماء، وبينما تتمايل أوراق الأشجار بلطف مع همس الرياح، اندمجت أصوات الطبيعة مع حديثهما الودي. أبدى له الميرزا علي شكره وامتنانه العميق على كرم ضيافته ولطفه ورعايته، والاهتمام الذي لا يمكن وصفه بالكلمات.

- أشكرك من كل قلبي، يا شيخ باقر، على حسن ضيافتك وكرمك الذي لا يضاهى..

تبسم الشيخ باقر الخزاعي، وقد انعكست أضواء الفوانيس الخافتة على ملامحه الهادئة، وهو ينظر إلى الميرزا علي بعينين تحملان مزيجًا من الود والحزن. حرّك مسبحته بين أصابعه بتؤدة، ثم قال بصوت مفعم بالمحبة:

- هو واجبي، يا ميرزا علي، فأنتم أهل الدار قبل أن تكونوا ضيوفًا. ولتعلم أن لك في هذه البلدة بيتًا لا يغلق بابه أبدًا.

تنهد الميرزا علي، وعيناه تسرحان في الأفق الذي غطّته نجوم المساء، ثم ردّ بنبرة يملؤها الحنين:

- يا شيخ باقر، لا تعلم كم تعني لي كلماتك، ولا أستطيع أن أصف لك مدى تأثري بهذا الكرم الذي غمرتني به.

لكن القلب مثقل بالأحزان، والمآسي التي حلّت بنا لم تدع لي خيارًا غير الترحال والبحث عن ملجأ يضمن لي ولمن تبقى معي بعض الطمأنينة. فإنني أطلب الإذن منك على مغادرة البلدة.

ساد الصمت بينهما برهة، لم يقطعه سوى نسمات الليل التي داعبت الستائر، وكأنها تشاركهما في الحديث. أخيرًا، أطرق الشيخ باقر قليلًا، ثم رفع رأسه بابتسامة يغلفها الأسى، وقال:

- لكن، أما كان بالإمكان أن تطيلوا البقاء قليلًا؟ لقد ألفنا صحبتكم، واعتدنا نوركم في مجالسنا.

نظر الميرزا علي إلى الشيخ باقر الخزاعي بعينين يغشاهما التأثر، وقد انكسرت نظراته بين امتنان عميق وإحساس بالمسؤولية الثقيلة التي ورثها عن أبيه. كان الليل قد أرخى سدوله، وأخذت النجوم تتلألأ في قبة السماء، شاهدةً على هذا الحوار الذي تنبعث منه أصداء الماضي وتتردد فيه آمال المستقبل.

- لو كان لنا أن نبقى، لما غادرنا أبدًا، ولكنها الأقدار تأخذنا حيث تشاء، وعليّ أن أمضي في طريقي.

هزّ الشيخ باقر رأسه بأسى، ثم وضع يده على كتف الميرزا علي، كأنه يريد أن ينقل إليه بعض السكينة من قلبه الكبير، وقال بنبرة أبوية:

- أعلمُ يا بني ما تمرّ به، لكن الأرض التي رويت بدماء الشهداء لا يجوز أن تُترك. أنا أرى فيك بريق العلم والنور، ورجائي منك أن لا تغادر البلد، بل تذهب إلى النجف الأشرف لتدرس العلم وتكون حلقة ضمن السلسلة التي بدأ بها أبوك الشهيد المظلوم، فالعلم هو السلاح الذي سيجعلك

أقوى من الظلم والاضطهاد. ومن جانبي فأنا أتعهد لك بكل ما تحتاج إليه، فلا تقلق بشأن شيء.

صمت الميرزا علي طويلًا، كأنما يحاول ترتيب أفكاره وسط هذا الإلحاح الكريم، وعيناه تتأملان النجوم التي بدت كأنها تهمس له بأحاديث القدر، والرسالة العميقة التي يجب أن يتحملها.

طلب أن يتشاور مع عائلته، إلا أن العلوية زوجة الشهيد الميرزا أحمد، الابن البكر، قررت أن تذهب إلى أهلها في سبزوار، وتأخذ ولديها عبد النبي وعبد الصانع معها.

بعدها أبدى الميرزا علي موافقته واستعداده، انعكست بسمة الشكر على وجهه، وتألقت عيناه ببريق التبجيل والاحترام. ثم ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال بصوت خاشع:

- إذا كانت هذه مشيئة الله، فلن أخالفها. سأذهب إلى النجف، وأحمل راية أبي، وسأبقى مدينًا لك ما حييت، يا شيخ باقر.

في تلك اللحظة، مرّت نسمات الليل الباردة، كأنها تُبارك هذا العهد الذي قُطِع تحت سماء صافية، تشهد على لقاء سيظل محفورًا في الذاكرة ما دامت النجوم تضيء ظلمة الليل.

قال الشيخ وهو رافع يديه نحو السماء:

- نسأل الله أن يحفظك من كل بلاء ومكروه، وأن يكون شأنك عاليًا كأبيك (دام ظله).

نظرت إلى الشيخ نظرة استغراب واستفهام، أن السيد الميرزا قد انتقل إلى جوار ربه، وكلمة (دام ظله) تطلق على الأحياء، لا على الأموات. نظر إلي الشيخ وكأنه فهم ما يدور بخلدي:

- وإن مات سيدنا الميرزا، فإن ظله سوف يدوم علينا بعلمه وآثاره وآرائه.

دارت الدموع في عيوننا، ودعونا الله أن يمن عليه برحمته، وأن يحشره مع أوليائه. خيمت أجواء الحزن والأسى على كل شيء من حولنا، كأن الدنيا تحتجب خلف ستارة من الحزن والغم، ويغمرنا الحنين لذكريات الأيام الجميلة التي قضيناها برفقته، وكم نعتقد بأنها كانت أجمل أيام حياتنا.

تتساقط الدموع كمطر هادئ على وجوهنا، وتتمزق قلوبنا بشدة كلما تبادر إلى أذهننا لحظات الفراق الأليمة، وكيف تمزقت أحلامنا وآمالنا برحيله. ننظر إلى السماء بعيونٍ ممتلئة بالحنين والشوق، نتساءل في صمت عميق عن كيفية تخلصنا من هذا الحزن الذي يعتصر أرواحنا.

نحن هنا، في وسط دائرة الحزن اللافت، نحاول بكل جد واجتهاد تخفيف هذا الألم الذي يعترينا، ولكن الحنين والشوق يبقيان موجودين دائمًا في أعماقنا، يذكرنا بأن الفقيد كان جزءًا لا يتجزأ من حياتنا، وسيظل علامة من علامات الحب والوفاء في قلوبنا إلى الأبد.

لحفظ تراث والده، قام الميرزا علي بنسخ بعض ما تبقى من كتب والده، دخلت عليه وجدته في زاوية صغيرة من غرفته المعتمة، بين يديه كتب وأوراق وقراطيس متهرئة، أنامله تتسلل برقة فوق الكتب، يقلب الأوراق ببطء، عيناه تنزلقان فوق الكلمات، وقلبه يتسارع مع كل صفحة يقلبها. وكأن كل صفحة تثير في ذاكرته ذكريات مدفونة في أعماقه. وجهه يعبر عن خليط من الحزن والشوق. بدأت الدموع تتساقط بصمت، كل دمعة تروي قصة مختلفة من قصص حياة أبيه.

وكأن الحروف والكلمات تتصاعد من الصفحات لتأخذه في جولة عبر الذكريات، حيث اجتاحتها عواصف الحياة، ولكنها بقيت صامدة كشاهدة على مرور الزمن.

كان الكتاب الذي بين يديه (تسلية القلوب الحزينة)، ذلك الكتاب الذي رافق أباه في رحلة الحياة، وكان شاهدًا على أحلامه وتطلعاته وألمه. كل صفحة تكشف عن طموحاته المخبأة، وعن الآلام التي تركت جروحًا في قلبه. والأحداث التي مر بها، والأشخاص الذين ارتبط بهم. بل وشاهد أيضًا على تاريخ وفاته.

فجأة علا صوت بكائه، انتبهت له، وجدت بين يديه قرطاسًا مصبوغًا، طوله إصبع، خطت عليه بعض الكلمات. اقتربت منه فأعطاني القرطاس، فإذا مكتوب عليه بيت من الشعر بخط الميرزا محمد (رضوان الله عليه):

ظفرتُ وأخبَرتكَ بالنَّبأ
(صدوقٌ غَلَب) صار تاريُخنَا

وبحساب الجمل الكبير (صدوقٌ غَلَب) تساوي (1232هـ) وهو التاريخ الذي تنبأ الميرزا محمد فيه مقتله.

في تلك اللحظات، تحولت دموع الحزن إلى دموع الامتنان، فقد اكتشف الميرزا علي أنه ورث ليس فقط كتب أبيه، بل تاريخًا حيًا يختزن في صفحاته التي لا تفنى.



سافر الميرزا علي إلى النجف تاركًا عائلته في المدينة، وسكن هو في أحد البيوت بعدما غير اسمه خوفًا وتقيّة. وفي أيام التعطيل يرجع إلى عائلته. إلى أن أصبح من نوابغ عصره في الفقه والحديث والعلوم الغريبة.

في إحدى ليالي شهر رمضان، كان ناصر باشا أمير المنتفك، سائرًا أثناء الليل، فسمع دويًا غريبًا من أحد البيوت، فخشع له قلبه وارتجفت أعضاؤه، دناه منه، سمع أصواتًا تستغيث بقولهم: (الغَوْثَ الغَوْثَ، خَلِّصْنَا مِنَ النَّارِ يَا رَبِّ) فأراد أن يعرف ماذا يجري!؛ وإذا بشاب على وجهه ضياء الصالحين، وحوله مجموعة من المؤمنين. فدُهش الأمير لهذا المنظر، وسأل عنه، فقيل له: إنه رجل روحاني من طلبة العلوم الدينية وهؤلاء جماعته ومريدوه، وهذا الدعاء اسمه (الجوشن الكبير) يدعى به في ليالي القدر.

فعزم على أن ينزل ضيفًا عنده، وبعد ذلك أكرمه وأقطعه قطعة من الأرض في (السورة)، فصارت مكان إقامته ومركزه، والتف حوله جماعة بث فيهم روح العلم والتقى، عرفت بجماعة المؤمنين، وأصبحت القرية فيما بعد تسمى (بقرية المؤمنين).

بعد ذلك وهب له الشيخ باقر بستانًا وزوّجه ابنته، وأخذ يصلي في المسجد الموجود في القرية، واستمر على هذا الحال.. وأسس حلقة هي نواة لمدرسة صغيرة تُدرّس فيها أوليات الدين، وبسطت له اليد على المنطقة، وتوسعت مدرسته وذاع صيته وكثر أتباعه ومؤيدوه ولم يبق على تنكره.. وحفظ بعض تُراث أبيه، وأعاد كتابة مؤلفات والده في سنة الاستشهاد وما بعدها.

ثم طلب منه جماعة من البحرانيّين الذين يسكنون البصرة أن يزورهم ويسكن عندهم بين فترة وأخرى، فانتقل إلى البصرة وبنى فيها مسجدًا وقام بالوعظ والإرشاد. وطلب منه الشيخ جابر بن وادي العامري شيخ منطقة كعب ووالد الشيخ مزعل والشيخ خزعل، فقبل الطلبين ونزل في أرض حمراء التراب،

وبنى مسجدًا له في تلك المنطقة التي سميت بـ(المحمَّرة)، وفيها بيت الميرزا التي عرفت بـ(المرزاويَّة).

قسّم الميرزا علي وقته بين قرية المؤمنين والبصرة والمحمرة، وكان له منزل في كل منها، وانتشر اسمه وذاع صيته في جميع الأمصار، وفي منطقة جنوب العراق على وجه التحديد. وتخرج منهم على يده علماء أتقياء، تفرقوا في الأمصار يبثون طريقته.

أهم مصادر السيرة

1 ـ **بستان السياحة**، (فارسي)، الحاج ميرزا زين العابدين الشيرواني، (مخطوط)، (ص 652 ـ 655).

2 ـ **تاريخ منتظم ناصري (فارسي)**، محمد حسن صنيع الدولة اعتماد السلطنة، تصحيح: محمد إسماعيل رضوائي، د. ط، ت.

3 ـ **تسلية القلوب الحزينة الجاري مجرى الكشكول والسفينة**، الميرزا محمد بن عبد النبي النيسابوري (مخطوط). (أجزاء متفرقة).

4 ـ **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات**، محمد باقر الخوانساري، الدار الإسلامية، بيروت، ط 1، 1991م، (ج 7، ص 121 ـ 138).

5 ـ **ريحانة الأدب: في تراجم المعروفين بالكنية واللقب**، (فارسي)، ميرزا محمد علي المدرس، انتشارات خيام، ايران، 1374هـ، (ج 1، ص 85).

6 ـ **شهيد المحدثين**، أبو الحسن علي بن جعفر بن مكي آل جساس الخويلدي الخطي، نشر مكتبة الأبرار، النجف الأشرف، د، ط، ت. (3 أجزاء).

7 ـ **طرائق الحقائق (فارسي)**، ميرزا محمد معصوم علي الشاه نعمة اللاهي الشيرازي (نائب الصدر)، تصحيح: محمد جعفر محجوب، نشر كتابخانه سنائي، طهران، 1319هـ. (ج 1، ص 183 - 185).

8 ـ **عبرة الناظرين**، الميرزا محمد بن عبد النبي النيسابوري (مخطوط).

9 ـ **العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية**، محمد الحسين كاشف الغطاء، تحقيق: جودت القزويني، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1998م.

10 ـ **فارس نامه ناصريلى (فارسي)**، للحاج الميرزا حسن الطبيب بن ميرزا حسن الحسيني الفسائي، تصحيح: منصور رستكار فسائي، مؤسسة انتشارات أمير كبير، تهران، 1378. (ج 1، ص 691 - 692).

11 ـ **كشف الغطاء عن معايب الميرزا محمد عدو العلماء**، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، تحقيق: رسول جعفريان، كتابخانه، موزه ومركز اسناد مجلس شورى اسلامي، تهران، ط 1، 1931هـ.

12 ـ **الوجيزة في حياة الوالد ومقتله**، الميرزا علي جمال الدين، منشورات دار الحسين، كربلاء، د. ط، ت.

دَام ظِلُّهُ

في لحظة، لم يكن أحد يعلم أن الزمن سيُطوى على مأساة، وأن البيوت التي عاشت فيها الحكايات ستتحول إلى رماد. لم نكن نعلم أن الليل لن ينتهي كعادته، بل سيمتد طويلًا في أرواحنا، يُطفئ الشمس حتى وهي في كبد السماء. فحين دوّى الصراخ الأول، أدركنا أن الفجر الذي سيأتي بعد هذه الليلة، لن يكون كما كان أبدًا.

لم يبق سوى صدى أنفاسنا المتشحطة من دخان النيران المشتعلة في المنزل.. خرجنا من بين الركام ببطء، نتلمس الطريق بأقدام مرتجفة، كأننا نولد من جديد، عيوننا مثقلة بدهشة ما حدث. الدخان لا يزال معلقًا في الهواء، وأضواء المساء الباهتة تنعكس على المنازل كأنها تحاول رسم ملامح لما كان قبل الحادثة.

خرجنا من سرداب ال[illegible] اد بحذر شديد... سرنا وكأننا قافلة من الأشباح الهائمة، وأصداء الخوف تتصدح في الهواء وتطل على قلوبنا. فيما تلتقط الأنفاس الحزينة زفرات الهواء الباردة. النساء يتمايلن في صمت، أبصارهن تعبر عن حيرة ورعب عميق ورهبة.. الأبناء يتمتمون بصوت هامس، يعكس صوت الاضطراب الذي يخيم على قلوبهم.. صار القرار بيننا أن نتجه إلى بلاد فارس عبر طريق البصرة، فرب أمل يختبئ خلف ستار مجهول..

ISBN 978-9953-93-795-3

